بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا

ومولانا محمد وسلم

هذا المشرع، ساهل المقطع، والمجمع، يروى منه الكاتب والناظر والسامع، سالم من تعقيد افرنقع وتكعكعي [1].

لله التّصرّف فيما نشا بالاختيار، كيف شاء لا بالقهر والإجبار، يوتي الملك من يشاء [2] ابشروا بها يا رعاة الغنم [3] وساكني القفار، وينزع الملك ممن يشاء ومن تبعتهم الجنود وتّختوا الأمصار، ويعزّ من يشاء كسلمان الفارسي [4] أمير في مداين الأكاسرة أولي العز والافتخار، ويذلّ من يشاء كبني يزيد سلطان الروم حين أسره تيمور أمير التتار [5]، وكسلطان تونس علي باشا [6] حين تفرقت عليه الأنصار، ولم ينفعه ما شبد من الأسوار[7]، فاعتبروا يا أولي الأبصار، إنّ الملك الدايم لله الواحد القهار، لا إله إلاّ هو العزيز الجبار، والصّلاة والسّلام على رسوله المختار، وعلى آله وصحبه النجوم الأبرار.

---

(1) تكعكع الرّجل : احتبس عن وجهه، أو جبن، وهي لغة في تكأكأ. وافرنقع : مطاوع فرقع، عدا ولوى عنقه، افرنقع عنه : انكشف وتنحّى.

(2) اقتباس من القرآن الكريم، البقرة، الآية 247، «والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم»

(3) في الأصل : رعات هكذا كثيرا من الكلمات غير صحيحة الرسم.

(4) سلمان الفارسي، صحابي جليل، هو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، جعل أميرا على المدائن وأقام فيها إلى أن توفي سنة 36 هـ / 656 م. له في كتب الحديث 60 حديثا. والمدائن : مدينة قرب بغداد كان فيها إيوان كسرى وسميت بالجمع لكبرها. وفي الأصل : سليمان

(5) بني يزيد : يعني به السلطان بايا زيد الأول حكم من سنة 1389 سنة 1402 م. تغلب عليه تيمورلنك في هذه السنة. وقد فتح بايازيد كثيرا من البلدان الأروبية.

(6) ص : كعلي باشا سلطان تونس. وهو ابن محمد باشا بن أخي حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية. توفي في 25 سبتمبر 1756 م وتولى الحكم في 7 سبتمبر 1735.

(7) إن كتاب المشرع الملكي يؤرّخ بالأساس لعلي باشا، صعوده للحكم ثم نهايته.

وبعد فإن علم التاريخ عبرة للمعتبرين، وحصول وعظ للسامعين والناظرين، في سير السابقين واللاحقين، فالعارف به على بصيرة من أمره ان الوارث هو الله ربّ العالمين، وكان حصل لنا بعض اطلاع على بعض كتب التواريخ، فاشتاقت النفس إلى الزيادة منه مع قلة البضاعة، وعدم معرفة الصناعة، فيا لله العجب ممن تحدثه نفسه مثلي أن يتمسك بطرف الفاضلين [2] ويتبع آثارهم فيما جمعوا في الأولين والآخرين إلى أن وصل إلينا تاريخ «بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» استخرجه من اللغة التركية إلى العربية الحاج حسين خوجة (9) رحمه الله، وذكر في هذا الكتاب ما فتحوه سلاطين آل عثمان، إلى أن وصل إلى السلطان سليم الثاني (10) رحمه الله، وذكر فتحه لحلق الواد ولتونس حين تغلبت عليه النصارى فبعث السلطان سليم سنان باشا (11)، فلمّا وصل إليها جاهد من بها من الكفرة والمرتدين فيسّر الله [له] (12) الفتح، وشتت جمع النصارى بالأسر والذبح وأعادها للملة الإسلامية، وترك بها عسكرا تركيا (13) للحمية، وجعل لهم باشا ورجع إلى الديار السلطانية، وتوالت الدولة

---

(8) ص : البتا.
(9) توفي حسين خوجة سنة 1169 هـ / 1755م، والكتاب «بشائر أهل الإيمان» هو في تاريخ سلاطين آل عثمان من عهد السلطان عثمان الأول إلى السلطان أحمد الثالث. والذيل هو الباب الرابع مخصص لتونس من الفتح العثماني إلى عهد حسين بن علي طبع الذيل بتونس سنة 1326 / 1908 باشراف محمد بن الخوجة، وأعيد طبعه بتحقيق الطاهر المعموري عن الدار العربية للكتاب سنة 1975.
(10) سليم الثاني : تولّى الملك سنة 1566 م وتوفي في 12 ديسمبر 1574 م. تم في عهده استرجاع تونس من الإسبان في أوت 1574 / 6 جمادى الأولى سنة 981 هـ.
(11) سنان باشا : عينه سليم الثاني السلطان العثماني قائدا على الجنود الذين خرجوا من القسطنطينية في غرة جويلية 1573 لإفتكاك تونس من الإسبان وفتحوها والحقها بالولايات العثمانية. انظر عنه : خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب. الدار التونسية للنشر، ط. 4، ص 157 - 161.
(12) زيادة عن ص.
(13) ص : تركا.

التركية باشا ثم بلكباشية (14) ثم داي ثم باي إلى الزمن الذي نحن فيه (15).

وذكر حسين خوجة أمراء تونس باختصار إلى أن وصل إلى الأمير حسين بن علي (16)، ولما كان خوجته (17) وبه ظهر عزّه وكثر ماله عقد فيه فصلا مستقلا مطولا، وذكر [في] آثاره الجميلة في بواكر أيامه ولم يذكر [له] ما جرى في آخر عمره مع ابن أخيه، فاستخرت الله [تعالى] في جمع كتاب يشتمل على وقايع البيات الأربع مما رأيته بعيني أو سمعته أذني، وسميته «المشرع الملكي، في سلطنة أولادعلي تركي»، وجعلته أبوابا :

---

(14) قائد مشاة أو رجالة Commandant d'infanterie.
(15) أي سنة 1177، انظر ص 12 من المخطوط.
(16) حسين بن علي : تمت له البيعة في 13 جويلية 1705 وثار عليه ابن أخيه علي باشا سنة 1728 وانقسمت البلاد إلى صفين : حسينية وباشية. وتغلب الباشا سنة 1735 واستمر القتال إلى أن مات حسين بن علي بقطع رأسه مباشرة بيد يونس حفيده للاخ في ماي 1740. ومزّق جسده إلى قطعتين دفنت إحداهما بالقيراون والأخرى بتونس. انظر الورائة على العرش الحسيني : لمحمد الصالح مزالي تونس 1969.
(17) خوجته أي كاتبه، ويقال أيضا خواجة أو خواجا، وكان يكتب بالتركية لمحمد باي بن مراد.

الباب الأول في ذكر أخبار المرحوم حسين باي بن علي تركي :

ولما استقر على [3] كرسي المملكة التونسية، وتصرف في قطر بلاد افريقية، وسار في الناس سيرة مرضية، فما أطلع على بر ومعروف إلا وأخذ في اتصاله، ولا علم بمنكر إلاّ وبالغ في دفعه وانفصاله، وقمع شوكة أهل البغي والفساد، وقمع طايفة الخلاف والعناد، وانقاد له العاصي، وأطاعه الداني والقاصي، ورفق بالفقراء والرعية، وساس البلاد بأحوال مرضية، واهتم باجراء الشريعة المحمدية، واحيى رسوم السنة السّنية، وأمنت الطرقات، وكثرت في أيامه الخيرات، فعمروا الرباع والرياض، وبنوا القصور بأمنه المستفاض، ما لم يكن في زمن غيره من المتقدمين ولا على عهد سلاطين بني حفص الأقدمين، ما لا يعد ولا يحصى، ولا يحد ولا يستقصى، ولو تتبعناه واستقصيناه لاحتاج إلى مجلدات ولكن نذكر نبذة من بعض ما اختص به - حفظه الله - من خيراته وما أحدثه وجدده، ليكون إن شاء الله في صحايف حسناته مجملا على وجه الاختصار، بارك الله فيه وفي أيامه وعوضه جنّات الخلد والنعيم، وشفاعة النبي الرحيم، صلى الله عليه وسلم، ومتعه بالنظر إلى وجه الكريم. (شعر)

وما بلغت كفّ إمرئ متناول * من المجد إلا والذي نال أطول

وما بلغ المهدون للناس مدحه * وإن أطنبوا إلا الذي فيه أكمل[18]

(18) جاء ذكر البيتين في ذيل بشائر أهل الإيمان، ونلاحظ أن الصغير بن يوسف ينقل هذه السطور حرفيا من الذيل.

فأول حسنة من حسناته التي اهتم بها وبناها مدينة القيروان حتى جدّد رسومها وأحياها، وهي مدينة مقر الابرار [4]، ومناخ الصحابة الكرام [19] والاخيار، وأول أساس [20] أسسوه رضي الله عنهم عند ظهور الإسلام، واتخذوه مستقرا للغزو والجهاد على الكفرة اللئام، ولطالما تجهزت منها العساكر الإسلامية، ومنها فتحت أقصى بلاد المغرب، وأشاعوا الملة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية. وشهرتها تغني عن التعريف بها، وقد تقدم ذكر هدمها على يد مراد باي الأخير [21].

وبعد مرور أيام قلايل من استقراره حفظه الله، تجهز ورحل بمحلة الشتاء كعادة الأمراء المتقدمين، وطرق مدينة القيروان ووجدها على حالة من الهدم والخراب، باكية على دثورها، نايحة على معالمها وقصورها، فلاحظها بعين الرعاية، وشملها بساعد بره، أحسن الله إليه، وباشر أولا في بناء سورها بالجد والاجتهاد، وأخلص فيه النيّة لربّ العباد، وصرف عليه من خاصة كسبه مالا جسيما، واهتم به اهتماما عظيما، ولم يكن له مشارك في هذا الثواب الجزيل، في كثير الأشياء منها ولا القليل، وادخره ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وعين لها ما تحتاجه من المهمات

(19) الواو ساقطة من ص.

(20) في الأصل : إيساس.

(21) مراد باي هو المشهور بمراد بوبالة، وهو الذي فتك به إبراهيم الشريف، خرّب القيروان ولم يترك بها سوى المساجد وبعض الزوايا. قتل في 13 محرم سنة 1114 (16 جويلية 1702) وهو آخر دولة بني مراد. انظر خلاصة تاريخ تونس. ص 174 - 175. ط. الدار التونسية للنشر. يقول عنه احمد بن ابي الضياف : «ولم يترك بها بناء قائما إلا الجوامع والزوايا» (ج 2، ص 96-89). ونلاحظ أن الصغير ينسب الكلام إلى حسين خوجة.

والمصاريف للفعالين والعمالين [22]، فكان تمامه في مدة سنة، كان من كان نايما وقام من السنة.

ومن غريب الاتفاق أن ألهمته الحكمة الإلهية، وحركته القدرة الأزلية، إلى أن كان ابتداؤه ومباشرته لبنايه في يوم عرفة، كما أن هدمه [كان في] يوم عرفة، وتمّ بحمد الله على أكمل منوال واتقان في أمد قريب [5] وجاء أحسن مما كان، فلا شك أن الأقدار له مساعدة، والحسنات إليه عايدة، «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» [23]. ثم توجه بنظره السعيد، ورأيه الرشيد السديد، إلى تعمير مدينتها وإحياء مساجدها ودورها ومساكنها ودكاكينها وأسواقها واستجلاب أهلها من جميع الأقطار والبلدان. وبنوها وجددوا رسومها وأتقنوها أحسن اتقان، وعمرت أحسن عمارة وزادت [24] على ما كانت عليه في سابق الأيام أكثر من ثلثها بلا شك ولا ارتياب، وعلت فيها الرباع، وزاد فيها الخير والمتاع، ولم يزل مداوما على ممر الأيام والسنين، يصرف من ماله جملة عظيمة، حسبة لله رب العالمين. وأحيا في القيروان من المساجد ما ينيف على الخمسين، وعيّن لهم ما يقوم بتعميرها من حصر وزيت وغيرها بعد الترميم والإصلاح، وكذلك في تشييد أضرحة الأولياء وزوايا الصالحين ما لا يدخل تحت [الحصر] [25] والعدد، وجدد فيها رسوما كثيرة مثل المصلّى الذي خارج المدينة بعد خرابها، واستجلاب الماء إلى سقايتها لانتفاع المسلمين. ثم زاد واشترى ثلاثة آبار [26] عذبة الماء من خاصة مال نفسه، وهيا [27] لها سقايات، وركّب عليها الآلات، لجذب الماء وعيّن لها

(22) في ذيل بشائر أهل الإيمان : للفاعلين والعاملين.
(23) قرآن : الحديد، الآية 21.
(24) في الأصل : وتادت.
(25) ساقطة من الأصل.
(26) في الأصل : ابيار.
(27) ص : وبنى لها.

رجالا للخدمة مقررين، وأوقف عليهم أوقافا وعين لهم مصاريف ليدوم النفع بهم للفقراء والمساكين.

ومن حسناته إصلاحه وتعميره للسّقاية المنسوبة للمرحوم يوسف داي [28] بسوق رحبتها [6] وصرف عليها مصروفا من خاصة مال نفسه، وأحياها بعد اندثارها فجاءت أحسن مما كانت، وأجرى لها ماء وانتفع بها المسلمون [29]، ولم ينفك أبدا في كل عام من أفعال البرّ والخير والحسنات على ممر [30] الأيّام واللّيالي من حين جدد رسومها أثابه الله. آمين.

ومنها إيجاده للمدرسة الجديدة التي أحدثها وبناها بها فجاءت من ألطف وأحسن [وأشكل] المدارس. ورتّب فيها درسين إثنين أحدهما صباحا والآخر عقب النهار، ومعلما يقري أولاد المسلمين القرآن العظيم، وشيخا للتجويد. وأحدث بقربها سوقين بعدة دكاكين للتجار وغيرهم وأوقفهما على المدرسة المذكورة مع غيرهما من الرباع والضياع. ورتب للمدرسة [31] والطلبة ولشيخ التجويد تعيينات ومرتبات قدر الكفاية وزيادة.

ومن جملة خيراته المدرسة الجديدة التي بناها بصفاقس، [وبنى بها خانا للمسافرين وأوقفه على المدرسة المذكورة مع رباع وعقارات ورتب بها شيخا للتدريس وإماما ومعلّما يعلم أولاد المسلمين القرآن العظيم] [32]،

(28) يوسف داي : تولى الحكم سنة 1019 هـ / 1610 م إلى وفاته سنة 1047 هـ 1637 م. عرف بأعماله الحميدة، من آثاره جامعه قرب ضريح سيدي علي بن زياد، والمدرسة اليوسفية، وسوق الترك والبركة والشامقية واصلاح الحنايا الحفصية.
(29) الأصل : المسلمين.
(30) ص : مرّ.
(31) في ذيل البشائر : للمدرس.
(32) عن ص وذيل البشائر أيضا ونلاحظ أن الصغير بن يوسف قد بدأ يستخرج حسنات حسين باي من خلال فصل البشائر.

ورتب لهم مرتبات للشيخ والطلبة حسب أقدارهم ولخدمة الموظفين بها أثابه الله وعامله بنيته [آمين].

ومن جملة حسناته تجديده للمدرسة التي بجزيرة جربة، التي بناها المرحوم مراد باى بن المرحوم محمد باشا سامحه الله آمين [33].

ومن خيراته رحمه الله تجديد رسوم الزاوية التي بمدينة سوسة، وصيّرها مدرسة ونسبها لحضرة القطب الرباني والغوث الصمداني، الشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني [34] نفعنا الله به وببركاته آمين. وأوقف [35] عليها أوقافا من عقارات ورباع وعيّن ريعها لمدّرسها وطلبتها ومن يقوم بها من مؤذن وإمام وقيّم وغيرهم جازاه الله أحسن الجزاء رحمه الله آمين.

ومن جملة خيراته أثابه الله مدرسته التي بناها بمدينة قفصة من بلاد الجريد ونسبها للشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني، نفعنا الله به آمين، وأوقف عليها ما تحتاجه لإمامها ومؤدبها يقري أولاد المسلمين القرآن العظيم عامله الله بنيته، آمين.

ومن جملة صدقاته سامحه الله ما كان يبذله ويبذل به خالصا لوجه الله على المدارس وطلاب العلم : أولها المدرسة التي ببلد قفصة من انشاء المرحوم محمد باي، فكان حفظه الله يتفقدهم وينظر في أوقافهم ويعينهم ويبرّهم ويكفيهم مونة الاحتياج ومنها مدرسة المرحوم محمد باي ببلد قابس باحياء رسومها، وتشديد معالمها.

(33) مراد باي بن محمد باشا : هو مراد باي الثاني بن حمودة باي ويقال له محمد باشا أيضا، تولى الحكم سنة 1076 هـ / 1665 م وهو الذي نازل أهل جبل وسلات سنة 1085 هـ / 1674 م وافتتحه، توفي سنة 1086 هـ / 1675 م.

(34) عبد القادر الكيلاني (471 هـ - 561 هـ) (1078 - 1166م) ويلقّب أيضا بالجيلاني والجيلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان وانتقل الى بغداد شابا سنة 488 حيث تفقّه واشتهر أمره. له كتب عديدة وكان يدرس ويفتي.

(35) من هنا سقوط في نسختنا ما يقرب من خمس صفحات. والزيادة من ص : ب 2.

ومنها مدرسة المرحوم محمد باي التي بقلعة الكاف واحياء احباسها وأوقافها وتحريرا لكل من القوانين الشرعية والعرفية، ويمدّهم بالإحسانات السنية. ومنها مدرسة محمد باي التي ببلد باجة، والنظر في أحوالها وأوقافها وطلبتها وإعانته لهم، وترتيب شيخ للتجويد لانتفاع أولاد المسلمين.

ومن حسناته التّي عمّ نفعها المسلمين العابرين في الفلوات والمسافرين من إيجاده للقناطر وترميمه للمنهدم منها على الأودية صعبة المرور ابتغاء مرضاة الله، وإيجاده للمواجل والآبار في الأماكن المعطشّة قليلة المياه، واصلاحه لبعضها مما كان قد انقطع الانتفاع به حسبة لله، وطلبا للثواب.

فمن حسناته إيجاده للماجل الذي بالمكان المسمّى باحمر عين [36] قريبا من بلد باجة، وانفجرت في وسطه عين وانتفعت به الناس. ومن خيراته الماجل العظيم التي أحدثه بالحرب قريب من ماجله الأوّل، وانتفعت به المسلمون وأصلح ورمم ماجل صبنيور [37] القريب منه. ومنها الزوج [38] مواجل اللذان أحدثهما بالمكان المسّمى بقريعات العطش على ثنية [39] تونس إلى باجة أو انتفع بهما الناس غاية النفع. ومنها الماجل الذي بناه قريبا من حناية أقرش بعد اندثار العتيق وعم النفع به المسلمين ومنها الماجل العتيق الذي جدده بعد هدمه المسمّى بو سلسلة على طريق بلد قفصة، وجلب إليه المياه وانتفع به المسلمون.

ومن خيراته الابار : الأول الذي جدده وبناه واستخرج ماءه، وجعل له درجا، البير الذي بخنقة الحمامات وانتفع به الناس. الثاني البير الذي

(36) في البشائر : أحمر عينو (ص 151).
(37) البشائر : اسبنيول.
(38) البشائر : ومنها الماجلان (ص 151)، ونلاحظ أن الصغير ينقل الى العامية من الفصحى.
(39) البشائر : على طريق بلد باجة (ص 151).

أصلحه حتى كثر ماؤه المعروف ببئر البويتة على طريق سوسة [40] وعم النفع به. الثالث البير الذي جدد بناءه أصله للمرحوم محمد باي وهو على طريق القيروان وانتفع به الصادر والوارد.

ومن صدقاته لوجه اللّه القناطر على الأودية الصعبة العبور : فأولّها القنطرة التي أحدثها وبناها على الواد الذي يقال له واد الزرقة كثير النفع بالمرور عليها.

والقنطرة التي بناها على طريق القيروان بمكان صعب العبور بسهله، وقطع شجره وبنى عليه قنطرة وانتفعت الناس بالمرور عليها.

ومنها قنطرة على الواد المسمّى بجلمة على طريق قفصة، وانتفع الخلق بها.

ومنها قنطرة نسبت إليه لأنها بناها من الأساس ولها أثر قديم، تعرف بقنطرة السواطير على ثنية القيروان.

وأما ترميم القناطر الكبار التي على واد مجردة أولها قنطرة المرحوم يوسف داي [41] أصلحها بعد هدم أكثرها وانقطاع المرور عليها، فبناها وصرف عليها مالا كثيرا، وكثر المرور عليها. وكذلك قنطرة محمد باي [الثاني] [42] التي بالحرمين قريبا من طبرقة أصلح ما انهدم منها واتقنها وكذلك قنطرة المرحوم عثمان باي [43] على طريق بلاد كان طاح منها بعض أقواسها فبناها ورجعت كما كانت. والقنطرة التي داخل بنزرت بناها من الأساس بعد سقوطها ولا بقي يمرّ عليها أحد فارتحمت بها الساكنون ببلاد بنزرت.

---

(40) انظر البشائر : ص 152.

(41) البشائر : احمد بن يوسف داي ص 153.

(42) عن النسخة عدد 12622.

(43) الصواب داي كما في البشائر.

وبنى القنطرة التي على واد مليان على طريق بلد سليمان جددها وعم النفع بها.

وكذلك بنى القنطرة الصغيرة القريبة منها، وأصلح القنطرة القريبة من الشيخ بوحميدة، حسنة من حسناته، وبنى القنطرة القريبة من المذكور قبلها وتعرف بقنطرة الذبانة، وعم النفع بها، وكذلك بنى القنطرة التي يقال لها قنطرة التلّة [44] على طريق القيروان، أصلح ما فسد منها، وكثر المرور عليها.

عاشرها إصلاحه للقنطرة التّي ببلد القديم قريبة من بلد الكاف، ردّها لما كانت بعد خرابها وانتفع بها الناس رحمه الله وأثابه وغفر له ذنوبه آمين.

---

(44) في النسخة عدد 12622 : القلة.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

هذا المشرع سهل المقطع

والمجمع يروى منه الكاتب والناظر

والسامع سالم من تعقيد إن نفع وتكلم

الحمد لله المتصرف فيما نشا بالاختيار في كيف شا بالقهر
والاجبار يوتي الملك من يشا. ابشروا بها يا رعات الغنم
وما كفى القفار وينزع الملك ممن يشا. ومن تبعتهم
الجنود وتختار الامصار ويعز من يشا. كسليمان الفارسي
امير في مداين الاكاسرة اولي العز والافتخار ويذل من
يشا. كبني يزيد سلطان الروم حين اسره تيمور امير التتار
وكسلطان تونس علي باشا حين تعرفت عليه الانصار ولم
ينفعه ما شيده من الاسوار فاعتبروا يا اولي الابصار ان
الملك الدايم لله الواحد القهار ولا اله الا هو العزيز
الجبار والصلاة والسلام على رسوله المختار وعلى
آله وصحبه النجوم الابرار وبعد فان علم التاريخ عبرة
للمعتبرين وحصول وعظ للسامعين والناظرين في سير
السابقين واللاحقين فالعارف به على بصيرة من امره ان الوارث
هو الله رب العالمين وكان حصل لنا بعض اطلاع على
بعض كتب التواريخ فاشتاقت النفس الى الزيادة منه مع
قلة البضاعة وعدم معرفة الصناعة فيا لله العجب ممن
تحدثه نفسه مثل ان يتمسك بطرف الداخلين

ذكر ما أحدثه وجدده وغيره بمدينة تونس داخلها وخارجها :

فأول المساجد المسجد الذي بناه بباردو دار سكناه وبنى له منارة عظيمة، لطيفة الشكل، ورتب له إماما للخمس وخطيبا حنفيا للجمعة والعيدين وخوجات حنفية، وجعل له مؤذنين للنهار وقيام الليل، وجعل لهم مرتبات وما يكفي الجميع أثابه الله ثواب المحسنين، آمين.

واخترع في بيت جلوسه خلوة مختصة للصلوات الخمس وإماما مرتبا خاصا به يصلّي به الخمس مداوما في خلوته على وظايف واوراد عقيب كل صلاة، وملازم على القيام بالاسحار ومواظبا على وظايف مخصوصة بعد صلاة الصبح، وجعل قاريا بعد صلاة الصبح يقرا حزبين بين يديه من القرآن العظيم في كل يوم.

وله اعتناء بجميع الكتب المفيدة في كل فن، وانتفع نساخة الكتب بالكتب له الكتب حتى حصل خزنة كبيرة عظيمة الشان، وكان له محبّة عظيمة وشوق زايد إلى رواية الحديث الشريف دايما يرويها الراوي بين يديه حاضرا ومسافرا.

وأما دليل الخيرات لا يغيب عنه ولا يطيحه بين يديه في جميع الأوقات ليلا ونهارا، سامحه الله وعنده اعتقاد زايد وولوع بزيارة الصالحين وأهل الأحوال والبركات والاشارات مترددا على زواياهم والتزول بأبوابهم. وأما تدويره السبحة في يده كاد أن يكون مجبولا عليها، لم يفتر لسانه على ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله في كل وقت وساعة، خالص النية، طيب الطوية، كثير العفو عن أهل الجرايم، صافح عمّن أساء، ولا يعاقب إلاّ بقدر الجريمة بل أقل منها، ويتقى قتل النفس [11] كثيرا التي حرّمها الله إلا في قصاص بحكم شرعي، وكانت له صدقات خافية يبعثها إلى أهلها في أوقاتها وكذلك له صدقات جارية

لأهل الحرمين الشريفين مع كساوي لبعض مشايخ العلم، ويرسل في كل عام مقدارا من الزيت إلى الإسكندرية ورشيد إلى سيدي ابراهيم الدسوقي (45) نفعنا الله به، وإلى سيدي أحمد البدوي (46) نفعنا الله به وإلى غيرهم. ويبعث أيضا جملة من الزيت إلى مساجد الأسارى الذين في أسر الكفار دمّرهم الله، ويرسل الأكفان لموت الأسارى ببلاد الكفار أخذلهم الله، وكذلك يرسل الحصر لمساجدهم أثابه الله ووسع عليه قبره ونوره.

ومن حسناته ترك الأدى (47) المعبر عنه بالجزاءة على غابة الزيتون بمدينة تونس وكان يتحصل منه كثير في كل سنة بدفاتر قديمة الرسوم لراتب عسكرها، وصار يؤديها من ماله ومزق دفاترها وكانت تعم أهل تونس، أهل الأملاك من أرامل وأيتام وأوقاف وغيرهم غفر الله له ما غفل عمّن ظلمه آمين.

ومن صدقاته إحياؤه للبير العذبة الماء التي بقرب باردو، وبناؤه وإحداث السّقاية وركب على البير دولابا وجعل له من يقوم به لأجل شراب العطشان. ومنها إيجاده للبير التي بالجبل الأخضر مع البير الأخرى التي قريبة بالمكان، وأجرى الماء للخزنة التي بقرب الشيخ سيدي عبد الله الشريف (48)، وصرف عليها مالا كثيرا، ومن هناك أجرى المياه لسبالات أحدثها بتونس، أحدها في رحبة الغنم [12] والثانية في رحبة المركاض، وثالثها في رحبة القعادين. وروت الناس بهذا الماء وشكروا فعله ودعوا له بخير.

---

(45) الدسوقي : ابراهيم بن أبي المجد بن قريش، يتّصل نسبه بالحسين من كبار المتصوّفين، من أهل دسوق بغربية مصر، توفّي سنة 676 هـ / 1277م.

(46) أحمد البدوي : أحمد علي بن ابراهيم الحسيني المتصوّف، أصله من المغرب، ولد بفاس ودخل مصر وعظم شأنه فيها، صاحب طريقة، توفّي سنة 675 هـ ودفن في طنطا حيث تقام كل عام سوق بمناسبة ذكرى مولده.

(47) أي الأداء. وفي أ : المعبّر عنه بالجزية.

(48) تقع الآن في نهج قصر الماء المؤدي إلى ساحة معقل الزعيم، وهي التي كانت تدعى رحبة الغنم.

ومن آثاره الحسنة الفسقية العظيمة التي بقرب بير غريد قريبة من الشيخ المراكشي، حفرها وبناها وجعل لها دواميس للمياه ولها أبوابا، ولها قصل يحلونها لملي الماء جميع من يريد الماء، وبعد هذه الدواميس جعل من ورايهم بركة واسعة ودوّر عليها سورا، وتلك البركة مكشوفة للشمس، ويدخل الماء من البركة إلى ذلك الدواميس فتملا الخلق من أبواب الدواميس بالأدلية (49)، وهذه الفسقية عامة النّفع للناس، إلاّ أنّها في أسرع الأوقات يكثر فيها التّراب، ويقلّ ماؤها لأنّ ماءها مجلوب من تلك الارتفاعات التي بقربها، فإذا نزل مطر غزير وغفلوا [عن] سدّ أبواب المجاري الجارية إليها رفع الماء التراب في غزر جريه ويوصله إلى قاع هذه الفسقية، فساعة ساعة ينقضوها (50) من التراب، فإذا امتلت بالماء سدوا باب المجاري الذي هو قريب من القنطرة، جعل الله هذه الفسقية حسنة من حسناته.

وأمّا اليوم [و] السّنة، وهو سنة سبع وسبعين وماية وألف [1177] لما كان بير غريد قريبا من الفسقية، ما بينهما إلا قليل، جرى الماء من تحت الأرض إلى البير وصار ماؤه حلوا، وكان سابقا ماء البير شلوقا (51)، ومن جاور الأخيار نال منهم، جعل الله ثواب هذه الفسقية مكتوبا في طاير عنقه ليوم حسابه. آمين.

ومن صدقاته إجراء الماء على الحناية القديمة التي كان بناها المرحوم محمد باشا (52) وأدخلها إلى مدينة تونس وأحيا بها السقايات القديمة سواء [13] كانت من آثار محمد باشا أو المرحوم يوسف داي، (53) ونظر

---

(49) ج دلو يجمع على دلاء ودلي ودلّى وهو إناء يستقى به من البئر. والأدلية : جمع عامي.

(50) ينقضوها أي يخلّصوها.

(51) أجاج، شديد الملوحة والمرارة.

(52) محمد باشا. لعل الصغير يشير إلى محمد باي المرادي المتوفّى سنة 1108 هـ / 1696، وكانت له مآثر في بناء المدارس والأسواق.

(53) يوسف داي : تولى الحكم بتونس من 1059 هـ / 1610 م إلى سنة وفاته 1047 هـ / 1637، انظر أعلاه الملاحظة 28.

في أوقافهم وإحياء آثارهم وعيّن لهم من ماله من يقوم بهم وعم النّفع بهم ودعوا له الناس بخير، ثم توجّه إلى الصهاريج القريبة التي بأرباض تونس من بقايا السّلاطين المتقدمين (54). أولها التي بالمصلّى التي بجامع السلطان، والثانية التي بباب عليوة، وجدّدهما وأحياهما وجلب ماءهما ونفع بهما المسلمين.

ومن صدقاته ما رتّبه بالجامع الأعظم جامع الزيتونة من شيخ واثني عشر قاريا، يقرؤون له كل يوم حزبين من القرآن العظيم، وأوقف عليهم ورتّب لهما مرتّبات مؤبدة، وانتفعت أولاد المسلمين بذلك أثابه الله ثوابا كثيرا آمين.

وحرص على تعمير المساجد وإقامة الصلوات بها وترميمها في كل عام، ويعين المحتاج منها لإقامة ذكر الله. وله اعتناء بتفقد مقامات الأولياء والصالحين داخل مدينة تونس وخارجها، وبناء ما انهدم منها وتنويرها في كل أوقاته والجارية عليهم من صدقاته من ماله الخاص به في جميع زوايا مملكته من كثرة اعتقاده، وكذلك صدقاته للاحياء من الصالحين ومن ينسب إلى الفقر (55) سواء كان صادقا أو كاذبا اعتقده، عامله بنيّته آمين.

ومن ترقّبه للموت وخوف فجأته (56) بنى تربة عظيمة أعدها لنفسه ولقرابته وبنى بقربها كتابا لنفع أولاد المسلمين وتعليمهم القرآن العظيم، وبنى بقربهما المدرسة التي قريب دار أصطا مراد، وهذه التربة عليها سر ونضارة، من أحسن الترب. واتخذ شيخا للمدرسة [14] وطلبة وأوقف عليهم أوقافا، كل ذلك لوجه الله ورضايه، تجاوز الله عن غفلات ظلمه آمين.

(54) خاصّة سلاطين بني حفص ابتداء من أبي زكريا ـ الأول.
(55) يعنى التزهّد.
(56) أ : مجيئه.

ومنها بناؤه المدرسة الجديدة التي يقال لها الحسينية بجوار جامع الزيتونة، من أحسن المدارس وأتقنها، وبها اليوم نخلة قصيرة في وسط المدرسة، رأيتها طعمت عراجن البسر، وبها طلبة نظاف. حضرت وقفها على طلبة المالكية، وجعل لها شيخا وإماما وقراء لتلاوة القرآن العظيم، نور الله قبره وعليه فسّحه، آمين.

ومن حسناته ورفعه للمنكرات بني الفندقين والسّوق العظيم قرب سوق السكاجين، وكان سابقا مخازن يبيع النصارى فيهم الخمر فاعتنى برفع هذه الرذيلة جزاه الله بأنواع المثوبات، آمين. وبنى قريبا من هذا السوق خانا عظيما وجعل فيه جامعا وميضة (57) واليوم يسكن فيه العزب من الترك (58). وهذا الخان أحسن الخانات بتونس، ومن أعظم حسناته في آخر ملكه تونس.

ومنها خروجه: هدمه للخمارات الثلاث داخل باب الجزيرة، ومحل لبيع الخمر في ذلك المكان عيب كبير، فأمر بهدمها وبنى بعضها ديارا وبقى منها خرابات، فاقتضى نظره السعيد، ورأيه الرشيد، أن بنى مدرسة عظيمة الشأن، في غاية من الإتقان، وجعل شيخها وطلبتها للمالكية، ثم اختار ذلك المحل واتخذ به تربة عظيمة في غاية ما يكون من التزخرف رخاما وجليزا مزوقا بأحسن صنعة وأشره نظرا. ثم [بعد ذلك] أمر بجدّ واجتهاد في بناء الجامع بازاء التربة المشهورة باسمه، وانفق على بنايه أموالا عظيمة [15] وجلب إليه العمد الرخام من بلاد النصارى، والجليز من بلاد الترك، اسلامبو (59)، لا يقدر على صنعة مثله غيرهم لا غربا ولا شرقا. وبنى له صومعة تأخذ الشبهة في صومعة جامع ابن عروس

(57) الفصيح : الميضاة.
(58) ص : الأتراك.
(59) كتبت هذه الكلمة كل مرّة مفصولة وكذلك رسمت بنزرت أما في ص فهما موصولتان وكذا آثرنا كتابتهما.

كثيرا، وجاء جامعا من أرفع الجوامع، وكان بناء الجامع قبل وقعة وسلات، ولم بنته، والصومعة لم يتمها، فلما رجع من فتنة وسلات أتمّ الصّومعة على أكمل حالة وتبهرج وزينة، وكذلك كمّل ما بقي في الجامع من المخصوص (60) في اتمامه الا خارج حيطان المسجد فإنّه لم يتمها.

ومن قوة اعتقاده في الأولياء الصالحين، أصحاب الإشارات والكرامات، أن اتّخذ جانبا من التربة وجعل عليها شباكا بديع الصنعة قدر ما يرفع (61) أربعة قبور. ولما توفيّ الرجل الصالح سيدي قاسم الصبابطي أمر الباي حسين بدفنه في هذه الخلوة، وجعل له تابوتا عظيما. وكذلك لما توفي الشيخ الولي سيدي قاسم الزواوي أمر بدفنه في هذه الخلوة، وترك بينهما محلا لدفنه في الوسط، صالح عن يمينه والآخر عن شماله، وجعل له تابوتا مشابها للتابوت الأول. فكان مما قضاه الله في عالم غيبه ونفاذ حكمه أن كانت تلك التربة بين الشيخين مرقدا وأمانا لمحمد باي بن علي تركي أبي علي باشا عند دخول الباشا لتونس وملكها. توفي والده محمد باي بعد تملك ولده علي باشا لتونس قبل أربعين [يوما] أو ما يقرب فدفنه في تربة ومرقد الباي حسين، سامح الله الجميع، الذي أعدّها لنفسه. ولما جيء بجثة الأمير حسين ميتا مقتولا كما يأتي في محله إن شاء الله تعالى، أمر علي باشا بدفنه [16] خارج الخلوة التي فيها الشيخين، ومحمد باي و[من مات من] أولاده دفنه بقربه وبين القبور وبين الجامع حايط فيه شباك [كبير] من جلس في الجامع ينظر للذي في التربة. ولما ملك ولداه تونس لم يغيّر المدفونين ولم يبدلهما، هذا ما في علمي، وأما اليوم فلم أدر ما فعل بهما، هل بدلوهما أم لا ؟ والله أعلم بغيبه وأحكم. هذا ما انتهى إليه الحاج حسين خوجة في الكتاب الذي جمعه، ومن التركية إلى العربية ترجمه، وسمّاه «بشاير أهل الإيمان في

(60) أي المحتاج.
(61) عامية أي يتسع لـ.

فتوحات آل عثمان» مع بعض زيادة من عندي، ونقلت من هذا الكتاب فضايل وحسنات المرحوم حسين بن علي سامحه الله، كما تراه على جهة الاختصار على هذه الأوراق (62).

ثم لو استقصى صاحب الكتاب واستقصينا نحن في هذه الأوراق لأتت خصايله في مجلدات، وعيت في جمعها الرواة (63) وكان هذا الأمير [من] حين ملك البلاد، وهو سنة سبعة عشر وماية وألف [1117] كاد أن لا يكون في مملكته فقير لاصق بالأرض، لا على جهة المبالغة. ولما علم الله منه صفاء النيّة، في النّاس والرعيّة، أنزل الله الأمطار ببركاتها على النباتات فأينعت بخيراتها (64)، وعلى الأنعام فاندفعت بادراراتها، وعلى التجار فزكت أرباحها، وصارت مملكة الأمير حسين كعبة الخايف والمحتاج، يقصدونها في البحر وفي البرّ من كل فجاج، مع أمن وأمان، وعيشة راضية وعدل منه واحسان. ولم يبق للباي حسين في مملكته معاند (65) ولا كاره له ولا حاسد، فاستلقى على قفاه وبلغ مراده ومناه.

فألقت عصاها واستقرّ بها [17] النوى

كما قرّ عينا بالإياب المسافر

واستخفى كل خسيس، ولم يبق له حركة ولا حسيس، مدة من الزمان، مباجلا لجميع الأقران، لم ينازعه في ملكه أحد، ولم يشاركه في حكمه ولد، والسّعد قائم، والسيف صارم، إلى أن بلغ في السلطنة مدة من السّنين، فقام عليه بعض الحاسدين، الذي بعهد الباي حسين، رحمه الله ما وفّى، وهو محمد بن مصطفى.

(62) كثير من فقرات هذه الترجمة غير موجودة في ذيل البشائر.
(63) الأصل : الروات.
(64) في الأصل يوجد تحريف.
(65) أي ثائر.

[ثورة محمد بن مصطفى على حسين باي :]

وهذا الرجل كان من خواص ابراهيم الشريف الباي الباشا أمير تونس(66) سامحه الله. فلما وقع القتال بين عساكر الجزاير وابراهيم الشريف غدر محمد بن مصطفى ابراهيم الشريف. ولما خاف على نفسه من القتل هرب إلى ناحية القبلة ولازال ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن بلغ مصر واتخذها دارا وتحصّن من اللجاج، وصار كلما أتى رجل عين (67) أو مخازني من الحجاج، يرسل إليه ويتلقاه، ويوعده إن ساعده على الإخراج من طاعة الأمير حسين باي متسمعا. [إذا قصد مملكة الباي حسين من بعض الفجاج، فمن أجابه ضيفه ومن عصاه توعده وأبعده. فلما كثر منه هذا الحمق بلغ إلى الأمير حسين ما فعل ومابه نطق فصار الباي حسين]. له آخذا منه حذره، فيلغه أن بعض الحجاج من قواده لما التقى بمحمد بن مصطفى في مصر ساعده فبلغ ذلك إلى الباي حسين، فلما بلغ ذلك القائد وهو يسكن القيروان فتربص به حتى اطمان، ثم بعث إليه فعاقبه وأخذ ماله، وبالقتل عاجله. فاخذت الحجاج حذرها، وإذا تقابل بهم محمد بن مصطفى في مصر كلمة منهم لم ينلها. ولمّا تمّ في مصر أمره وحضر بمملكته تونس أجله، جمع في مصر جماعة، كلهم ضاعة، فبعضهم من باجة وبعضهم من تونس، وخرج من مصر في يوم منحس، واستعجل على قص راسه وحتف أنفه بسعيه في قدر عشرين من الرجال خالية من الشجاعة والمال، يرحل وينزل إلى [18] ان دخل مملكة هذا الرجل فوصل إلى الباي خبره على جناح طاير، وهو في المكان الفلاني ساير طالبا تبسّة، فلما سمع الباي حسين ركب الخيل في الليل وفي الحين إلى خاله المولّيه (68) أمر الكاف، وبعث مع الخيل أمره وأمر

(66) ابراهيم الشريف : باي وداي وباشا، توفي سنة 1706، قتل مراد الثالث بوبالة سنة 1702 واستولى على الحكم أكثر من ثلاث سنوات.
(67) من الأعيان.
(68) أي الذي ولاّه.

الفرسان بجدّ السير وعجله أن سر ولا تمهل، واركب الخيل وسر وعجّل، وتعرض لهذا الظالم الذي هو لمحاربتنا قادم، وفرق عيونك على كل ثنية عالية ووطية، فببركة شيخي عبد القادر، تصادفه في بعض المقادر، فركب الغزالي من قرية الكاف، بكل شجاع لا يهرب من الموت ولا يخاف.

وسار (69) الغزالي ومعه الرجال والخيل النهار والليل. ولما كان سعد الباي حسين مستقيما في طالعه من غير مين حبس له طالبه قريبا من تبسة، فألقى الله عليه وعلى أصحابه الكلل والنوم من شدة المسير خوفا أن تصدفهم قوم (70) فطلعوا إلى ربوة خالية من الناس، وبعثوا أحدهم أن يصونهم خوفا من اللحوق والكباس (71)، وطاحوا الجماعة إلى الأرض سكارى من التعب والنوم، فما أحد منهم يرفع الراس، وألقى الله على ذلك الرجل العسّاس، الكسل والنعاس، فنام كأنه ما فيه نفس ولا إحساس، وكان نزولهم للراحة في أول النهار.

وأما الغزالي ومن معه من الخيل أخذوا خبر ابن مصطفى ومن معه من ناحية الغرب، فقال : هذا الرجل أظنه قد وصل تبسة فغلب عليه الاياس، فوقف من المسير وقال : ما نصنع أيها الناس؟ فاتفقوا على أن يقطع الشك في ذلك الروابي والغيب (72) فإذا قطعت الشك من هذه البراري فما بقي عليها عيب.

فصوب [19] كلام أصحابه وسار يخوض في تلك الغابات هو وخيله فرارا، خيلا (73) واقفة من بعد فركضوا إليها على عنان واحد. فلما وصلوا الخيل الواقفة بسروجها رأوا رجالا راقدين، وفي النوم غاطسين، بخ على بخ (74) طالب لعدوك فوجدته في محلّك.

(69) في الأصل : وصار.
(70) في الأصل : تصدمهم قوما. والإصلاح من ص.
(71) الكّباس : الهجوم المفاجئ الصاعق.
(72) ج غابة بالعامية والفصيح : غابات وغاب.
(73) في الأصل : وأخيلا.
(74) يقال بخْ وبخْ، أو بخٍ وبخٍ، أو بخْ بَخٍ، وبخٍ بخٍ، وبخٌ بخٌ. تقال عند الرضاء والإعجاب.

فما كان بينهم كلام إلا الضرب بالسيف والتغريز بالرمح، وهم نيام، فالخفيف منهم في النوم فلما (75) سمع الحس فاق وحل عينيه فرأى قد أحاط به القوم فسلم في نفسه وأكثر عليه (76) اللوم. وأما محمد بن مصطفى فاق من نومه وسلّ سيفه وعجل إلى فرسه ليركبه فبادروه بتغريز الرمح والضرب بالسيف حتى خرجت منه الروح، وقتلوهم عن آخرهم إلاّ بعض المساكين أخروه ليعرّفهم من هو محمد بن مصطفى. فلما سألوه عنه قال لهم : هذا محمد بن مصطفى. فقصوا راسه، وفي مخلاة ألقوه، وجمعوا ما عندهم وسلبهم، وعثروا على العساسة فكملوا [به] وأخذوا خيلهم. وفي تلك الساعة تملخن الغزالي من قوة الفرح ومخور(78) لما زال عنه الترح، وطمع في مشاركة ابن أخته في ملكه لما سعى وفي أمره نجح. ولمّا قص رأس الغريم قال لأصحابه : هل منكم زعيم، يركض فرسه في الليل الظليم، إلى أن يصل إلى باردو يبشر فيستغني قبل قدوم الراس ؟

فأجابه بعضهم، وركب فرسه وركض، وبالجري طوى الأرض، ومهمى قام في قبالته دوار قصده وبدّل فرسه بفرس تعجبه، أراده مولاه أو كرهه، وخطف ما وجد من الطعام، وجد السير في الضوء والظلام، إلى أن وصل باردو تونس فنادى على العسس (79) فأجابه بعضهم : ما عندك من الخبر، فقال لهم : خذوا الأمر وافتحوا لي الباب، ولا تطولوا معي قليل الخطاب. فعلموا أن هذا [20] بعض الأخبار، من بعض القفار، فطلعوا إلى بيت خزنادار، فوجدوه مسامرا لبعض السمّار، فأخبروه بما عندهم

(75) كذا.
(76) كذا في الأصل ولعلها عليها.
(77) غير مقروءة في الأصل، والإصلاح من ص والتملخين هو الركاكة والبلادة.
(78) التمخوير : الفساد في الرأي.
(79) في الأصل : العسر والإصلاح من ص.

فدخل على الباي حسين رحمه الله وأخذ منه الإذن، فأذن له في فتح الباب للسيار ففتح له الباب ودخل، إلى أن وصل إلى الباي حسين وبين يديه حل، فبشره بلحوقهم وقتلهم محمد بن مصطفى، وأنا بعثني خالك لما يعلم من فرحك وهناتك، وهذا ما عندي.

فأمر له بجايزة سنية مرضية تامنه (80) من الفقر، ومن فاقة العمر. وطلع النهار وانتظر الباي حسين قدوم الراس إليه. وسمعت بقتله فهرعت من مدينة تونس للتهنية عام وخاص، وبلغ راس ابن مصطفى إلى الأمير حسين باي [فتيقنه] من كان حقا يعرفه، ثم بعثه إلى قبّة الراس، ليراه جميع الناس. وأظن، والله أعلم، أن قتله كان سنة ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين وماية وألف [1134-33]، وهذا ما نعلم ونعتقده من سنة سبعة عشر [1117] التي بويع فيها الأمير حسين رحمه الله، وملك وجق تونس إلى سنة تسع وثلاثين [1139] التي هرب فيها المرحوم علي باشا، لم يقم عليه أحد في سلطانه ما عدا هذا الرجل محمد بن مصطفى فظفر به وقص راسه وانخذل عدوه وبلغ منه مراده جالسا على تخته، سعده في أفقه، مساعدا لعسكره، مناجزا لهم راتبهم ساعيا في مرضاتهم لا يريد تعبهم وشقاهم مع كثرة راتبهم لهم في راتبهم لا ينقص ولا يترك أحدا منهم يبلغ ويغص(81) سواء كان تركي عجمي أو كورغلي من أولاد تونس أو أولاد القرى، لا يفضل هذا على هذا، والخير في هذه المدة الذي تقدمت له كثير قلّ أن تجد رجلا به عسرا، كل شيء رخيص، [21] من المأكولات والملبوسات والمشروبات وجميع ما يباع ويشترى فما عليه حريص، كما يأتي إن شاء الله تعالى تفصيله فردا فردا، والباي حسين رحمه الله بلغ ما أعطاه الله، ما في قلبه هم ولا حقد، إلا قلّة الولد، فإنه من قلّة الولد، في قلبه كمد.

(80) ص : غنته عن الفقر.
(81) تحريف في الأصل والسطر السابق ورد هكذا.

[نظام المحلة وسفرها :]

ومن عادة عمالة تونس ورعاياها، سهلها وجبالها، نخلها وزرعها، من قديم الزمان قبل فتح تونس الترك هذه عادتها لابد أن تخرج في العام محلتين [كذا] محلة صيفا ومحلة شتاء، فمحلة الصيف لها محلتين [كذا] واحدة التي فيها عسكر الترك يسفر بها خليفة الأمير الذي هو، وواحدة يسفر بها الأمير بنفسه ما فيها عسكر يقال لها محلة الريح لأنها كلها خيل، فإذا جاء وقت خلاص المال والعوايد والحبوب سواء كان صيفا أو شتاء، فيأمر الأمير برمي الأخبية في الحريرية (82) ويعمروها المسافرون إلى أن يرحلوا فاقتفى الأمير حسين سامحه الله، أثر القوم السابقين في صنيعهم، فإذا جاء وقت الصيف ووصل إلى دراس النعمة (83) أمر الأمير حسين برمي الكتان في الحريرية محلة عسكر الترك، فيعطي للعسكر رواتبهم فيجهزوا أرواحهم ويأخذوا مؤنتهم ويقضوا حوايجهم، فإذا تموا أمرهم رفعوا متاعهم وأثقالهم إلى الأخبية، وكل خباء له أوضباشي (84) وطايفة من العسكر معه فيدخلون المحلة شيئا فشيئا حتى يتم عدد المسافرين من العسكر في تلك المحلة، ولا يقدر عسكري يتخلف عن السفر إلا لعذر لأن لهم خوجات ضابطون أمرهم ثم يأتي خليفة الأمير حسين، سامحه الله، فيدخل إلى وطاقه (85) ومعه أصحابه وخدامه، فكان قبل بلوغ الباشا علي بن أخيه في مبدا [22] سلطنته يسفر بذلك المحلة أحد أكابر مماليكه مثل مصطفى وزة وغيره. ولما شبّ ابن أخي الأمير حسين، علي باشا بن محمد باي وكبر قدّمه وجعله خليفته في هذين المحلتين، محلة الصيف ومحلة الشتاء، فإذا كمل أمر محلة الصيف طلع

(82) الحرايرية : سهل بين باردو وسبخة السيجومي. والآن منطقة سكنية كبيرة.
(83) النّعمة : الحبوب من قمح وشعير
(84) أوضباشي : كلمة تركية : قائد فريق عسكري.
(85) الوطـاق : كلمة تركية : الخيمة.

بها المرحوم [علي باشا وقبل الرحول] بيوم، يخرج الصف من مدينة تونس ويلبس الدولاتلي (86) عدته ويقفل على رجله سباطه (87). وكذلك يفعلون اختياراته (88) يتقلدون العدة المحلية بالذهب والفضة الغالية الثمن وكذلك أولاد الدولاتلية لهم عدد (89) علية يصنعونها لهذا اليوم ويلبسون اللباس الرفيع ويجتمعون عند دار الدولاتلي ويتحزم الكثير من عسكر تونس وتأتي إلى ناحية القصبة واقفون ينتظرون مجيء الدولاتلي ومن معه فإذا قدم إليهم مدّوا صفين يمينا وشمالا عليهم سر عظيم وناموس جسيم (90)، ومن القصبة يقفون واحد إلى جانب واحد إلى أن ينتهي إلى آخرهم، ثم يمشي الدولاتلي على أقدامه وكلهم كذلك إلى أن يخرجون من باب تونس ويمشون [إلى أن يصلوا إلى سيدي عبد الله الشريف ثم يمشون في الحدرة إلى أن يصلوا إلى الملاسين. وأما الدولاتلي واختياراته فيقفون في نصف] الحدرة (91) تحت سيدي عبد الله الشريف.

وأما الصفان مسافر وغير مسافر فيمشون إلى أن يصلوا إلى المحلة فعندها تتكلم المدافع من القصبة ثم من الأبراج ثم من باردو إلى أن يصير النهار ليلا، ثم ذلك الصفان يعمرون مكاحلهم بالبارود ويطلقونها ثلاث مرات، وتسرع أهل تونس وغيرهم للفرجة في هذا المجمع العظيم والنوبة (92) تضرب بينهم، فإذا وصل العسكر المسافر ودخلوا أخبيتهم رجع الباقون على عقبهم ويرجع الدولاتلي [23] ومن معه بذلك الصفين،

(86) الدولاتلي : صفة للداي وصار يتلقب به من بعده والي مدينة تونس.
(87) ربط خيوط الحذاء لسفرة طويلة.
(88) تابعو الدولاتلي الذي اختارهم.
(89) عدد أي عتاد.
(90) ناموس : عامية يعني هيبة ووقار.
(91) الجهة المنحدرة، النازلة إلى أسفل.
(92) موسيقى عسكرية تعزف في قصر الباي في أوقات منتظمة خاصّة في الصباح عند النهوض من النوم.

فإذا وصلوا القصبة تفرقوا، ويقصد كل أحد مكانه، وكذلك يفعلون هذا الفعل عند قدوم محلة العسكر من السفر ويدخلون مدينة تونس كعادتهم.

وللدولاتلي على خروجه في هذا اليوم مال معلوم يأخذه من عند الأمير، عادة عايدة إلى أن تغلّب الأمير علي باشا سامحه الله وملك وجق تونس (93) بطّل (94) هذا الصف وهذا المجمع وصارت محلة الترك تخرج فرادى وتدخل فرادى كوجق الجزاير، ونقض فعل ما كان قبله، فالله يرحمه. فمن الغد ترحل محلة العسكر إن كان صيفا تقصد ثنية باجة فتبلغ باجة على خمسة مراحل، وفي الليل السادس تنزل بباجة وتقيم عليها ثلاثة أيام، ويتم العسكر ويقضوا حوايجهم ثم يرحلون ويقصدون عيون التوامى (95) وهي حد مملكة تونس.

وتنزل محلة الترك في هذا المكان حتى تخلص ذلك الجبالية مما عليهم من الرمية، فإذا خلصوا عن آخرهم رحلت المحلة وقصدت بوسديرة، محل (96) معلوم مشهور، وتنزل المحلة في هذا المحل وواد مجردة قريب منها، وفي حافة الواد من أسفل عين ماء عذبة غزيرة الجريان، كثيرة الماء فتسقى منها المحلة بكلها. فإذا نزلت المحلة ببوسديرة اجتمعت دريد بنجوعها وقصدت هذا المكان، والمحلة ظهرة الواد (97) فينزل النجع قبلة الواد ثم برسم سوق قبالة المحلة ظهرة الواد وتهرع إليه التجار والصناع وكل من له صنعة والبايع والشاري من جميع البلاد يقصد هذا السوق لما فيه من البيع والشراء والصنعة والربح، مثلا الخياط يخرج من بلد باجة قاصدا هذا السوق (98) ليخيط فيه فإذا وصله [24] [كرى] أخيمة هو

(93) الوجق : النسق من الجند مثل وجق الانكشارية.
(94) أي ألغى.
(95) في النص المترجم عيون التهامي.
(96) محرّف في الأصل.
(97) ظهرة الواد أي شماله.
(98) يذكر السوق ويؤنث.

وجماعة من الصناع يجتمعون فيه لصنعتهم مثل الخياط مغرزا إبرته في كبوسه (99) والذراع (100) والمقص في يده وبرنوصه (101) على كتفه وهو على رجليه إلى أن يصل إلى سوق بوسديرة ويجلس في الخيمة طالبا من الله رزقه ويشتغل في خياطته ليلا ونهارا من كثرة الخياطة، فما تأتي عليه أيام فحصل على دراهم فيبعثها إلى عياله فيكيلون قفيزا من القمح (102) بثمانية ريالات فإذا غلى القمح غايته عشرة ريالات، فتأخذ العيلة (103) ما يكفيها من [القمح] مونة وغيرها، يبعث لهم بشحم البقر يشتريه بالرّخص من جزارة بوسديرة ويبعثه إلى عياله، ثم بعد أيام يرسل [بعض] الدراهم فيشتروا بها لحم البقر للقديد، القنطار من لحم البقر بريال أو أقل من لحم الأراخ (104)، ويأخذون مطر (105) الزيت بثلاثة أرباع وثمن ويرتاحون من العولة، فإذا قدم الزمل (106) من الجريد ووصل بوسديرة اجتمعت الناس من كل محل قريبا أو بعيدا، يشتري ذلك الخياط سفساري وما يكفيه هو وعياله أولاده كسوته وكسوتهم، وتمكث محلة الترك في سوق بوسديرة ما يقرب من الشهرين، فإذا باعت الناس واشترت وخفّ السوق من الخاطر فيأتيها أمر الباي حسين فترحل إلى أن تصل باجة وتقيم ذلك اليوم. ومن الغد ترحل وتقصد تونس، فإذا نزلت المحلة بالحريرية، فمن الغد يخرج ذلك الصفّ المقدّم الذكر ودخلت أهل المحلة إلى ديارهم واجتمعوا (107) بأهلهم وأولادهم، ثم بعد ذلك تتخلف محلة

(99) الكبوس : الشاشية.
(100) الذراع : آلة قيس تساوي نصف المتر تقريبا.
(101) أي البرنس.
(102) ص : قمحا.
(103) أي العائلة.
(104) الإراخ : بقر الوحش، والمعنى المراد : الذكر من البقر والأنثى، ج أرخة.
(105) المطر : القربة.
(106) ج زمالة، القافلة.
(107) في الأصل : ويجتمعوا، وص : واجتمعوا بعيالهم وأولادهم.

زواوة بعد الترك حافظين لسوق بوسديرة إلى آخر يوم من ذلك السوق، فتتفرق الناس وتقصد بلادهم، وذلك الخياط بعد راحته من عولته وكسوته تفضل له عشرون ريالا أو أكثر أو أقل ويقصد [25] داره وعياله في غاية ما يكون من الراحة والسّعة.

هذا داب أول سلطنة الباي حسين رحمه الله فإذا رحلت محلة الترك من تونس رمت محلة الأمير حسين الكتان في الحريرية ودخلتها أوجاق الصبايحية و حوانب وغيرهم (108)، فإذا فرغوا من شغلهم جهز الباي [حسين] نفسه ونصب وطاقه واجتمعت خواصه وخدامه وبعد ثلاثة أيام من رحول محلة العسكر يرحل دارا بعد دار، إلى أن يصل إلى بلد باجة، فيدخل باردو وتنزل المحلة قدام باردو، وجلس على تخته لفصل الحكومات (109) ودفع الظلامات ورفع الخطيات، وجميع الحاضر والباد آمن على رزقه ليس له معاد، فتنزل المحلة طرف الخباء في السانية، لا يقدر أحد أن يمدّ يده ولو اشتاقت نفسه لشاهية إلا بالبيع ودفع الثمن، ليس على البايع فيه غبن، فتربح أهل الأسواق والصنايعية، من أهل المحلة بالشراءات المرضية، فيقيم الباي حسين في باردو وباجة أربعين يوما. هذه عادته ثم يرحل ويقصد باردو تونس فيدخله فرحا [محبورا]، مستبشرا مسرورا، لا من يقول ظلمني ولا من يشتكي أخذ مني.

(108) الصبايحية : فرسان الأهالي : والحوانب : ج حانبة : جمع من الصبايحية المتازين المختصين بشخص الباي.
(109) أي النوازل.

[حسين باي يتسرى ويولد له ولد :]

هذه بواكر أيامه ما في قلبه غصة إلاّ على عدم ولده [فقدّر الله له أن بعث سفينة قرصانا في البحر من وجدوه من النصارى يأسرونه]، فكان من قدر الله أن هذه السفينة متاعه (110) لاقت سفينة في البحر من الجنويز (111) فأخذتها وأسرتها سفينة تونس، فوجدوا فيها إمرأة من الجنويز ذات جمال، بنت عشرين، فاستحفظ (112) عليها رايس المركب، وجهها عن البحرية غيّبه، إلى أن وصل إلى مرسى تونس، ونزل فسار إلى الأمير حسين، وبما جاء به أخبره ففي الوقت بعث إليها، [26] فجاؤوه بها، وبين يديه وقفها، فأعجبته فحاولها على الإسلام فاسلمت فاتخذها من سراريه.

وكانت في ذلك الزمان من الحراير والأكابر تحته فاطمة ابنة عثمان وهي لم تلد ولا رأته في أحضان(113). فلما رأت زوجها الباي حسين إلى هذه الجارية مال قلبه ساعدته، وسعت في مرضى خاطره (114)، فزيّنتها وحلّتها، وفي الليل أدخلتها، فاعجبه صنيعها، ورقد مع تلك الجنوزية. فبعد أيام ظهر بها الحمل، وصارت أعز من في المحل، إلى أن بلغت مدة الحمل فولدت ولدا ذكرا أزهر أغر فتلقته منها الحواضن خوفا عليه من الغير وسماه الباي حسين محمّدا. ثم حملت فولدت ولدا ذكرا فسماه الأمير حسين عليا. ثم حملت فجاءت بولد ثالث فسماه محمودا. ثم رفعت (115) فولدت ولدا أسماه مصطفى، وبعدها رحمها من الحمل قد كفى،

(110) تعبير عامي : أي سفينته.
(111) من أهل جنوة.
(112) احتفظ بها.
(113) أي لم تحتضن صغيرا لها.
(114) تعبير عامي، أي مرضاة باله أو نفسه.
(115) عامية بمعنى حبلت.

وربت الحواضن ابنه البدري [116] «فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار» [117]، فاتخذ له مؤدبا يعلّمه القرآن واختار له من يفقهه ويعلّمه، فتعلّم في أقرب وقت، في نفسه كامل النعت، إلى أن شب وكاد أن يبلغ، فرأت الناس جمالا فخيما [118] وخلقا عظيما وخلقا كريما فلهجوا بذكره واشتاقوا لرؤيته، فكان يعامل الناس بأعذب لسان، ويعطي المسكين الإحسان.

ونشبت رؤوس الإبر للباي حسين في الجاش والصدر من الغايب والحاضر : «إلى متى هذه الغفلة والموت تأتي بغتة؟ اظهر ولدك في حياتك واستخلفه في المحال قبل مماتك». فجعل يقدّم رجلا ويوخر أخرى، فتارة يعزم وتارة يقول : حتى نرى. ولما جاء الشتاء وحضر وقت خروج المحلة إلى بلاد الجريد وسافر بها ابن أخيه علي باشا كعادته [إلى أن وصل] إلى توزر وأخذت القياد في خلاص [27] المال والعوايد وخرج بعده عمه بمحلته كما قدّمنا إلى أن وصل إلى القيروان، ودخل داره، وبإزاء القيروان نزلت محلّته، وجلس للأحكام، والفصل بين الأنام، على عادته السابقة، فإذا خلص أهل الجريد مما هم مطالبون فيه، جاء المشايخ إلى علي باشا وبشروه بأنّا خلصنا وما بقى علينا ملام، فرحل بأمن وسلام.

فيبعث السيارة [119] إلى عمّه ويشاوره على رحوله فيأمره بالرحيل، ويخرج الباي حسين من دار القيروان ويدخل المحلة، ومن الغد تسير الخيل

(116) أي الأول، المبادرة به الولادة.
(117) قرآن : الفتح، 29 : كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.
(118) محرّفة في الأصل.
(119) السيّارة : هو المبعوث الخاص الذي يحمل الأخبار من بلد إلى بلد إلى شخص معيّن ويكون في أغلب الأحيان سريا.

دارا فدارا إلى أن تصل المحلة القصرا [120] فيدخل الباي حسين باردو فتأتيه أولاده يهنونه [121] بالسلامة ويقبّلون يده، فينظر إلى محمد وتأخيره، وعلى باشا وتقديمه فيتغيّر خاطره ويتحيّر فكره كيف التّدبير في هذا الأمر وكيف يكون مآله؟

ثم بعد دخوله يقدم علي باشا ابن أخيه محمد باي تحت السناجق، وعسكره من الترك قدامه ويمينه، وصبايحية الترك بيساره ووراءه، ومن كل برج تترنّم مدافعه وتتكلّم من الصفّ مكاحله، ويدخل علي باشا في أعظم الزي [122] إلى أن يدخل داره بباردو.

(120) في الأصل : القصرى.
(121) الصواب يهنئونه.
(122) في الأصل : الزّاي.

[سعي حسين باي في عزل ابن أخيه :]

ولما قرب الوعد، غضب الزمان وصد، سعى الأمير حسين في عزل ابن أخيه وتولية ولده وحبيبه، اجتمع من هو شعار، وغير دثار [123]، في داخل خلوته ومحلّ صلاته. وقال له : يا فلان بالجواب عجّل، وبه عليّ لا تبخل، فما بقي عندي صبر، على خفيان هذا الأمر، فما نزيدك على هذا فدبّر. اعلم أنّ خدامي وخواصي كثر عندي تلويح كلامهم تارة بالإشارة وتارة بالمقالة على أن نقدّم ونولي ولدنا محمد خلافتي في المحال ونعزل ولد أخي، وهو ولدي أيضا، وهذا الأمر لم أريده ولم يجيء لي على بال، وقد ألحوا علي في هذا [28] الحال، ولمّا دخل هذه السفرة إلى تونس وعسكر الترك صفوفا يمينه وشماله وقدامه وخلفه. أخذتني الحمية على ولدي وهو شعاري، وولد أخي دثاري، والشعر لاصق بجسمي فهو أولى بحميتي، فساعفني كيف يكون العمل والخلاص من هذا الوحل؟

فقال له الرجل : يا سيدي أنت القلب ونحن الجسد، فولد الأخي أبعد من الولد، وولدك صانه الله لم يعرفه أحد، وولد أخيك قد والف به العسكر وعرفته القومان [124] والمخازنية فرد فرد، وأنا نخاف من فجأة الموت تأتي على غفلة، فالله يبقيك لولدك وتتخلّى له عن السلطنة، فما ظهر لك يا سلطان في هذا الشان ؟

قال له : أريد أن لا يتخلّى هذا ولا يتأخر هذا، وأقدم في حياتي الإثنين. فقال له الرجل : إن كان ولابد تقديم الإثنين فابعث إلى اصطنبول بهدية عظيمة للوزير الأعظم فإذا قبلها يخرج إلى ولد أخيك من عند

(123) الشعار هو ما يلي شعر الجسد من اللباس ويليه الدثار.
(124) القومان : هم من تقدمه القبائل للباي من العساكر للخدمة.

السلطان أحمد [125] القفطان والفرمان المطاع المفخم، فإذا وصلوا إليك فوظف ولد أخيك البياشة [126]، وادخله تونس من غير محاشى [127] وإذا وصلنا إن شاء الله إلى وقت خروج محلّة الصيف فاقم مقامك ولدك فهو كاهيتك في محالك وقد أرحت بالك مما أصابك ورضيت ولد أخيك وأظهرت وحكّمت ولدك في عسكرك والراي رايك والأمر أمرك، وأنت سلطان وقتك وحاكم زمانك تولي من تشاء وتعزل من تشاء والله يعاونك على ما تشاء، فإن ظهر لك معي بعض الصواب، والجمع بين الأقارب والأحباب، فافعله فإن جمعك إن شاء الله لا يتلاشى وعليكم السلام.

فقام حسين باي وأمر الرجل بالقيام ودخل داره [29] وجلس في بيته واستلقى على ظهره، وحشمه نيام وفكر فيما خاض فيه هو وصاحبه فوجده فيه جمعا بين أولاد الأعمام، وصمم فيه أن فيه بين الأحبّة القيام، ولا يبقى عليّ فيه بين الناس ملام.

ورقد إلى أن طلع الفجر وقال القايل : قوموا للصلاة يا نيام، فقام الأمير حسين، سامحه رب العالمين، إلى صلاته وتلاوة أحزابه وتكرار أوراده وسماع أحزاب من القرآن. فلما فرغ من فرضه وسننه، جلس على تخته، وبعث إلى وكلايه على أمور برّ [128] الترك وشؤونه، فوقفوا بين يديه مطيعون لما يأمر به فقال لهم الأمير حسين : جهزوا هدية عظيمة خرج [129] بر الترك أريد أرسلها في الفلك إلى اصطنبول في أمر قد حبك [130].

(125) السلطان أحمد هو ابن السلطان محمد الرابع، ولد في 3 رمضان 1083 / 12 ديسمبر 1673، تولى الحكم في شعبان 1115 / أوت 1703 وعزل عن الحكم في ربيع الأول 1142 / أكتوبر 1730.
(126) البياشة : رتبة الباشوية.
(127) كذا.
(128) غير واضحة بالأصل.
(129) خرج : أي من النوع الذي يلائم السلطان العثماني.
(130) حبك : حان وانعقد.

فأجابوه بالسمع والطاعة، لما لهم في هذه الهدية من المنفعة. وأمر الباي حسين خزنادار أن يعطي الوكلاء أكياس الدراهم والدينار فقبضتها الوكلاء، وطلعوا إلى تونس واستفتحوا في تجهيز الهدية وما فيه سعوا من غير زهدة ولا راحة لهم مما هم فيه من العجلة. فحضرت الهدية في أقرب زمان، فأخبروا بتمامها السلطان، فبعث إلى خوجته الذي هو بينه وبين برّ الترك ترجمان، وأخبره بما عنده وأن يكتب كتابا لوزير السلطان بأن يولي ولد أخي علي بباشة تونس ويرسل له الفرمان، المطاع العظيم الشان، ويشرفه بالقفطان، فاشتغل الخوجة بما أمره به حاكم الزمان، فلما فرغ من المكاتب أتى بها وقراها على السلطان، فانعم عليه بالإحسان. ثم بعث إلى وكيله على المرسى فأتاه فأمره أن يكري بعض المراكب لبرّ الترك على عجل، فخرج من عنده ودخل دار القنصل (131) واستخبره فوجد بعض [30] الرّياس عنده آخذ إلى برّ الترك طريقه، فاكترى منه مركبه، وعدّ له ماله ورجع إلى باردو وأخبر الباي حسين :

قد حضر ما أمرت به. فبعث في حينه إلى من عينه للسفر وأمرهم أن يجهزوا أرواحهم ويقضوا حوايجهم، فان الطلوع إلى المركب إن شاء الله [يكون] أول الشهر.

وأخذت الوكلاء في وسق الهدية إلى أن فرغوا منها فأخبروا الباي حسين بأنّا وسقناها ولا بقي للمركب الا أن تطلع مخاطفها، وتحلّ قلوعها. فعندها بعث الباي حسين سامحه الله، لأصحاب السفر أنّ المركب قد وسق وللسفَر حضر، فطلعوا حوايجهم وأحمالهم وتجاراتهم حتى لم يبق لهم شيء. وعند الصباح قدموا إلى باردو وأخذوا الإذن ودخلوا فأوصاهم الباي حسين بما يريد وودعوه ورجعوا، ومن الغد إلى المركب طلعوا، وصار

(131) يبدو أنه قنصل فرنسا وكانت له أهمية في ذلك العصر.

الرايس مقيم لأجل ما يساعده من الريح، فلما وافقه ريحه أقام (132) مخاطفه وحلّ قلوعه، وجرى الفلك قاصدا بر الترك أياما وليالي، والبحر في أمواجه يغلي كأنه غول إلى أن وصلت المركب إلى [مرسى] اصطنبول فحمدوا الله على سلامتهم وهبطوا أحمالهم ومالهم ودخلوا اصطنبول وحطوا أثقالهم في الخان، إلى أن استراحوا مدة من الزمان، ثم أخذوا الإذن في الدخول على وزير السلطان، ووقف بينهم الترجمان، وتكلّم معهم. ثم أخبر الوزير [بحالهم]، وأن سلطان تونس بعث إليك هدية خاصة بك وهدية للسلطان. فأكرم الرّسل غاية الاكرام وأفاض عليهم بالإحسان، وقبل الهدية وقرأ المكاتيب وعلم ما فيهم فأخبر السلطان أحمد الملقب بالغازي بهدية سلطان تونس ويريد من فضلك واحسانك أن تشرّف ولد أخيك بفرمانك وأمرك، وتوليه بباشة وجق [31] تونس. فانعم على الوزير بذلك، فامر الوزير الكتاب بكتب الفرمان، وصاحب الخزنة أن ياتيه بالقفطان، فدفعوا إليه ما أمر به السلطان، فأمر وكيله أن يرفع الفرمان والقفطان إلى حضرته. ولما سمعت الجماعة بأن حاجتهم انقضت، دخلوا على الوزير وبين يديه وقفت. فلما رآهم أمر لهم بهدية إلى سلطان تونس وأعطاهم الفرمان والقفطان في صندوق صغير فدعوا للوزير بخير وشكروا صنيعه معهم وأكثروا في مدحه والثناء عليه وودعوه وقبلوا يديه. فقال لهم الوزير : سافروا بسلام. فرجعوا إلى محلهم وأخذوا في قضاء حوايجهم وبيع تجاراتهم وما بقى لهم إلاّ السفر فاكتروا مركبا وطلعوا حوايجهم وحلّوا قلاعهم فجرت بهم سفينتهم قاصدة برّ العرب إلى مدينة تونس، في بحر عجاج المتلاطم بالأمواج (133)، الداخل مفقود، والخارج منه مولود، أياما وليالي في خلاصهم داعين الملك المتعالي (134)

(132) في الأصل : قام
(133) كذا بالأصل.
(134) في الأصل : المتعال.

إلى أن سلكوا من هذا المهول المحبوس إلى ان دخلوا مرسى تونس، فأخذت أصحاب المرسى خبرهم فاستعجلوا بالخبر للأمير حسين [لأجل] بشارتهم فدخلوا [عليه] وبشروه بقدوم أصحاب الهدية الذين أرسلتهم إلى القسطنطينية فاستبشر بقدومهم واستنظر عليه قدومهم.

فلما نزلت الجماعة من المركب وبمرسى البحرية نزلت، وإلى باردو قصدت، فدخلوا باردو وقابلوا الأمير حسين فأكرمهم وأعلى عنده منزلتهم، وأخبروه بقضاء حاجته، وهدية في مقابلة هديته، وطلعوا من باردو إلى ديارهم واجتمعوا بعيالهم وأولادهم، ومن الغد أمروا بتهبيط وسقهم وأوصلوا إلى الباي حسين ماله من صنادق في مركبهم، وبات كل أحد في منزله، ووصل كل ذي حق حقّه، وبلغ الباي حسين مراده.

ولما [32] تم للامير حسين هذا الأمر بعث أن يرمّموا ويبيّضوا ويصلحوا دار رمضان باي التي بالبطحة (135) فأخذوا في شانها ومرمتها. فلما فرغوا من أمرها أخبروا الباي حسين بأنّ الدار فرغنا من شغلها. فعندها بعث إلى علي باشا ابن أخيه : أن أطلع إلى تونس واسكن في دار رمضان باي، وهذا الفرمان في بياشتك بتونس، وهذا القفطان في توليتك. فما ردّ عليه جوابا، وما أكثر معه خطابا. وأمر بالكرارط فحضرت، وبالأثقال ملئت (136)، وإلى دار رمضان باي وصلت، وحضرت قدامه الأبغال، ورفعوا عليها الأثاث والمال. فلما فرغوا من شيل الأحمال، ركبت في الكرارط العيال، ودخلوا دار رمضان باي.

(135) أي البطحاء : وهي المكان المتسع والساحة، نسبة إلى رمضان باي وتقع في آخر نهج الباشا من جهة القصبة.
(136) في الأصل : مليت.

[علي باشا وزوجتاه :]

ولما أراد المرحوم علي باشا أن يطلع إلى تونس عامل عمّه حسين بالظاهر دون باطن الحس فدخل على عمه وقبّل يده ووقف يرجى في الرجوع اذن عمّه، فأوصاه بما يسلي خاطره ويزيل كمده وبما به يفرحه فقابله بكلامه وحمد فعله وشكر سعيه، وباطنه مخالف ظاهره. ثم بعد هذا الكلام اذن له أن يركب فرسه، وفي تونس يقصد داره. فما صدق أن خرج من عند عمه كأنه كان مملوكا وعتق، أو هرب من الخنق، فركب فرسه الصفرا، وتبعته خواصه صغرى وكبرا، إلى أن دخل دار رمضان باي، وطلقوا (137) المدافع على دخوله من القصبة، واجتمعت به عياله وكانت له زوجتان اثنتان : احدهما (138) كبيرة مامية أم أولاده يونس ومحمد وسليمان، والثانية ابنة عمه حسين باي. وله إلى كبيرة مامية محبة وميل دون ابنة عمه حسين.

ولما فرغ الباشا من أمره وشغل داره طلع إلى ذلك العلي المعتلي فوجده كما يريد ويرضاه، ويشتهي ويتمناه، [33] فأمر في حينه بزيادة بنيان زادها فيه، ومع هذا العلو الشاهق زاد فوقه منزها، فإذا جلس فيه كشف من يمشي من الخلايق وبعث إلى عالمه وجليسه وحبيبه الشيخ محمد التونسي (139) أن يأتيه فأبى عن ذلك إلا أن يأذن له عمّه حسين في اتيانه إليه. فلما وصل الخبر إلى الباشا علي قال : هو معذور فيما نطق به. فبعث خطه إلى عمه يتضرع له. [فلما وصل الخبر إلى الباشا حسين بأنّ ولد أخيه] (140) يستعطفه في أن يمنّ عليه بالإذن لشيخه وعالمه. فأخذ الباي حسين بخاطره وجابره وبعث بإذنه للشيخ محمد التّونسي أن

(137) الصحيح : أطلقوا.
(138) كذا والصواب : إحداهما.
(139) محمد التونسي : انظر ترجمته في ذيل بشائر أهل الإيمان : ص 209-208 وهو مولود بصفاقس، ونشأ بها وتوفي سنة 1121 هـ.
(140) ما بين معقّفين ساقط من ص .

يلاقي ويجتمع بتلميذه وطالبه علي باشا ابن أخينا محمد باي. ويعثه إلى أن وصل الإذن إلى الشيخ محمد التونسي. فلما وصله الإذن قصد دار رمضان باي ودخل على صاحبه علي باشا وسلّم عليه وأخذا في الحديث. فقال له الباشا : ما خطر ببالك خطر ببالي، والله يحسن العاقبة.

[خبر الشيخ محمد التونسي :]

وبقي الشيخ محمد التونسي في أرفع مكان، حال في الجنان، عند علي باشا، وكانت له بيت بمدرسة المرادية، وأنا الفقير إلى ربّه محمد بن يوسف رأيته جالسا في البيت التي هي قريبة من درج الثاني، فإذا دخلت المدرسة اول بيت على يسارك.

قيل في حق هذا الرجل أنّه فيلسوف زمانه، وحكيم وقته فائزا بالعلم على أقرانه. قيل من قوة ما أعطاه الله من الفراسة أنه إذا كان جالسا في مكان، تمر عليه الصبيان، يقول : هذا الصّبي كان من شانه كذا وكذا وهذا الصبي ينشا عالما وهذا الصبي ينشا فقيها وهذا ينشا سارقا، وكثيرا ما توافق فراسته في ذلك. وزادوا في حقه أنّه يعلم علم الأجفار (141)، وقيل لما وقع ما وقع وطلب الباشا الجزاير وحلّ به وكان الشيخ محمد التونسي إذ ذاك [34] بطرابلس يأتي قريبا ما سببه قال لبعض الحجاج المارين على طرابلس قاصدين مملكة تونس : إن علي باشا فعل ما فعل مع عمه. قال له : نعم. فقال له الشيخ : استعجل في أمره وباقي له مدة لم يبلغها وبعدها يملك تونس. هكذا قيل في حق هذا الرجل والله أعلم.

ولما رأت أصحاب الأمير حسين باي سامحه الله الساكنون بتونس كثرة لصوق هذا الرجل بعلي باشا لا يغيب عليه ليلا ولا نهارا إلا ما قل، استعملت للأمير النصح وهم الذع من الملح غاروا من ذلك وحدثتهم

(141) علم الجفر هو علم يبحث فيه عن الحروف من حيث هي بناء مستقل بالدلالة ويسمّى علم الحروف وعلم التكسير أيضا، ويدلّ على الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم.

أنفسهم بأمور وسعوا فيه إلى الباي حسين واستخلوا به وقالوا له : نحن خدامك ويضرّنا ما ينالك، ومن هذا جليس السوء رد بالك، السّاعي في تعطيل سلطانك. قال لهم : من ذلك ؟ قالوا له : هذا النحسي، محمد التونسي.

وكلمة السوء توثر في القلب ولو في أعز ولدك أو عيالك. فلغاهم (142) الباي حسين مرة بعد أخرى إلى أن أثر فيه ذلك، ولا يخلو الإنسان من عدو وصديق. فنذر الشيخ محمد التونسي بعض أصدقائه وقال له : خذ حذرك واخرج من هذا المضيق، ولا بقى ينفعك عند صاحب الكلمة إيمان ولا تمليق. وكان في مدينة تونس الشيخ العارف بالله سيدي مصطفى البايلي (143) للأمير حسين فيها اعتقاد زايد، ما فوق يده عند الأمير حسين يد. فلما سمع هذا الكلام التونسي شيخ الباشا علي ما صدق أن حصل زاوية البايلي فجلس بها واتخذها حصنا حصينا وبلغ هروبه إلى الباشا حسين فتأسف على منعه وصفق الكفّين، وسكت عنه ولغاه من خاطره. ولما طال مقامه في الزاوية جلس بين يدي العارف بالله سيدي مصطفى البايلي واستعطفه وقال له : سيدي، المطلوب من فضلك واحسانك [35] انك تأخذ لي إذنا من الأمير أن يؤمنني على نفسي ونخرج من هنا ونسافر لطرابلس. ففتشه الشيخ : هل نالك ما تكره من بعض الناس ؟ قال له : معاذ الله وكيف ينالني ما أكره وأنا في زاويتك؟ فقال له الشيخ : حيث أردت ذلك، إن شاء الله نبلغك مرادك.

فلما أتاه الأمير حسين للزيارة، وكان كثيرا ما يزوره، قال له : أطلق هذا الرّجل وأمنه يخرج من مملكتك وبلادك، ولا تجعل ذنبه في صحيفتك وهو الشيخ محمد التونسي، أراد الخروج والسفر إلى طرابلس. فأذن له

(142) أي لم يهتم بهم ولم يكترث.

(143) ذكره حسين خوجة في ذيله وذكر أنّه كان يدرّس علمي الحقيقة والطريقة ووسمه بالشيخ القدوة المربي، وله زاوية حيث دفن (ص 207).

بالخروج وأمنه، وبالسفر إلى طرابلس استعجله. فبعث الشيخ محمد التونسي للمرسى واكترى في بعض المراكب وجهز نفسه وإلى وصول البحيرة، وقصده المركب من الزاوية كان خروجه. وسافر إلى أن وصل طرابلس ودخلها واتخذها دارا واستوطنها وبها توفي وبها غاب أمره وعفى وارتاح الباي حسين سامحه رب العالمين من ذنبه وتقليده.

ولما تعطل الباشا علي من جليس يجالسه وفي مسايل الكتب يناظره ويباحثه وكان لم يبلغ للباي حسين عنه كلمة في حق التونسي بما سعت فيه الظلمة وبالضرورة أن الأمير حسين يعلم من ابن أخيه وزوج ابنته لا يريد نفي جليسه، وعنه أبعده وأراد أن يرقع الخرق، وما به القلب احترق، وهو من فعل عمه معه قلبه وسق، وما قدر الباشا علي بحرف ينطق.

[خبر الشيخ محمد الخضراوي :]

قال الباي حسين لبعض خواص خواصه : هل تعلم في مدينة تونس عالما فاضلا جامعا للمعقول والمنقول، مشتغلا بعلمه، شرها للمشروب والمأكول ؟ فأخذ ذلك الرجل في التفتيش عن هذا الرجل الجامع لهذه الخصال السالم من الدعاوي، فقالوا له : عليك بالشيخ [36] محمد الخضراوي، فإنّه آية زمانه في علم المعقول، عالم بما فيه من العليل والمعلول، وكافي (144) درسه في علم المنقول. وأما شرهه فإنه معه قفته ملآنة بالحمص والحلوى والفول، هكذا قيل والله أعلم، فيه بعض غفلة، حاذق في تقرير المسألة، فما تجدون غيره إن أردتم ذلك، فبلّغ ذلك الخاص حين خبر الخضراوي للأمير حسين فبعث إليه فأتاه فلما دخل عليه أجلسه إلى جانبه وعظّمه ورفع قدره. ولما حضرت السفرة إلى جانبه أجلسه فأخذ الشيخ في أكله لا يحتشم، فإذا أخذ لحمة أكلها ومصّ منها العظم،

(144) كذا.

والباي حسين يتبسّم من فعله وهو لا يفهم. ثم لما رفعت السفرة وغسل يديه مسح لحيته وشكر الله وحمده التفت إلى الأمير حسين كأنه يترجّى منه الكلام، ففهم عنه أنه مراده في القيام. فقال له : أريد منك أن تتخذك معلّما وجليسا لولد أخي علي باشا. فقال الشيخ : حبّا وكرامة، أمرك لا يرد ولو كان فيه غرامة، فأمر له بأذرع ملف (145) يجعلها بدنا وشاشا (146) على رأسه يلف، وودعه وطلع إلى تونس فارحا (147) مستبشرا وأخبر أولاده وعياله. وكان وصل الخبر إلى علي باشا بما فعله عمه وأنه أمر الخضراوي [ليؤنسه فصار علي باشا مترقبا لقدوم الشيخ عليه فبعد يوم طلع الشيخ الخضراوي] وأخذ الإذن منه فأذن له الباشا في الدخول، فدخل وسلم على الباشا وبقربه حل، وعلي باشا سامع به قبل أن يراه ولكن مكره أخاك لا بطل، فأقبل عليه وفرح به وباسطه حتى تأنّس به فوجد الباشا علي الشيخ الخضراوي خفيف النفس، أنس الأنس، به ينوّر المجلس، ولكن أين الثرى من الثّريا، وأين العنبر من السميا (148)، ولكن بعض الشر أهون من بعض. واستعمل الباشا علي مع الشيخ الخضراوي مكارم أخلاقه، مضحك في وجهه مقبل سامع لكلامه [37] والشيخ الخضراوي مهمى (149) سمع وقعة بتونس ظريفة أو عجيبة أو نادرة فيحكيها للباشا علي إذا استخلى (150) به في مجلس العلي، قيل إن الباشا علي جالسا في علوه ينتظر الشيخ في قدومه وإذا بالشيخ دخل وجلس في مكانه يحوحل ويحوقل ويقول : بدا الإسلام غريبا وسيعود غريبا. قال له [الباشا] : يا شيخ ما عندك وما هذا الأمر الذي أقلقك ؟

(145) الملف : قماش من الصوف للباس.
(146) الشاش : نوع من القماش يلف حول الرأس.
(147) كذا.
(148) مثل شعبي، السميّة : تصغير سماء، عامية.
(149) كذا.
(150) عامية، أي خلا.

قال : يا شيخي اليوم سمعت معرة ورذيلة وردّة وقعت بتونس. فضحك الباشا وقال له : احكيها يا شيخ الوقت. قال له الشيخ الخضراوي: إن النصارى صاروا يتوسّلون بهم النّاس عند عمّك ليأخذون الوظايف والطرق، وهذا هو القلق، إن ابن رحّال خديم القنصر (151) له خديم (152) مستفقر والجامع الكثير الأحباس، الذي قدّام ديار النصارى الأنجاس، توفّي إمامه أو وكيله فسعت في تحصيله جميع الناس، فتوسل ابن رحّال بالقنصر إلى عمّك فكلّمه عليه القنصر فقضى حاجته وما درى [عمك] الجاهل أنّ هذا بيس العمل يقع في الإسلام ما لا يحل. فضحك الباشا ممّا أقلقه وسكت عنه ولم يجاوبه.

[عزل علي باشا عن قيادة المحلّة وعزمه على الثورة بجبل وسلات :]

وكان الباشا علي له اعتناء زايد في جمع الكتب، وأخرى في علم الأدب واللغة، وله شغف وميل إلى كتاب القاموس (153)، وما يجئ من العلوم النفوس، إلى أن جاء وقت طلوع محلة الصيف بلغه أن عمه مستخلف على المحلة ولده محمد عالي النيف فصوب إلى باردو واجتمع بعمّه وبارك له فيما صنع في استخلاف ولده وفرح وبشبش (154) قدام عمه واستعمل الصبر، وباطنه محترق من عزله وحبسه في داره [لا] تراه فيها الخلق. ولما جاء يوم الصف بعث لعمه ياذن له أن يركب فرسه ويسير مع ابن عمه تحت السّناجق (155) ليحصل بينهما الالف فأخذ بخاطره

(151) يعني القنصل الفرنسي.
(152) ص : نسيب.
(153) القاموس المحيط والقابوس الوسيط في اللغة لمجد الدين محمد الفيروزابادي، طبع في أربعة أجزاء بمصر سنة 1952 وأعيد تصويره وطبعه ببيروت عن دار الجيل.
(154) عامية : رحب وبشّ.
(155) ج سنجق وهو العلم والراية.

(155م) وأذن له في الركوب، ويجتمع بابن عمه فهذا محبّ وهذا محبوب [38]، وشهّر المرحوم علي باشا ملبوسه وركب على الصفرا فرسه وجبدها دار بدار كبرى وصغرى، تتمايل به تحت السناجق وتلعب كأنها بنت عشرين تتعربد سكرى، وهو رجل عتيد ضخم، فايق على ابن العمّ، فلهت به (156) ورمقته عيون المتفرجين عرب وعجم.

وكان الساير خلف ابن سيده أحمد شلبي، راع لأحوال محمد باي مستحفظ عليه، لأنه صغير ما يدري ما عليه وما إليه، وصار تحت الباشا كأنه فرخ نشا وتنبه للناس داني وقاصي فرآهم كلهم باهتين باعينهم إلى الباشا رامقون بأعناقهم إليه كاسرون وبوجوههم إلى الباشا علي ملتفتون. كاد أحمد شلبي (157) أن يقتل نفسه وقال : هذا الأمر لا يطيقه قلبي، فاحمني من هذا الغيظ يا ربي، وما صدق بانفصال الصيف ورجع كل أحد إلى مكانه فدخل أحمد شلبي داره مستمرضا مما أصابه وأخذ يفكر هل يبلغ إلى الباي حسين ما رأى فإذا سمعه ربما يتغيّر، أو يحصل لابن أخيه بسببي ما فيه ضرر فأقع في محذر (158) ولكن هذا الأمر، نكتمه ولا يعلم به أحد من البشر، وعن ذلك استغنى، وجعل اللفظ شاملا للمعنى.

وأمّا المرحوم علي باشا لما وصل إلى دار الباي رمضان، وجلس في مكان، تفكّر في أحوال الزمان، وانقلابه عليه كاد أن يموت مما فكر فيه. ومن هذه الفرجة وتوسيع الخاطر تخيّل له أن عمّه له ضار، وأنه حبسني في هذه الدار، كأنّي ميت في بعض المقابر، وصار هذا الأمر في قلبه أوله

(155م) تعبير عامي، اي استرضاه.
(156) تعبير عامي، اي اهتمت به.
(157) ص : شبيلي.
(158) محظور اي ممنوع.

جذوة وآخره شعلة يزيد شينا فشيئا إلى أن امتلأ الحوض وقال : قطني (159).

قيل من أغرب ما وقع له وأشعل ناره أن دار ابن سلطانة قريبة من دار رمضان باي كما هي معلومة، ووقعت اتفاقية (160) كان أحمد بن قاسم (161) بن سلطانة الباجي والفرياني فرياني، وخصوصا الباجي [39] واقفا عند باب داره وكان اليوم يوم جمعة وحضرت صلاة الحنفية وجامع الباشا قبلة دار ابن سلطانة وإذا بالمرحوم علي باشا طالع إلى الجامع على رجليه، فلما رآه أحمد بن سلطانة وصار الباشا محاذيا إليه لم يهبط من الدرجة التي هو واقف عليها ولا استقبل الباشا ولا يده قبّلها وإنما قال له وهو واقف في مكانه : مالك يا سيدي ماشي على رجليك لو بعثت إلي أرسلت إليك مركوبا لتصل إلى الجامع عليه فنظر إليه الباشا وقال : سبحان [من تنزه عن الفحشاء، قل ما تشاء ومن سطوتي وخوفي لا تخشا، سبحان] من أعطاك ومنعني ورفعك ووضعني، ولكن ما عليك وسوف يأتيك.

وتعدى وخلاه يتخبّط في حشمته، نادم من مقالته التي حصلت له. فلما سمع بهذه المقالة أبوه قاسم بن سلطانة وبّخ ولده وقال له : لو كان فيك رجاء وهمة لما رأيته من بعد استخفيت منه بالزنقة ولا وقع لي ولك هذا الأمر الشنيع الشيّن، وربما يصل هذا الواقع إلى عمه حسين ولكن ما قدر كاين.

ومما زاد الباشا علي حنقا أنه لما بنى ذلك المنزه كما تقدّم وكانت الدار قريبة من الدار عانده أحمد بن سلطانة وبنى فوق أعالي الأعالي

(159) المعنى : يكفي.
(160) اي حادثة اتفقت.
(161) في النص المترجم : بن بلقاسم.

منزها حتى صار أعلى من منزه الباشا علي في السماء شاهقا، واشترى جاريتين اثنتين بأغلى ثمن، فايقتين في الجمال نساء العصر والزمن، وجعلهما في هذا المنزه وألبسهما وحلاّهما بكل شيء حسن، وتخيل له أنه في جنة عدن، محصلا للوالدة والمال والصّغر والحرم والوالد الحنن (162)، فالله إذا أعطى لا يمن، وإذا منع لا يحن. فلما رأى الباشا علي من جاره هذا البنيان الشاهق فار دمه على قلبه، كاد أن يحترق، صبّر نفسه وقال :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه * [40] يكون وراءه فرج قريب

وأخذ في المكر والحيلة، يسعى في المخاتل والغيلة، ومما زاده وأقلقه [وفوّر دمه] على ما قيل أنّ المحلّة لما رجعت من سفرها ونزلت في الحريرية دارها، ومن الغد صفّها ودخولها. ولما طلع النّهار وخرج من تونس الصفّ كعادته والتقى الصف بالمسافرين، والتوى راجعا إلى دياره، ودخل تحت السناجق محمد باي رحمه الله وابن عمه المنكب لمنكبه، لعبت بالباشا المركوبة الصفرا، وتمايلت كالمرّة الأخرى، سبق قدام محمد باي وغطّاه وصار محمد باي وراءه، ما طاق أحمد شلبي أن يصبر، ولا علم أنه في البحر أو في البرّ (163) وقدم على الموت فقال للباشا : يا سيّدي تأخّر قليلا واستو أنت وابن عمّك وحاذيه واجمع طرفك لئلا يغطّيه. فنظر إليه وسكت عليه، ولو كان بيده (164) سيف لأطار رأسه من بين كتفيه، وأيس من سكناه بمدينة تونس، وعمل على الخروج هو وولده يونس، ولما جلس في عليّه كتب كتابا إلى وسلات لبعض مشايخه، وهو له به معرفة وصداقة، وتقرب ولصاقة، أن ياتيه ويقدم عليه، وإذا وصل إلى تونس [سرا يدخل إليه فلما وصل الكتاب إلى جبل وسلات مع بعض من يعتمد

(162) محرّفة في الأصل والإصلاح من ص.
(163) ص : في البر والبحر.
(164) في الأصل : عنده.

علبه الباشا من خدامه وقراه] ذلك الشيخ الوسلاتي استعمل تجارة وإلى تونس قصد، من غير أن يعلم ما عنده أحد، ودخل [دار] رمضان باي وأخذ الإذن فأذن له في الدّخول، فلمّا رآه الباشا سلّم عليه وفرح به وضيّفه، وبعد الضّيافة سامره، راسه في راسه ثم خاطبه على حلوله وهروبه إلى جبل وسلات هاربا من الممات : هل تمنعوني أو تخذلوني ؟ فقال له ذلك الشيخ : يا سيّدي اصبر [علي] حتى نرجع إلى الوسلات، ونعلم ما عند النّاس فمن أطاعني وأجابني اتّخذته ردءا ومن أبى عليّ غالطته ولا راجعته شيئا، ولا اتخذت إلاّ مع الأحداث (165) لأنهم لم يروا موتا ولاسلب أثاث، وإن شاء الله يحصل لك [41] مرادك ونكون سببا في سلطانك، فأحسن إليه بمال وكسوة، وأتحفه غاية التّحفة، ورجع من عنده راجعا إلى جبله إلى أن دخله، وسلّمت عليه جماعته، فشقشق عليهم بأحسن لسان أحلى من العسل حتّى تعجّبوا من [في] مكانه حلّ، ثمّ أخذ في تغيير القلوب على السلطنة، ساعيا فيما يحصل له من المقتلة، وأخذ يقرّب في الشبان ويبعد في الكهول الأقران، وشاع خبره في بني عمّه وعشيرته، فآخر مصدّق وآخر مكذّب وكان هذا الأمر قريبا من عام (166) ثمانية وثلاثين وماية وألف [1138]، فاطاع كثير من الشّبان ذلك الشيخ فتقوى بهم خايفا من العقاب. ثم أخبر الباشا علي بما أوصاه به وأنّ أهل الجبل كثيرهم تحت يده فلما بلغه الخبر، كاد من الفرح أن يطير، وصار يسعى في تبليغ مراده إلى أن يصل إلى أحبابه. ومن أين لك عدو ؟ لك صديق أخبر بعض الأصدقاء الأمير حسين رحمه الله بما ظهر في جبل وسلات وبما هذا الشّيخ في مسامع النّاس ألقاه فالصغير منهم يفرح والكبير يترح، وهذا ما وقع به أخبرتك والسّلام. فتحيّر الأمير حسين من هذا الخبر، ووكّل إلى ربّه الأمر. ولما حضر وقت خروج محلّة الشتاء،

(165) اي الشبان.
(166) ساقط من ص.

وخرجت محلّته قاصدا القيروان، ونزوله تسبّب ببعض الأعراش أنّه يجب اخذهم وهم ساكنون قريبا (167) من جبل وسلات، فانذروا بإذنه، فهربوا قدّامه في الليل، ولم يصبح بديارهم نعم ولا خيل، فموّه على أهل جبل وسلات أنّه يريد الوصول إلى القيروان من ناحية وسلات، فرحل بمحلّته إلى أن نزل تحت جبل وسلات، فهبطوا إليه [42] بأجمعهم ومعهم قصاع النّعمة صدرت بالأكل أهل المحلّة، ثم بعد ذلك تقدّمت مشايخهم وضجّوا بالدّعاء أن لا يبدّل عليهم سلطانا، ولا يريهم في أميرهم حسين بن علي إلاّ ما يسرون به وأمنا وأمانا، ومدّوا أيديهم وقروا (168) الفاتحة وقالوا : «وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين» (169) والله يهلك الظالمين ومن معهم على الشرّ معوّلين، فلما صدر منهم هذه القلقلة قدام الباي حسين، فرح واستبشر وأخذ في الشكّ بما به أخبر وأمر بالرّحيل، فبات النّاس على تخميل، ومن الغد رحل وقصد مدينة القيروان، ودخل داره وجلس على تخته يفصل بين الظالم ومظلومه، وبلغت مسامعه على أهل جبل وسلات ما يكرهه فبعث إلى خليفته بتونس أنّ الرّبوطات (170) بمدينة تونس ليس لها أبواب، وصول أمرنا إليك أحضر المعلّمين وأمرهم ببني الأبواب، فإذا فرغوا من عملهم إجعل لها أبوابا في غاية ما يكون من المتانة والحصانة، وانظر رجالا من يقوم بغلقها وفتحها عند المغرب والنّاس في صلاتها من غير زيادة زهدة ولابدّ ولما قدم أمر الباي حسين على خليفته وقف على ساق الجدّ والاجتهاد، من غير تخلّف ولا أمر معاد، وبنى أبواب الرّبوطات ووقفها، وأمر الصنّاع في تعجيل أبوابها، فحضرت الأبواب في أقرب وقت، وركب وبعث إلى مشايخ الرّبوطات فبين يديه حضرت

(167) في ص : الأعراش التي هي قريبة من جبل وسلات.
(168) كذا والفصيح : قرأوا.
(169) قرآن : يونس، الآية 10.
(170) اي الأرباض.

فأمرهم أن يختاروا رجالا لغلق هذه الأبواب وفتحها قبل المغرب وقبل أن تدخل النّاس ديارها، ورتّبوا لهم ما يقوم بخدمتهم ويكفي مؤنتهم فرجعوا المشايخ إلى محالهم، ونظروا فيمن يصلح لهذا التعب الدايم، والأمر الخطير الهايم، فعيّن كلّ شيخ لكلّ باب [43] أو بابين من يقوم بفتحه وغلقه قبل المغرب، فإذا طرا أمر فهو المطلوب به ولا ينفع شفيع في شنقه.

ولمّا حضرت القايمون بأمور الأبواب دعوهم إلى الكاهية فجلسوا بين يديه فأعطاهم الرّاتب ووصّاهم وأكدّ عليهم وأعطاهم المفاتيح وتحمّلوا للكاهية بكلّ أمر خطر، وما فيه على البلد ضرر، ولما أذن المغرب قفلوا الأبواب ولا بقي عند المغرب يدخل ولا يخرج من هو غاب، وفي المثل «القدر يغلب الحذر».

ولمّا سمع الباشا علي وهو جالس في العلي، كاد أن يموت مما به قلبه ملي، وعلم أنّ هذا كلّه لأجله وما فعله عمّه لأنّه خايف من طلوعه وهروبه، ورجع عمّه من سفره وصوّب إلى باردو ليسلم عليه كعادته، فسلّم عليه ورجع إلى محلّه ثم إنّ الأمير حسين أمر من يسكن [تونس] من خواصه ومن يعتمد عليه في سرّه وعلانيته أن يتخذوا عيونا وجواسيسا، ويرصدون دار رمضان باي ومن يدخل ومن يخرج غاليا أو رخيصا (171)، خالصا في ذوقه أو نحيسا فسمعوا قوله وامتثلوا أمره وعينوا لهذا الأمر من يتحسّس حسيسا، وبالنهار يتجسّس تجسيسا، وما قضي كاين، لا يمنعه راقب ولا صاين. وبلغ الخبر إلى الباشا بأن الرقيب في جوانبك يتحاشا فزاد قلقه وخوفه، وجعل بين عينيه موته [وفواته وأعظم شيء على الإنسان انتظاره موته] وأخذ يفكر من يشارك معه في هذا الأمر، ومن يحمل معه هذا الثقل المضر، فاختار من رجال دولة عمّه أحمد بن

(171) في ص : بخيسا، خالصا في ذوقه أو مخيسا.

متيشة لما يعلم من خيانته ومكره، ومحبّ لزوال دولة عمّه ساع في سقوط عمّه من كرسيه، فأرسل إليه من يعتمد عليه وأخبره فان أجابك فقل له يغير ملبوسه ويأتيني في قيافة طالب يريد قوته. فلمّا وصل الرسول لأحمد بن متيشة بلغه ما قال له علي باشا وأمر [44] الرسول بالرجوع وقل له أنا آتيك عند العشاء، فارتقب مجيئه الباشا علي إلى وقت العشاء، فدخل أحمد بن متيشة مع الذي جاءه في النهار إلى العليّ وسلّم عليه وقبل يده ففرح به وأجلسه إلى جانبه ليس معهم ثالث وأخذا في المسامرة واشتكى له ما قال له أحمد شلبي نهار الصف وأن عمّه أغرته عليه الرجال حتى حصرني في هذه الدار، وجعل أبوابا [للربوطات خايفا منّي لا نهرب وأنا كل يوم ننتظر الموت وكذا وكذا، ولا] لقيت صديقا أطلعه على حالي وما أنا فيه من المقت، وأنا أعلم انك تحبني وبقي الباشا علي يحك له في الذروة والغارب (172) إلى أن قال أحمد بن متيشة : أنا عبدك وخديمك قل لي ما أنت لي به مخاطب. قال له الباشا: اني فعلت كذا وكذا مع الشيخ فلان الوسلاتي فاجابني ورحل إلى جبل وسلات، فأجابه الكثير من الأحداث، وسمع عمّي بما كان في جبل وسلات. ولمّا وصل قصدهم وعلم ما عندهم تارة يصدّق وتارة يكذّب وأخذ مني حذره (173) فقفل أبواب الربوطات عند المغرب كيلا نخرج ونهرب فان ساعدتني فأنت صاحبي وصديقي ومشاركني في وسعي وضيقي. قال له أحمد بن متيشة : أنا مساعدك ولو كان فيه حريقي، ومشاركك في ما تريد ولو كان فيه تفريقي.

ثم أمر الباشا باحضار الطعام فأكلا جميعا ولما فرغا جعلا بينهما

(172) حك الذروة والغارب : تعبير عامي يعني يلحّ عليه ويحمّسه حتى يؤثر فيه.
(173) اي حذرني.

عهد الفاتحة أن لا يخونه ولا يخذله، وأمره أن يشرع في تغيب ماله وعياله، قال له : وكن بازا على قفاز (174) فإذا سمعت أني هربت فدبر في اللحوق وعليكم السلام.

ولما دخل عام تسعة وثلاثين ومائة وألف [1139] وأخبرك أن هذه التسعات لابد وأن يقع فيها شيء من الافات، واسبر [ذلك] تجده كما قلت لك، واعلم أن هذا العام هو آخر الخير بهذه المملكة ولا أتى بعده الشرّ و [الهلكة]. ولمّا دخل هذا العام دامت [45] المطر خمسة أشهر لا تصحى (174م) إلا قليلا، فإذا أذن المغرب وجاء الليل ظهر على الأفق كالبرق من قبلة باجة إلى آخر شرقها في الأفق دايم الخفقان لا يفتر إلى نصف الليل وأكثر يقال له الأمرّان (175).

ومنها أن القمح في المطامر (175م) والبيوت والمخازن وغيرهم أكله السوس وبعد السوس حلج وأكل بعضه بعضا ولو كان في أعلى مخزن فصارت أرباب القمح تكري الزوايل والزنابل، وترمي ذلك الخميج على الزنابل، واتخذت (176) الفلاحة بسببه، ومنها أن القفيز (177) القمح الباجي بخمسة ريالات ولا من يكيله ولا من يطلبه، وأربعة من الخبز، كل خبزة رطل بناصري (178) ولا ثمّ من ينشد عليها (179) ومنها قنطار (180)

(174) اي كن دائما مستعدا للانقضاض، كن دوما منتبها مثل البازي الذي سينطلق للهجوم على الفريسة.
(174م) اي لا تصحو فيها السماء ولا تنقشع غيومها.
(175) ص: الأمزاز : لم تترجم في النص الفرنسي.
(175م) المطامر : ج مطمورة : حفرة كبيرة أو جب لخزن الحبوب.
(176) عامي، اي أصيبت بمصيبة.
(177) القفيز التونسي : 5,20 هل، والقفيز الباجي ضعفه.
(178) الناصري : ثلث الخروبة والخروبة : 1/16 من القرش.
(179) اي يلتفت اليها.
(180) القنطار : 10 كلغ.

العسل بريالين ولا من يشتريه، ومنها المطر (181) من الزيت بثلاثة أرباع وثُمن، ومنها قلّة السّمن الكبيرة بخمسة أرباع (182) أو بريال ونصف، ومنها التمر ثلاثة أرطال بناصري ويأتوا به من الجريد فلم يشتريه أحد فيبيعونه بالطلوق إلى الصيف : الحمل بثلاثة ريالات، ومنها البقرة المليحة السمينة (183) بثلاثة ريالات، والثور للحرث بأربع ريالات، ومنها لحم البقر رطل ونصف بناصري. ومنها الكبش بنصف ريال ولحم الظان رطل بناصري، ومنها الكسوة إن كان ممّن يلبس القفطان فقفطانه وجوخته (184) وتوابعهم لم تصل كسوته ثلاثون ريالا. وكسوة المرأة لم تبلغ خمسة ريالات. ومقطع الكتّان النابلي الجيد عرضه ذراعين بخمسة ريالات، ومنها فرس الخدمة بسبعة ريالات وإذا غلت ثمانية [ريالات]. وفرس السّرج بعشرين ريالا. ومنها الشعير صاروا يعلفونه للثيران يحط قدامهم بالعديلة (185).

ومنها الأمن والأمان، لا سارق ولا طارق. ومنها العدل من السلطان. لا يقول أحد ظلمني ولا أخذني. وكذلك خدامه وقواده، وكل أحد سلطان داره، لا يهتم بعيلة، ولا من يشتغب بنفقة الليل، فأهل إفريقية على هذه الحالة [46] راقدة مطمانة صاح صايح يا أهل إفريقية فيقوا من هذا المنام واستعدوا لشر هذا العام، وكل عام طالما تمتعتم ولا شكرتم، طالما طعمتم ولا حمدتم، فقوموا والبسوا للبلاء جلبابا، واتخذوا للمصايب أحبابا، إن مثلكم يا أهل إفريقيّة كمثل قرية «كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا

(181) اكثر قليلا من 20 ل.
(182) خمسة ارباع ريال. قلة السمن بتونس تحتوي على عشر لبترات، والقلات الأخرى : 15 ل. حسب ملاحظة المترجمين : ص 35.
(183) ساقطة من ص.
(184) القفطان : لباس طويل حتى الكعبين فيه فتحة من الأمام، والجوخة تلبس تحته لونها فاتح، وهي في نفس شكل القفطان، تشد في الوسط بحزام من الصوف أو الحرير.
(185) العديلة : كيس كبير لحمل الحبوب، يصنع بالخيط الأحمر والأبيض والحلفاء.

يصنعون» [186] فأجاب الصابح الرضا، وقال : أنا الذاهب الأول وأجابه الفتى وقال له : أنا البلاء المنزل، فاصبروا على ما يحل لكم فما للظالمين من انصار.

ولمّا جاء وقت خروج الشتاء وسافر الباي حسين رحمه [187] الله ونزل دار القيروان ودخلها، أخذ يتعاطى الأحكام، بين الأنام، مدّة من الأيام، لهجت الخلق في كل بلد ومكان أن النصارى أقبلت، وبكل مرسى نزلت، وكثر هذا اللهجان، بكل مكان، إلى أن بلغ مدينة القيروان، وتحدث به كل انسان، ومن كذّب في هذا قالوا له : أنت تكذّب الإنس والجان. وبلغ هذا الحديث إلى الأمير حسين، وكاد أن يصدق في هذا الطنين، فلما جلس للمسامرة مع خواصه وأخذوا في الحديث فقال لهم الأمير حسين : [هل بلغكم] ما بلغني من هذا الحديث؟ قالوا له : سمعنا أكثر مما سمعته. فقال لهم الباي : لابد لهذا الصراخ من أمر مخطر فسكتوا عنه.

ومن الغد عند العصر بعث للقاضي علي شعيب [188] فأتاه فقال له : يا قاضي إني لا أثق إلاّ بقولك، بعد المغرب تستّر واذهب للشيخ الولي سيّدي عبد العالي، والشيخ إذ ذاك ساكن بالقيروان وسلّم لنا عليه، ولا تبدوه بالكلام إلاّ أن يخاطبك هو، فإذا سمعت منه شيئا فارجع إليّ. فلما أذن المغرب ترنح الشيخ إلى وقت العشاء وتستر وسار إلى قريب دار الشيخ سيدي عبد العالي فقال [47] الشيخ لمن هو جالس معه : قوموا من هنا ولا يبقى معي أحد في الدار. فقامت النّاس باجمعهم، وبقي الشيخ وحده، فدخل عليه القاضي متسترا، فسلّم على الشيخ وقبّل يده وبلغه سلام الأمير حسين وجلس القاضي قريبا من الشيخ، [وسكت]

(186) قرآن، النحل : الآية 112.
(187) ص : سامحه.
(188) علي شعيب : قاضي المحلّة، ولد بباجة سنة 1109 هـ/1697 م، برع في علمي التّوثيق والنوازل، توفي سنة 1777 م ترجم له حسين خوجة في ذيل بشائر أهل الإيمان : ص 260-259.

وسكت الشيخ مدة ثم التفت إليه وقال له : يا قاضي. قال له : نعم يا سيّدي. قال له : بعثك أخونا حسين لما بلغه هذا الطنين. قال له : نعم يا سيدي. قال له : سلم لنا عليه، وقل له أن نصارة [189] البحر أنا ضامن فيها وأمّا نصارة البر خذ حذرك منها يا قاضي قم بسلام.

فقام القاضي إلى أن دخل على الباي حسين وجلس في مجلسه فأمره الأمير حسين بالكلام وما قال له الشيخ، فسكت عنه، فقال له : مالك تكلّم ؟ فقال له : ما يعلم الغيب إلاّ اللّه، وهذه أرباب الأحوال لهم أفعال ومقالات واللّه أعلم، قال لي : نصارة البحر أنا ضامن فيها ونصارة البرّ قل له يأخذ حذره منها، وأنا لا أعلم من هم نصارى برنا. فقال له الباي حسين : لله عاقبة الأمور، ولا هروب من المقدور.

دخلت هذه الجملة في قلب الأمير حسين نكتة. وآخر جمعة صلاها الباي حسين بجامع الحنفيّة لما فرغ الإمام من الخطبة وأراد أن ينزل، وإذا بالغرداوي رجل من الأولياء [190] أرباب الأحوال وقف على قدميه وقال : أيّها الناس عظم اللّه أجركم في أميركم. فبهتت الناس وكادت الجمعة تبطل، لولا الباي حسين ما تمّوا صلاة الجمعة.

ولما فرغت الناس من الجمعة وتمّوا صلاتهم [191] خرجوا يتحدثون بما قال الغرداوي. وأمّا الباي حسين فإنه خفف في قراءة وظايفه وخرج من الجامع ودخل داره وأراد أن يبطش بالغرداوي فمنعوه أصحابه من ذلك، وتنكد غاية النكد وقال : هذه الثانية، الأولى من الشيخ عبد العالي، وهذه من الغرداوي، اللّهم أجرنا [و] من كل شرّ [داوي]. وتغيّر خاطره

(189) اي نصارى.
(190) ساقطة من ص.
(191) ص : الناس من الصلاة خرجوا.

وأمر بالرحيل. فقضت الناس حوايجهم وخرج هو للمحلّى (192). وسافر من القيروان قبل أوانه إلى أن دخل باردو تونس. [48] وسلمت عليه الناس، ولازال آخذه ذلك الكباس.

وأما [المرحوم] علي باشا، لما رجع عمّه من سفره وبلغه ما قالا الشيخ عبد العالي والغرداوي حدثته نفسه أن عمك لا يتصور له في خاطره إلاّ أنت، وأنا لا محالة مأخوذ. فدخل داره وغاضب ابنة عمّه، فبعث إلى أبيها فبعث اليها كريطة فركبت فيها وصوّبت لباردو. قال المرحوم علي باشا : ذلك ما كنا نبغي. ثم دخل داره على زوجته «كبيرة» [مامية] فامرها بأن تحمل ما يعز عليها عند من تعتمد عليها وأنا هارب أنا ويونس. فاخذت في البكاء والتحيب، وغيبت مالها عند كلّ حبيب، ودخل شهر الله رجب، وفي المثل : عش رجبا ترى عجبا، فبعث المرحوم علي باشا عند المغرب (193) إلى أحمد بن متيشة : كن على هي، وله زمان يرصد فيه غفلة الناس، ويغيب كل عسّاس، وجد هذا الفصل عند المغرب تشتغل فيه الناس، بالعشاء وتدخل ديارهم. فلّما حضر وقت خروجه وحكم القضاء عليه بهروبه أخلى الدريبة والعليّ من الناس، وأمر بوّابه : إذا أتاك أحد فقل له الباشا مريض، ما خرج من الدّار. فكل من يأتي يردّه البوّاب. واختار من خدّامه من يعتمد عليه في كلّ حال، فيأمره أن يقضي مآربه فإذا فرغ يركب فرسه ويسبق إلى موضع في الزيتون الذي على ثنيّة باب القرجاني، ويقف ثمة حتى يأتيه. فامتثلوا أمره من هو محبّ فيه، وركب فرسه وخرج سايرا إلى أن وصل إلى المكان الذي قال لهم عليه علي باشا.

(192) اي المحلة ، الجيش.
(193) ساقطة من ص.

[هروب علي باشا وابنه إلى جبل وسلات :]

وأمّا المرحوم علي باشا فانه ترجّى إلى أن غابت الشّمس وأمر بحضور فرسه [الصفرا]، ومركوب آخر لولده يونس، وبقي ينتظر في آذان المغرب، فلما اذن المغرب ودخلت الناس ديارهم وغلقت القصبة ركب فرسه وركّب ولده يونس دون البلوغ معه، وركب بغلة خديمه، وسار من داره راخفا [49] عنان فرسه يسير واحدة واحدة يتبهلل في سيره من إنذار إلى أن وصل قبالة القصبة، ثم سار ووصل إلى باب المنارة، وخرج منه ودخل الربط، وقصد الباب قبل باب سيّدي الزواوي وقيل باب سيّدي قاسم الجليزي وقيل باب القرجاني وقيل باب الفلّة فلما وصل الباب وجده مفتوحا فخرج منه وقصد المكان الذي تواعدوا عليه، وكان الوقت ليلتي المحاق (194) آخر الشهر وعند المنجّمين : من أراد أن يعمل شيئا سرا ولا يفطن به أحد فليرصد هاتين الليلتين. في اعتقادهم انّه يتمّ له ما قصد.

فلمّا بلغ الباشا علي أصحابه قال لهم : هل رآكم أحد ؟ قالوا : ما رآنا إلاآلواحد القهّار (195) الصمد. ثم سار وساروا معه ينده (196) أصحابه. ولما كان في علم الله أنه يسمع عمّه بهروبه تلك الليلة أنّ قهوة المرحوم يوسف داي كان بها رجل اسمه محمد العريبي يسكن في ربط باب المنارة ولا يخرج من القهوة إلا بعد المغرب، فيأخذ فناره ويشعله ثم يأتي على الثنية التي فيها بير الحمّام ثم يلتوي قاصدا بطحة القصبة ويأخذ ذلك الثنية تحت حايط القصبة إلى أن يخرج من باب المنارة، ولما كانت تلك الليلة التي خرج فيها الباشا شعل فناره (197) وأخذ ثنيته كعادته إلى أن وصل إلى درج ذلك التربة التي هي مقابلة حايط القصبة،

(194) المحاق : آخر الشهر او ثلاث ليال من آخره.
(195) زائدة في الأصل.
(196) نده البعير ندها : زجره وردّه وطرده بالصياح، والإبل ساقها مجتمعة أو ساقها وجمعها.
(197) الفنار : دخيل، المصباح. وفي الأصل المعتمد : محمد العربي.

فجلس الرجل محمدا العريبي على تلك الدرج بعد المغرب يترجّى أحدا
من صناعه أو يقضي في الحاجة البشرية (198) فهو جالس على الدرجة
وإذا بالمرحوم علي باشا سايرا هو وولده يونس وخديمه وراءه على بغلته،
فلّما رآه الباشا رد عليه السّلام وتعدّى قاصدا باب المنارة، فقال محمدا
العريبي في نفسه : يا عجبا من الباشا أين قاصدا ان كان لباردو، باردو
غلق، ومع هذا انه لايركب إلا باذن عمّه، وأين قاصد في هذا الوقت ؟
[50] وأخذ يفكر في ذلك. ثم [إنّه] تخيل له أنه هارب، وصمّم اعتقاده
في هروبه فقال : إلى من نقصد ونخبره ؟ فدار فلان بعيدة ودار فلان
بعيدة ولكن دار عمر المورالي قريبة نمشي إليها وأخبره، والكلوف يوصل
إلى الحتوف. فقام وقصد دار عمر المورالي وصار الوقت قريب العشاء.
فلما وصل الدار سأل عن عمر المورالي، قالوا له : هو في العليّ مع
خواصه. وكان هذا الرجل له معرفة تامة بعمر المورالي فأخذ الإذن عليه
في الدخول فأذن له، فدخل فرأى في البيت بعض النّاس فسلّم على
المورالي فقال له : مرحبا بالقهواجي، اجلس، ألك حاجة نقضيها ؟ وشكّ
فيه أنّه يريد يأخذ من عنده القهوة، لأنّه رجل تاجر، فقال له : قم لي
أسارك بشيء. فقام له عمر المورالي ووقف معه ناصت لما يخبره به.
فحكى له ما رأى من ركوب علي باشا في هذا، فقال له عمر المورالي :
لا بشّرك الله بخير، أما قصدت غيري ومالك وللكلوف ؟ اخرج من هنا لا
سامحك الله.

فصار الرجل لا يدري أين يضع رجليه، كاد أن يموت بالنّدم، مما صدر
منه، ورجع على نفسه بالتّوبيخ واللّوم. وأمّا عمر المورالي صار يضرب
في الدائنصة (199) في علوه وقال في نفسه : ان تغاضيت عن هذا الخبر
ومصيره غدا يظهر فيحكي القهواجي لأرباب القهوة ما قلت له فيحدّث
واحد واحدا إلى أن يصل إلى بعض أصحاب الباي حسين ما صدر منّي

(198) ص : او يستبل.
(199) يضرب في الدائنسة : تعبير عامي يعني يذهب ويعود، يجئ ويرجع.

فأقع في محظور، ولكن المقدّر كاين. فأمر بتشعيل الفنار وأخذه خديمه
قدامه وسار طالبا دار رمضان باي ودخل الدريبة، فما قابله أحد، الدّار
قفرا والمزار بعيد، فطلع إلى العليّ فما وجد أحدا إلاّ رجل راقد فنبّهه.
فلما رآه قال له : ما تريد؟ قال له : أين الباشا؟ قال : ما رأيته من
العشي، ولا لي به علم. فتحقق عمر المورالي قول القهواجي فنزل وقصد
باب الدار فوجد في سقيفة الدار نصراني فكلّمه عمر المورالي
ونشده (200) عن الباشا فقال له الرومي : [51] ركب ومعه ولده وخديمه
ولا ندري أين مضى. ثم سأله عن زوجته كبيرة مامية قال له : خرجت من
الدّار والدّار ما فيها أحد إلاّ بعض الخدم، وأنا جعلوني هنا لنعسّ على
من يدخل الدّار.

فتحقّق عمر المورالي خروجه من تونس. وقصد دار الدولاتلي وطلع
إليه وأخبره بهروب المرحوم علي باشا، وفي هذه الساعة ابعث للبوّابين
يفتحوا الباب لنذهب إلى باردو ونخبر عمّه. فبعث الدولاتلي للبوّاب فأمره
بفتح باب المنارة [وأمر عمر المورالي خديمه فأتاه بمركوبه فركب وفتح له
باب المنارة] وبعث إلى شيخ الرّبط فقدم عليه وسبّه وقال له : مالك إلاّ
الشّنق أنت وهذا البوّاب، افتح الباب غضب الله عليك وعلى من جعلك
شيخا. ففتحوا له الباب وخرج وفاح الخبر، بهروب الباشا (201) واشتهر،
واهتزّت مدينة تونس في تلك اللّيلة. ولما قصد عمر المورالي كان الوقت
بعد العشاء. فلما وصل إلى باب باردو والعسّاس ينذر نادى عليه
فأجابه : من أنت ؟ قال له عمر المورالي : افتح لي الباب واسرع. فمشى
البواب إلى بيت خزنادار وكلّم خديمه أن يخبر خزنادار أنّ عمر المورالي
يستعجلك في فتح الباب ليدخل. فلّما أخبر الخديم خزنادار بوصول عمر

(200) نشده : سأله.
(201) في الأصل : بخروج علي باشا هاربا، وفاح الخبر : ذاع.

المورالي المذكور قال : هذا علي باشا هرب من تونس. فقام ووصل بيت الأمير حسين باي فوجده مسامرا لبعض خواصّه، فدخل عليه وأخبره بالإذن في فتح الباب لعمر المورالي، وها هو واقف يستعجل في فتح الباب. قال الباي حسين : علي باشا هرب اذهب افتح له الباب. فذهب وفتح له الباب ودخل، فقال له خزنادار : علي باشا هرب. قال له : هرب ودخلا إلى أن وصلا إلى بيت الباي، فدخل فقال له : ماتت أمي. قال له :من فمك ولا من فمي. فوقف الباي حسين وسمع من في باردو ممّن كان بايتا (202) وساكنا، فاجتمعت كلّها في بيت الأمير حسين أغوات وكواهي (203) كلّها وقوف. فأمر خليل آغة أن يركب في ساعته وركب [52] معه الحوانب، فركب وركبت خيله وأمره أن يسير إلى أن ينتهي إلى طبرقة. وأمر الآغة الثاني أن يركب هو والحوانب ويسير إلى الكاف. وأمر الآغة الثالث بالمسير إلى القيروان. وأمر بعض خدامه أن يركب ويقصد سوسة. وأمر خديمه أن يسير إلى صفاقس وغيّب الله عن ذهنه بعض الثّنايا التي يصل منها إلى جبل وسلات. وتحيّر في أمره وندم على ما أنذر به، وقال: الحقّ مع الجماعة لو سمعت قولهم في سجنه أو قتله لكنت مرتاحا، ولكن «وكان أمر الله قدرا مقدورا» (204) والقدر ما ينفع معه الحذر. فصارت خواصّه تهوّن عليه الأمر وما عسى أن يكون ممّن غدر، ومن كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر.

واهتز باردو بمواليه وعياله وحشمه، وأخذت كلّ ثنيّة الخيل في اللّيل، يركضون ميلا بعد ميل، إلى أن طلع النهار ونحن بقرية باجة وإذا

(202) بايتا : مقيما في الليل.
(203) أغوات : ج آغة قائد جيش وكواهي : ج كاهية : مساعد الآغة وخليفته.
(204) قرآن، الأحزاب، الآية 38.

بالخيل ظهرت من فم الغابة، ظهرت نازلة من تلك الحدب (205) فتشوفت إليها الناس وقالوا : هذا شرّ اقترب، فمن ليس له حاجة وقف ينتظر قدوم الخيل ساعة فساعة، والخيل طلعت من وادي باجة، وسبق فارس يركض إلى أن دخل البلد وقصد محل القايد وكان القايد بها اذّاك رجل يقال له عمر الجحيري. فلّما وصل إليه فارس ساروه بكلام بينه وبين الفارس المذكور فأمر القايد أن يأتوه بفرسه من غير سرج، ويشدّوا سرجه على بعض الخيل، واجتمعت النّاس ناصتين لهذا الاحسان فركب القايد وقاد معه فرسه إلى أن تلاقى هو وخليل آغة قريب البلد فنزل الآغة عن فرسه وركب فرس القايد، وكذلك بدّل بعض أصحابه من عيبت فرسه. وانظر إلى هذا المسير خرج من باردو ربع الليل، وكان الزمان أوّل الربيع فما طلع [عليه النهار إلاّ بحدب فم الغابة، ولما بدا فرسه وكذلك بعض أصحابه سار قاصدا طبرقة، وانتشر الخبر في باجة وفي وقت] قريب وصل [الخبر] إلى أهل الغابة. هذا مسير خليل آغة.

وسهر الباي حسين وخواصه إلى أن قرب الفجر [53] فقام وتوضى إلى أن حضرت الصلاة فصلّى، وإلى مجلسه ولّى، وجاءت الناس من تونس قبل فصلها، وطلعوا إلى مجلس الباي ناكسو رؤوسها، وإذا أحمد بن متيشة داخل لابس عدده (206) ومعه ولده، وقبّل من الباي يده، وقال له : مرني بأمرك ما أنا إلاّ خديمك وكثيرا ما تمتّعنا بنعمتك، وأنا إن شاء الله نبدي نعمتك.

وصار يحكّ للباي حسين في الذروة والغارب، ولسان حاله يقول : أنا معه هارب. فركب معه الباي حسين الخيل وسار من عنده يركض في

(205) الحدب : ج حدبة (بالعامية) ما ارتفع من الأرض والفصحى الحداب، ج الحدب : ومنه : وهم من كل حَدَبٍ ينسلون.
(206) أي عدّته.

الخيل وهو متّفق هو والباشا علي على الخروج بعد المغرب، وأنا نقيم بعدك لابدّ عندي ما نغيّب، وأنا لاحقك بجبل وسلات. ولما ركب أحمد ابن متيشة من داره لم يترك بها حاجة من حوايجه، وغيّب عياله وخدمه. ولمّا علم بوصول كل أحد من عياله ركب هو وولده كما تقدم الخ.

ولما تغيّب بالأفق، فبالفرح شرق، ونزل من على فرسه ووقفت الخيل لنزوله، وأخذ يشتغل بحاجة النفس مدة طويلة حتى ضجت الراكبون وقالوا : بنا قد حبس. فقال لهم بعض أولاده : اعذروه فإنّه به حسس، فإذا أراد أن يستعمل كاد أن تخرج منه النفس. فقام من محل غوطه يكندر (207)، ووجهه معبّس، وركب فرسه وسار واحدة واحدة مستعملا ما عنده من اللأهية إلى أن طاح الليل فبات في بعض التزازيل، هذا ما كان منه.

وأمّا الآغة الذي قصد القيروان، أخذ خبر علي باشا أنّه وصل جبل وسلات فأمر أحد فرسانه أن يرجع إلى الباي حسين بهذا الخبر المفجع، وعجّله الآغة في السير، فرجع يجدّ السّير إلى أن وصل باردو، وأخبر الباي حسين بأن على باشا وصل إلى جبل وسلات فكاد الباي حسين أن يطير، وشاع الخبر في العمالة من النخلة إلى الدخلة (208) ورجعت المسافرون، إلى باردو قاصدون.

---

(207) يئنّ.
(208) أي من الجنوب حيث النخيل إلى الشمال حيث دخلة المعاوين أو الوطن القبلي أي كامل التراب التونسي. وهذه العبارة جميلة تدلّ على وحدة التراب التونسي.

[استقبال علي باشا في جبل وسلات :]

وأمّا المرحوم علي باشا لما خرج من تونس علم أن حاله لا يتلاشى، جد في سيره ليله [54]، ونهاره، وفي العشي وصل تحت جبل وسلات وبعث إليهم فأخبروهم بقدوم علي باشا عليهم ففزعت أحداثهم، في أيديهم مكاحلهم، وشاع الخبر في جبل وسلات ففزعت الكبار والصغار حتى البنات إلى أن وصلوا لعلي باشا، قبّلوا يده وقالوا له : مرحبا بك لا تخف ولا تخشى. وركّبوه وساروا به إلى أن وصلوا بورحّال. وجهزوا له دارا وادخلوه إليها وصرخت البارود، احداثها قدامه (209). ولما اطمان به الحال قال لهم : يا حبابي تشوّفوا إلى من يلحق بي من الرجال، وابعثوا للطرق من هو بي لاحق. ولكن إذا رأيتموه ففزّعوا له الخاطر (210) واعرضوه. فقالوا له : ارتاح من تعبك (210م)، ان شاء الله نبلّغك مرادك، ونجمع بينك وبين من هو لاحق بك من أحبابك وخرجوا من عنده، وجمعوا من يرفع مكحلته وبعثوهم ينتظرون من يقدم عليهم.

[خبر أحمد بن متيشة ودوره في تمرّد علي باشا :]

وأمّا أحمد بن متيشة، الكافر بالمعيشة، سمع بعلي باشا دخل جبل وسلات فقالوا له الفرسان [الذين] معه : الرّجل قد دخل منعته، ومالنا وتبعته، وقد صحّ هذا الخبر فارجع بنا ليلا [لئلا] يحصل لنا ضرر. فقال لأصحابه : هذا عيب عليكم، وبما تعتذرون عند أميركم تقولوا له لما سمعنا أنّه وصل الجبل رجعنا ولم نحقّق القول، سيروا إلى أن نصل تحت الجبل ونحقّق هذا الخبر من في ذلك المحل، وإن أبيتم ورجعتم أخبرت الباي حسين بما صنعتم. فساروا معه، مكره أخاك لا بطل، إلى أن وصلوا

---

(209) ص : قدامه أحداثها. وفي الأصل : سرخت. والأحداث : الشبان.
(210) أي الناس، تعبير عامي.
(210م) في الأصل : عمّك.

إلى تحت الجبل، فرآهم المرصدون لمن يصل ففزعوا إليهم وداروا بهم، وتكلّم البارود من مكاحلهم، وقالوا لهم : انزلوا عن خيلكم وانزعوا حوايجكم قبل أن تقطع رؤوسكم. فقال لهم : أما تعرفوني أنا أحمد بن متيشة. قالوا له : عليك التفتيشة، إما أن تصعد معنا الجبل وإلاّ قد حضر منك الأجل، وفي الكلام لا تطل. فقال لهم : بشرط أن [55] تطلقوا سبيل هذه الفرسان، يرجعون بخبري إلى السّلطان. وهي مكيدة بينهم، بها علي باشا (211) وصّاهم. فبعد القال والقيل، سرّحوا في رجوع من معه من الخيل، وقادوا به فرسه. وإلى الجبل أطلعوه، فتبعته ولداه وسارا معه. فالتفت أحمد بن متيشة وقال للقوم : أنتم رأيتم ما حلّ بنا ولا علينا لوم، فارجعوا بسلام، ولا عليكم ملام، وخبّروا الباي حسين أن جبل وسلات قد نافق بامر أخيه، فدبّر في أمر لهم يرضيك.

فرجعت الخيل سكارى بما حلّ بهم من الويل، يسيرون ميلا ويقفون ميلا، إلى أن استبطى الباي حسين رجوعهم، وقد رجع إليه كل من بعثهم، فسار متشوّفا قلقا، ومن غدر أحمد بن متيشة شفقا(212). فبعث بعض حوانبه إلى دار أحمد بن متيشة يستخبر على عياله وأولاده فركب المبعوث ودخل ربط باب سويقة، وقصد الدار ودقّ الباب، فما جاوبه أحد إلا الكلاب. فنزل ودخل الدار فما وجد بها أحدا ولا حسا ولا حسيسا ولا من ينشد. فخرج وركب فرسه وسار إلى أن دخل باردو وأخبر الباي حسين بأنّي وجدت الدار خالية من السكان لا فيها أنيس غير الجان. فتيقّن الباي حسين أن أحمد بن متيشة قد خان. فبعد مدّة قدمت عليه بخبره الذي بعث معه من الفرسان، وقصّوا عليه من خبره ما كان.

(211) ص : الباشا.
(212) كذا : والأصح مشفقا.

وأمّا أحمد بن متيشة وولداه وصلوا إلى علي باشا وهنّاهم بالسّلامة فقبلوا يداه وايسوا جميعا مما خلف كل واحد منهم وراءه، فعندها أخذ الباي حسين في التدبير، في هذا الهمّ الخطير، وما الأمر إليه يصير، وهامت أصحابه لأجل حيرته حتى استغنى الواحد منهم عن مأكله ومشربه، وإذا جلسوا معه وعلموا ما به من [56] الغير نكّسوا رؤوسهم ونظروا إلى الأرض كأنّما على رؤوسهم الطير لا يبدي أحد مهم خطابا، ولا يردّ بعضهم إلى بعض جوابا.

وأمّا أهل وسلات، لما شعشعوا بالنفاق، وبعثوا أحداثهم إلى من هو غايب من أهليهم بالأوراق : اسرعوا [في الرجوع] إلى جبلكم قبل أن يحال بيننا وبينكم ولا بقى بيننا مجمع إلا يوم التلاق. فلمّا وصلهم الخبر هربوا وتركوا ما عندهم من المتجر، ومنهم من أهل الجبل، التهى بما حلّ به من هذا الوحل، لم يرض بما فعلته أحداثهم، فإذا رآهم شارهين قالوا لهم : يا ويلكم ما وراءكم وستعلمون ما يحلّ بكم وبأولادكم وعيالكم وأموالكم، وآخركم الحصر في جبلكم وبعدها خلاء دياركم وسبي حريمكم وقصّ رؤوسكم، وأنتم يا أحداث لم تشكروا الله وبنعمته قد كفرتم، وقد صار لنا ما صار لكم «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» (213). فيسمع أحمد بن متيشة بما أخبرت كهولهم وبما حدّثت شيوخهم أحداثهم فيقصدهم إلى مجمعهم ويجلس معهم ويكذب عليهم : بأنّي ما ساعدت الباشا على الهروب، وخلفت كلّ محبوب إلاّ لعلمي أن عسكر التّرك كلّه مع الباشا، وهم الذين قالوا له : اذهب إلى جبل وسلات، وإذا خرجنا إليك مع عمّك طلعنا إليك جماعات بعد جماعات

(213) قرآن، الشعراء، الآية : 227.

كما فعل عسكر رمضان باي، حين هرب إليكم مراد باي (214)، أوّل ما قصدت الجبل الأغوات ونحن إن شاء الله مترقّبون ما توافق الباشا مع العسكر، وفي أقل مدة تروهم إلى جبلكم طالعون. قال لهم : وما أعزّ عليكم أنفسكم أو أعزّ عليّ نفسي ؟ قالوا له : كل واحد نفسه عليه عزيزة ولا يترك في خلاصها كل حيلة. قال لهم : لو [57] علمت أنّ أمر الباشا علي فيه خلل، ما لحقته إلى الجبل. ويحكّ لأحداث أهل وسلات في الغارب والذّروة حتى يجدّ عليهم مقاله وتزول عنهم النكدة ويخبرهم بأنّ عسكر زواوة كلّه تحت حكمي وطاعتي ولا خرجت من تونس وتركت عيلتي إلاّ لعلمي إذا رآني عسكر زواوة في أي محل تبع جرّتي، وإن شاء الله في أقل من شهرين مرادكم تبلغون، ويكثر خيركم مما تسعون. فإذا تفرّق ما عليه من المجمع رجع إلى الباشا علي وحدّثه بما سمع، وما خيّط في الثوب وما رقّع، فيشكره علي باشا على ما صنع.

[تدابير الباي حسين لمقاومة الثوار :]

وأمّا الباي حسين رحمه الله بعث الحوانب إلى مشايخ جلاص ومشايخ أولاد عون ومشايخ الكعوب ومشايخ القوازين ومن هم قريب من جبل وسلات، فاقبلوا إليه طامعون فيما لديه. فلمّا حضروا مجلسه أمرهم أن يدوروا بجبل وسلات من كل ناحية، [ولا يتركوا لهم ما ينزل غادية أو رايحة، ويغوروا على كل قريبة سارحة، ويرموا أهل وسلات بكل جايحة]، وإذا لقيتم أحدا من رجالهم فلا تبادروهم إلاّ بقص رؤوسهم، وإلى باردو ارسلوهم، وأنتم أحبابنا ومنّا وإلينا وأحرى عرش

(214) مراد باي : من المعروف انه لم يثر على رمضان باي وانما كان خادمه الأمين إلى ان خلفه. ولعل المؤرخ يشير إلى مراد باي الثاني الذي ثار عليه جيشه بجبل وسلات فنهض اليهم وحاصرهم إلى ان افتتح الجبل سنة 1674 م.

جلاص، فهم عندي أعزّ النّاس، وغيرهم كراع (215) وهم الرّأس، وهم شعاري، وغيرهم دثاري.

فلما سمعت مشايخ جلاص هذه المقالة من بعض من عاود عليهم مقالة الباي حسين رحمه الله دخلوا على الباي حسين وقعدوا بين يديه وقالوا له : نحن انتسبنا إليك وأنت انتسبت إلينا، ونحن إن شاء الله يموت مقاتلنا في حرب أعدائك ثم يخلفهم صغارنا فيقتلون في قتال من يريد أخذ ملكك جيل بعد جيل بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو «خير الوارثين» (216) وقد صبغنا (217) قلوبنا في حبك صباغا أكحل لا يقبل لونا آخر ولا يتبدّل. فشكرهم الباي حسين وبالكلام الطيب مدحهم، وفي الساعة أمر لهم بالكسوة الكاملة وفرق عليهم الدراهم الوافية. ولمّا أعطاهم فأرضاهم وزادهم [58] المال لمن خلفوه وراءهم وأمر لهم بالمكاحل والرصاص والبارود والرماحات لقتال أهل جبل وسلات وأمرهم بالرجوع إلى أهليهم وفرّقوا المال الذي بعث معهم على بعض أحداثهم ومشايخهم ووقفوا مع جبل وسلات على ساق الجد، والمحيى والممات.

وأمّا غيرهم من أولاد عون وغيرهم فحضّرهم بين يديه ووصاهم ثمّ أمر لهم بالكسوة والدّراهم وأعطاهم العدّة وتوابعها حتى أرضاهم، وقال لأولاد عون : اعتمادي على الله وعليكم، وكونوا كما أظنّكم، فاجمعوا عرشكم وهذا مال لأحداثكم ومن غاب من مشايخكم، وإيّاكم أن تجعلوا معي ومع أهل جبل وسلات طاير ليل [يقال له الخفاش فإذا أتاه نسر أو قطّ أراهم أنيابه وسنيه، وقال لهم] : أنا من جنسكم وإذا أتاه ذيب أو

(215) كراع : الساق من الخيل او البغال او الحمير.
(216) اقتباس من سورة الأنبياء، الآية 89 «ربّ لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين».
(217) في ص : سبغنا.

كلب أراهم بزازيله (217م) وقال لهم : أنا أخوكم، وإذا أتاه طاير أراهم جناحيه وقال لهم : أنا نطير معكم، وأنا نعلم أنّ أهل جبل (218) وسلات أنسابكم وأحبابكم، وقرب الجبل أوطانكم ومساكنكم، إيّاكم أن تغدروا سلطانكم، فإن أردتم رضائي فاقتلوا الوسالتية إذا أتوكم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد وامنعوهم من النّزول إليكم واصطادوهم حتى لا يأتيكم منهم أحد، غضب الله عليهم، ليس لهم ميثاق ولا عهد، عاشروا البغال فسرت طبايعهم فيهم، «صمّ بكم عمي» (219) فهم لا يعرفون إلاّ الصكّ والحرنة (220) فعليهم سخط الله إلى يوم البعثة، فقوموا فما بقي علي في حقّكم ملام، فارجعوا إلى عرشكم بسلام.

وكان بعض الحاضرين ممن يتشبّث ويتشبّه ببعض جلسايه، فقال له : سيّدي كنت أسمع بأهل هذا الجبل وما فيه من الخير والنّعمة والرفاهيّة، والقرى في أعالي ذرى المكان علية، فألجأتني بعض الحاجات عند بعض الناس فسافرت [59] إليهم فسألت عنهم فدلّوني عليهم إنّهم قريب جبل وسلات، فقلت في نفسي : حج وحاجة [قضاء حاجتي] وندخل جبل وسلات [ونتفرّج فيه ونرى بعيني ما هم عليه فسافرت إلى مقصدي، وقضيت مرادي من أصحابي وهم تحت جبل وسلات]. فقلت لأصحابي : لابد أن تركبوا معي وتدخلوا إلى وسط هذا الجبل وتتفرجوا فيه. فلمّا سمعوا أصحابي منّي هذا الكلام ضحكوا كثيرا مما سمعوا مني وقالوا : أي شيء تتفرّج [فيه]، فإذا دخلته وسرت في وطايه رأيت دشرا غابية في رأس ذروة عالية لا يصعد إليها إلاّ ساكنوها، ولا يعرف سهلها

(217م) بزازيله : ثديبه.
(218) زائدة في الأصل.
(219) البقرة، الآية 18، صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون.
(220) الصك : الركل بالساق، والحرنة : عدم الطاعة. عبارة الصك والحرنة تقال للحمار أو البغال أو الخيل، ويعني بها هنا الكذب والتراجع في العهد والعصيان.

ووعرها (221) إلاّ أهالوها. وأمّا وسطه جبال وعرة لا يتمكّن على ساكنيهم سلطان، ولا يبلغ مراده منهم إنسان، فهم في رؤوس الجبال كالقرود لا يصل إليهم من يريد أخذهم ولو كان تيمورا (222) وما معه من الجنود، ولكن نبلغك مرادك حتى ترى بعينك. فركبوا معي وقصدنا دخول هذا الجبل فدخلنا إليه من خندق (223) وعرة فما صدقنا أن خرجنا منها إلاّ بمشقّة، ووصلنا السّهل وسرنا فما رأيت أحدا عارضنا إلاّ ذرى جبال في السّماء عالية فقلت لأصحابي : وأين القرى ومدينة القايد؟ فوقفوا وضحكوا وقالوا [لي] : شد زمالتك بيدك (224)، وأقم رأسك حتى توجعك رقبتك، وانظر إلى هذا العالي. ففعلت ما قالوا أصحابي، فرأيت بعض هندي (225) وبعض شجر زيتون ومسرب من الواطي طالع في ذلك الجبل الذي هو كالصومعة (226) إلى المعالي. فقالوا لي أصحابي : هل نظرت وتأمّلت ؟ فقلت لهم : ما رأيت إلاّ مسربا طالعا كأنّه مسرب نمل وشيء من الهندي في رأس هذا الجبل. فقالوا لي : فالدشرة في وسط ذلك الهندي. فقلت لهم : ماسم هذه الدشرة ؟ قالوا : يقال لها العرمة، وكلّهم كما ترى. ثم سرنا فكذلك عرضنا، إلى أن أتينا على وادي فوجدنا نساء لابسين الوزاري (227) السّود، ورجال بقريهم قعود، كأنهم بقايا عاد وثمود، [60] فرددنا عليهم السّلام، ووقع بيننا الكلام، فكلّمونا بلغة محلولة مخالفة لجميع اللّغات المسموعة، على الرّجال الوزاري الشخم

(221) ص : وعرها وسهلها.
(222) تيمور لنك : ولد سنة 1336 م وتوفي في سنة 1405 م. غزا إيران وآسيا من دلهي إلى بغداد، وغلب السلطان العثماني بايازيد الأول سنة 1402 وتوفي في مسيره إلى الصين لاحتلالها.
(223) ج خنقة : سرب ضيق بين الصخور أو فضاء خال من أي ساكن يسهل فيه السطو على المسافر وسلبه وقتله.
(224) الزمالة : عصابة على الرأس تعوض العمامة في السفر.
(225) الهندي : التين الشوكي.
(226) ص : طالع في ذلك الصومعة.
(227) الوزاري : ج وزرة، قطعة من القماش الصوفي يلف بها المرء رأسه وجسمه.

والجبايب الدّهم [228]، لا رأيت مئذنة ولا صومعة، ولا جامعا كبيرا معدا للعيدين والجمعة، فعلمت أنهم قوم أوباش، أو فرقة هربت إلى هذا الجبل من تنذل فاش [229] إلى أن وصّلوني أصحابي إلى الخنقة التي تصل ثنيتها إلى القيروان، وقطعوني منها، وما خرجت منها إلا كالسّكران، فآليت على نفسي أن لا أسمع شكر أحد ولو كان في إرم ذات العماد.

فتبسّم الباي حسين من أمثال هذا الرجل. وتعجّب من كلامه من حضر في المحل، وبعث لأخيه عامر باي يؤكّد عليه في تحصين مدينة القيروان، وتركيب الفرسان، وجمع القومان، وإن أردت من أخيك الرّبح فإيّاك وإياك من يرفع إلى أهل الجبل الملح وكن على حذر من أهل المكر، وأصحاب الغدر، والسلام.

ولما شاع أمر علي باشا وتحصّنه بجبل وسلات تحرك أهل الضّلال والجهالات، وتحركت سفهاء العسكر وتكلّموا بكلام موحش مغيّر، وهرعت إلى الباي حسين أحداث البليدات يريدون النّزول في الراتب جماعات بعد جماعات. فلما أعيوه من التردّد، صار يختار منهم كل صبيّ فرد، فيكتب لهم خوجته التّساكر [230] بناصري فيدخلون إلى خوجات الديوان فيرسمهم في الدفاتر جبرا لخاطرهم وفرحا بفزوعهم إلى باردو ووقوفهم لا يريدون به بدلا، ويحسبون إلا أنّهم ولدا. وشرع جميع من هو نازل في الراتب في شراء المكحلة والمكاحل الصغار والمحزمة. وكانوا قبل هذا لا يكسبون عدّة، ولا يعرفون شدّة، ولا قتال ولا مقتلة، ولا نوبة [231] ولا محلة، إلاّ نوبة فيها الايولضاش يربح أو محلّة صيف

(228) الشخم : ج شخمة، رمادي اللون، والدّهم : السّود.
(229) ص : من قزل باش.
(230) التساكر : التذاكر.
(231) النوبة : تعني الموسيقى العسكرية تعزف في قصر الباي في أوقات معلومة خاصة في الصّباح عند النهوض من النوم.

فيها يتاجر ويذبح، فإن كانت محلة فهم في نزاهة، وإن كانت [61] نوبة فهم في بضاعة راتبهم جاري [جري الوالد على الصغير من الولد راتبهم كثير، وخيرهم غزير، لا يعرفون الا شرب الخمر، ومآكل] الخمير. والأمير حسين مشغول بهناتهم لا يريد تعبهم ولا شقاهم إلى أن صاح بينهم غراب البين ففرّق ما بينهم وبين والدهم الباي حسين، رحم الله تلك الروح المطمينة، وأمرها الله بدخول الجنّة، «راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي» [232].

[استفتاء أهل الشويعة [233] :]

ولما عام فكره في هذا الأمر المهم، حتى حيّر الأمم، ووقفت النّاس فيه على قدم، صبر حتى أتاه مجلس دار القاضي بتونس وجلس ببيت الحكم والملك وجلس معهم إمامه وقاضيه وعالمه وخواصه قال لهم : يا أهل الحكم والعالمين [234] والحاكمين فيمن ظلم، هل يحلّ قتل هذا الرجل ومن معه من أهل الجبل ؟ قالوا له أهل المجلس : إنّ قتلهم قد حلّ، عملا بالمشهور الذي عليه العمل، لا بالقول النّادر وبالذي قل. واستشهدوا له بحديث الرسول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يشقّ عصاكم فاقتلوه [235] فقتل هذا الرجل وجب، بما عليه المشهور من المذهب فعمل على فتياهم، وعوّل على قضاهم. واستبشر بما سمع من أهل العلم، المانعين من الظلم، وافترق المجلس ورجع كل واحد مكانه.

(232) اقتباس من القرآن، الفجر، الآيات 28 - 30.
(233) عنوان ملحق بالحاشية في ص. بخط مغاير.
(234) ص : يا اهل العلم والحالمين.
(235) لم يرد هذا القول في الحديث النبوي بهذه الصيغة بل جاء في صحيح مسلم : من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات، مات ميتة جاهلية وجاء في صحيح مسلم : «ستكون بعدي هنات وهنات، فمن رايتموه يفرّق أمر أمّة محمد وهي جميع ناقتلوه كائنا من كان من الناس».

[مثل ضربه القاضي شعيب :]

ولما طاح الليل وجلس لمسامرته امامه وقاضيه وبعض خواصّه، التفت إلى قاضيه بالمحال علي شعيب وقال له : مالك لم تتكلّم مع دار القاضي اليوم وماسمعت من القوم ؟ قال له : نعم إن أمرتني نتكلّم. فقال له الباي حسين : قد أذنت لك في الكلام، قل ولا عليك في هذا ملام. قال له : يا سيدي إنّ سلطانا طيب الأعراق، مرضيّ الخلق والأخلاق، مطيع للملك الخلاّق، واسع المملكة قويّ السلطنة جيوشه وافرة، وخزاينه بالأموال عامرة، قد تربت في نعمته خدامه وقوى ساعدهم حين حلّوا مكانه. وكان بعض الأشقياء من الحرمية قد عيا وشاع ذكره بأنه قاطع [62] طريق، في مراصد الضيق، ووصل للسّلطان خبره فأرسل إليه جنده. فلّما سمع بهم أنّهم يطلبونه هرب من ملاقاتهم به وقتله أو أسره وقصد إلى جبل حصين منيع ذي أوعار ووديان غوار لا تسلك فيها الرّجل من كثرة الأحجار، ولا تجري فيه الخيل من كثرة الأشجار، وبهذا الجبل قوم عصاة بغاة لا يخلص ما عليهم من المجباة إلا بالجنود الكثيرة والمحلات، [فقصدهم هذا الرجل، ودخل وسطهم وحل، قد منع من الأسر أو القتل]، فحدّث أهل الجبل بكلام أحلى من العسل، وأظهر لهم النّصيحة، وقال لهم : إنّي أريد أن أخلّصكم من كلّ مكروه ومن كلّ قبيحة إن ساعدتموني على ما نطلبه منكم ووافقتموني على ما نقول لكم. فاجتمعوا عليه ووقفوا بين يديه، قالوا له : تكلّم فنحن السّامعون، وامر فنحن المطيعون.

فلمّا أخذ منهم اليد الملآنة، حلّفهم بالأمانة، وأدخلهم تحت زمالة (236) وذبح لهم البقر، وأكلوا لحمه على ظهر، وهذه عادتهم إذا اشتد حمقهم، ومن تأخّر منهم جاؤوه وألقوا عليه لباس امرأة، وحطّوا

(236) أدخلهم تحت زمالة : أي تحت الخيام، انظر ملحق القواميس العربية لدوزي وهنا يعني صاروا تحت حكمه.

قدّامه أرحية، وقالوا له : اشتغل بما هو من شانك، ولاتتشبّه بأقرانك. ولما جاء وقت خلاص المجبة (237) وصعدوا القوم إليهم في المحلّة اجتمعوا عند ذلك الرجل وقالوا له : خلاص المال قد حلّ، فامرنا بما يكون عليه العمل. فنادى على أحداثهم وأهل الخنق، وأمر كل فرقة منهم أن تسدّ الثّنايا والخنق، حتى لا يطمع في المرور منها كل حانق. فأسرعوا فيما منه سمعوا، وتفرّقوا على خنقة وثنية وعرة إلى أن طمعوا أن لا يصعد إليهم أحد، ولو كان في كثير من الجند. وجاء وقت خلاص الرمية، وصعدوا إلى الجبل قاصدين الثنيّة، الجنود السلطنيّة. فلما وصلوها وجدوها مسدودة، مدعّمة بالحجر الكبير، لا يسلكها كبير ولا صغير، ورمتهم من فوقهم أهل الجبل بالحجر، وقرقبت (238) عليه الشجر، فكسرت أرجل بعض المهر (239) . فولّوا [63] هاربين، وقصدوا خنقة أخرى فوجدوها أوعر من الأولى فرجعوا ونزلت المحال على بعد، واتخذوا على أنفسهم الرّصد، وبعثوا سيارة إلى السّلطان يخبروه بما وقع وما كان، وأنت على ما تامر، إن شئت رجعنا وإن شئت قاتلنا، وليس لنا فيهم مطمع، فنحن نضرب في الشجر والحجر وهم يضربون في الرأس والمسمع.

فلمّا وصل الخبر إلى السّلطان، قام من ذلك المكان، معسّر غضبان، ففكّر فيما ورد عليه، مدبّر في أمر يرضيه، ثم قال في نفسه : ما اتخذ السلطان الوزير، إلاّ ليشاركه في الجليل والحقير، ويحمل أثقاله في القليل والكثير، ويتقدّم في الأمر العظيم. فأمر من كان واقفا بين يديه أن يامر الوزير بالقدوم عليه. فجاء الوزير يسرع في خطاه ودخل المحلّ الذي فيه السّلطان ووقف، فأمره بالجلوس فجلس، وأخبره بما وردت به السّيارة

(237) كذا : يعني المجبى (الأداء).
(238) قرقبت : رمته فتدحرج وسقط عليهم.
(239) المهر : ج مهرة : فرس صغيرة.

من نفاق (240) أهل الجبل الفلاني، وصاروا غوارة. فقال له الوزير : قلت فسمعت، وما اتخذتني وزيرا إلاّ في الأمور الصّعاب، عليّ توكلت، وأنت تأخّرت وأنا تقدمت. أمّا قتال أهل هذا الجبل ومحاربتهم فيكثر عليك شجارتهم وقلّ أنّ تنال غرضك فيهم، وتفني في حربهم خزاين الأموال، ويقتل في قتالهم من جندك كثير الرّجال، ومن كثرة رفع الأحمال تموت الخيل [والأبغال ومن جرّ الأثقال، تموت الجمال]، ولكن اتركني وتدبيري، ولا يخطر ببالك تقصيري، ولا تقول هذا فعل وزيري.

فقال له السلطان : اعمل ما شئت، وأنا لرايك تبعت، وهذا كاغظ أبيض لك فيه بطابعي طبعت فاكتب فيه ما أردت. فقال له الوزير : آمر لي بقهوة، لتحصل لي النّشوة، وحقة برش (241) لتصعد في راسي النشوة كما أمر الغز (242) باش اسماعيل لما بعث إليه بسرخوس (243) سلطان المسلمين، وخاقان البحرين بحقة برش ومشموم ياسمين، اسمع يا سلطاني، إنّ بحضرتك الأمير الفلاني، قد تربّى في نعمتك، ونشا في خدمتك، وتعلّم في [64] صرايتك لا يعرف غيرك، ولا ينكر خيرك، ساع في مرضاتك، حارص على ملاقاتك إن رأى منك خيرا أظهره، وإن بدا لك منه شر أسرّه، طويل النجاد، راكب من الخيل الجياد، إذا قال فعل، وإذا وعد كمل و[إذا أوعد] قتل عنده سواء السهل والوحل، صاحب راي وتدبير، إذا قصد عدوّا تركه في تدمير، صاحب مكر وخداع، بغير تشويش ولا صداع، فارسل إليه من يأتيك به فهو في المحل الفلاني متوليه فكتب السلطان إليه أمره ومع بعض الخدام أرسله فلّما قدم عليه الأمر وعلم ما فيه ركب فرسه وتبعته خدامه إلى أن وصل إلى حضرة

(240) نفاق : عصيان.
(241) البرش : نوع من الحشيش الأفيون أو الخشخاش.
(242) في الأصل الكلمة : الغزل، ولا معنى لها هنا.
(243) سرخوس : هي سرخس : مدينة قرب نيسابور تقع بينها وبين مرو.

السلطان، فأخذ الإذن فأذن له السّلطان في الدخول فدخل، وسبّاط السلطان قبّل، ووقف وكتّف يديه (244) ناظرا إلى الأرض بعينيه فأمره السلطان بالجلوس فجلس وشرّفه بأعلى(245) الملبوس، بما تحيى به النفوس، وأمر بحضور الوزير وقال : يهنيك قدوم الأمير، فالتفت إليه، وسلّم عليه، وقال له يا أمين ان سيدنا يريد أن يبعثك لأمر خطير، ويرسلك إلى جبل وعير، جيشه كثير، هرب إليهم فلان الكبير، فنافقوا به، وصاروا ينزلون من الجبل ويقتلون وينهبون الصغير والكبير (246)، فاخبرت السّلطان لما أهمه هذا الشان، الذي فعله هذا الشيطان، ما رأيت من يفدي لك النقمة إلا الأمير فلان، ويريحك من هذه المشغبة فأنت يا فلان، كافي السلطان ذلك.

فقام ذلك الأمير وقبّل رجلي السلطان وقال له : يا مولاي ما ربيتني وخولّتني وشرّفتني وولّيتني إلاّ لأجل إذا أهمك أمر فيه رميتني، وفي الشّدايد قدّمتني، وأعلمك يا مولاي، أنا عارف بذلك الجبال وما فيه من القرى والدّشر والتلال، أنا إن شاء الله أكفيك أمره، وأخلي [65] جبله وأشتّت جمعه وآسر حزبه وأقتل رجاله، ولكن يا سيدي بشرط أن تكتب لي أمرك المطاع، فيما عندك من الأتباع، فاختار منهم من نعرفه بالشجاعة ومن هو موسوم بالجسارة، وعنده في القتال موته وحياته سواء، وإذا جرح لا يستعمل دواء.

فلما سمع منه السلطان هذا الكلاَم خلع على ظهره قفطانا، وأمر له بأعزّ مراكبه، [وبأكثر] حلي من سروجه (247)، وكتب له أمرا. وخرج من عنده وبعث إلى فرسان السّلطان وقومه فوردت عليه من كل بلد لا يغيب عنه أحد، وقعد لهم وعليه عرضهم، ومن ميّزه واستفرس فيه أنه فارس

(244) كتف يديه : ضم يديه إلى صدره.
(245) فجلس ساقط من ص. وفي ص : أرفع الملبوس.
(246) ص : وينهبون ويقتلون الكبير والصغير.
(247) كذا.

كرّار، وبطل غوّار، أمره أن يقف على يمينه راكبا على فرسه ومن لا يعجبه أشار عليه بالرجوع إلى أن اختار من القوم ما يقرب من ألف أو أكثر، وأمر خزنادار أن يفرّق عليهم الذهب الأحمر، وأمرهم من يستحقّ في شيء يذكره ولو كان نعله أو ما يخص سرجه وعدّته، ففتح لهم خزاين السلطان. وأخذ ما يحتاجه كلّ من الفرسان، فهذا يبدّل وهذا يغيّر، حتى اكتفوا ولابقي أحد منهم بخير، واجتمعت على الأمير (248) وودّع سلطانه والوزير، وقصد المسير غير مقصّر، ورفع معه أحمال ما يحتاجه كسوة ومال، وما يستحقّه إلى أن وصل إلى ذلك الجبال. وقصد قرية يعرفها ويعرف وعرها وسهلها، ويعرفونه أهلها. وبين هذه القرية والجبل المنافق مقدار أربعة أميال، يصلون إلى بعضهم في مسارب مضايق فدخل الأمير ذلك القرية فهرعت إليه أهلها وسلمت عليه وفرغوا له ولأصحابه مساكنا ما يكفيهم، وأسرعوا إليه بالضيافة حتّى شبع منها كلّ ذي احتياج وفاقة. ولمّا تمّوا ضيافة ثلاثة أيام نادى على أشرافهم ومشايخهم وفرّق عليهم المال، والكسوة للعيال، والعدة للرجال، فمازال يعطيهم حتى أغناهم [66] وأمر بأحداث ذلك القرية فأسرعوا إليه ووقفوا بين يديه، فاختار منهم من يصلح (249) به عارفا حاذقا في أموره، ومن له كلمة في أهله، وشوكة ماضية في قومه، فاغواهم بالمال، وأعطاهم العدّة والرّماح الطّوال. فصار الأمير في تلك القرية هو معبودهم واسقط عنهم المجبى لما جاء وقت خلاصهم، ولا ترك أحدا من جند السلطان يطلبهم، وبعث للقايد القريب منه أن يرسل إليه القمح والشعير، والزيت الكثير، لمؤنته ومؤنة أصحابه، ولا يطرق أحدا في مأكله ومشربه، فقاموا أهل القرية بحقّه وقد علموا ما جاءهم بسببه، فغارت حدثان القرية على سروح ذلك القرية وأوصلوها إلى قريتهم، فارادوا أن يفرقوها بينهم، فبعثوا إلى أهل القرية وقال لهم : إن

(248) في الأصل : الوزير.
(249) بالأصل : يعلم.

قبلتم كلامي، وأردتم في قريتهم مقامي، فردّوا هذا السّرح (250) إلى أهله، ولا تغيّبوا منه شيئا وسوقوه إلى مواليه.

فجمعوا السّرح وساقوه إلى أن قربوا من الجبل وقريته وتركوه ورجعوا إلى أهاليهم، فصويت أرباب السرح، وساقوا مواشيهم وأزال ما بهم من الترح. ولمّا سمع ذلك القايم بقدوم هذا الأمير وما معه من الفرسان أمر أحداث أصحابه أن يحصّنوا القرية والطريق إليها، وركش (251) في منازلها وحذّر ممّن يخرج، وترصّد لمن من غيرهم يدخل، وقاموا على ساق، وشعشع بين القريتين العداوة والنفاق، إلى أن وقعت بينهم أخذ السّرح، وردّوه عليهم وولولوا النّساء من الفرح، فلاحت منهم القلوب وانبرمت إلى محبّة الأمير وبعثوا إليه بعض الأحداث بأسرار ذلك الرجل والأحداث، فبعث إليهم : أنا ما جئت لقتالكم ولاقتله وإنّما جئت لنمنع أهل الجبل من شركم وشرّه، وأنا مالي بكم طاقة ولا به. فرجعوا إليهم أحداثهم واخبروهم بقوله فانتفخوا وقالوا : نحن أولي الباس والشدّة، وأولي العدد والعدة (252) وجسروا[67] وتسرحوا في النّزول إلى حيث أرادوا، ورجعوا إلى نهبهم فيمن يلهبهم من الرعيّة، فتسقط ذلك الرعية المنهوبة وتشتكي أحوالها للأمير المغصوبة، فيتمسكن لهم ويقول لهم : أنتم بعيدون منّي، وأنا نمنع من هو قريب مني، فإن أردتم المنعة فاسكنوا جواري، وارتاحوا من هذا الرجل العاري.

فيزدادون في الأمير زهدة، ويقولون ما عنده شجاعة ولا نشدة(253)، فيبلغ الخبر إلى ذلك القايم فيبعث حزبه ولا يخرج هو معهم، ويأتونه بالغنايم فيقسمها بينهم وهو بالقرية قايم ومن مكر هذا الأمير وكثرة خداعه انه لما طالت بذلك الجبال غيبته ولم يجد لهذا القايم حيلة ينزل بها

(250) السرح :القطيع من الغنم.
(251) ركش : ربض منقبضا على نفسه.
(252) في الأصل : العدة والعدد.
(253) اي نجدة.

من الجبل فيأخذه، فشكى واستمرض واذا رأى احدا من المشايخ دخل عليه ليعوده استعمل في جسمه العوارض، فيقوم ويطيح إلى الأرض، فيخرج ذلك الشيخ من عنده، مويسا في حياته، متأسّفا عليه، ويحدّث النّاس بما رأى من فعل الأمير فيتأسّفون عليه، وشاع في ذلك الجبال كلّها أنّ الأمير عليل، ومرضه ثقيل، ولايدري على عدد وخليل، وتحقّق هذا المرض الثّقيل، عند ذلك القايم وبقي يستمع في موته لما حلّ بالأمير من الغنايم (254).

ولّما أثبت ايام القايم، وامتلا صاعه من المظالم قدم على القايم بعض من يسعى عنده بكثرة انعام النزايل وقال له : إن المكان الفلاني بينك وبينه مسيرة ليلة، وعند الصباح تصل إلى النّزلة، ولقد نزل في هذا المكان نزازيل، لهم انعام كثيرة وخيل، فان فاتك هذا المغنم فما بقيت طول عمرك تغنم.

ولما نزل القضاء ارتخف الحذر، واشتغل بما سمع، وعيونه (255) لم يرسل، وامر اصحابه بلبس عددهم وشد سروجهم، وخرجت رجله. ولما طاح اللّيل ركب هو ومن معه من الخيل وخرج من القرية وسار في ظلام [68] الليل. وجواسيس الأمير وعيونه راصدة لمن ينزل من الجبل. فلما حقّقوا خروج القايم وسيره أسرعوا إلى أصحاب الأمير العالمين بما في الضّمير، وأخبروهم بغارة القايم وسيره بنفسه، دخلوا أصحاب الأمير واخبروه بخروج القايم فما صدّق أن علا سرجه وتبعته خيله بأجمعهم، وأوصى من عنده من الرجال، أنّ في هذه الساعة اصعدوا إلى الجبل، ودوروا بالقرية من كلّ مكان، وامنعوا من ياتيكم هاربا من أهل القرية وكتّفوه، وفي بعض هذه الأجراف القوه.

(254) في الأصل : القائم : وفي ص الغنايم.
(255) في الأصل : وعيويه

ثم سار هو وقومه في أثر القايم ومن معه. أمّا القايم وصل النّزل عند الصباح فما شعروا أهل النّزل إلاّ بالصباح وأخذهم على غفلة، وقتل من قتل، وجمع السرح والخيل والإبل، واشتغل القايم وأصحابه في تفريق الرّجل. فهم في تلك الشغل وما شعروا إلاّ بنواصي الخيل ظهرت لهم من كلّ مكان، ودارت بالقايم وأصحابه كدور الخاتم بالأصبع، فطرح القايم وأصحابه ما جمعوا وأقبلوا لقتال القوم فهجمت عليهم الفرسان، وأدخلوا بعضهم في بعض، أيقنوا أن لا طاقة لهم بالقتال، فطلبوا الأمان من الأمير وقومه، والقوا ما بأيديهم من العدّة فنزل اليهم الأمير وأصحابه، وأوّل ما كتّفوا القايم وقيّدوا رجليه وستروا راسه وعينيه وفعلوا بمشايخ القرية كما فعلوا بالقايم، وجمع الأمير ما في المتزل من الخيل والبغال والإبل، وركبوا عليهم القايم وأصحابه، وظنوا أهل النزل أن يوصلوهم مع الأمير إلى الجبل، ورجع الأمير وقومه إلى أن وصلوا إلى قريتهم، وركضت الخيل البشّارة للسّلطان ودخلوا اللّيل بالمسير إلى أن طلع النهار وساروا مجدّين في السّير إلى أن وصلوا إلى حضرة السلطان وبشّروه بحصول القايم وأصحابه وحكوا للسّلطان كيف كان أخذه. ولما سمعت أهل تلك الجبال [69] بهذه المكيدة التي صنع الأمير واستمراضه إلى أن بلغ مراده فاسرعوا أهل الجبال إلى الأمير واطاعوا السّلطان فجمعوا ما عليهم من المجابي، وجعلوا معها هدايا وأوصلوها إلى الأمير ويتعجّبوا من صنيعه فقبل منهم المال والهدية وأمرهم بالرّجوع إلى أهاليهم.

وأمّا أهل قرية القايم قدّم الكبير فيهم وراسهم وضرب عنقه قدّام أهل قبيلته. فضجّوا وقالوا : نحن رعيّة كفّارتنا المال. قال لهم الأمير : صرفت من مال السّلطان كذا وكذا آلاف بسببكم، فإن أردتم أن لا أقتلكم فاجمعوا لي كذا وكذا مضاعفة أربع مرات أو أكثر لمال السلطان وأنا اعتقكم ولا أقتلكم. فرضوا بذلك وأعطوه الضّمان.

ولما أطلقهم عمّر قريتهم بالرّجل والفرسان وسكنوا معهم في الديّار مع الصبيان، وصاروا يدفعون المال فإذا ارتخفوا بضربهم يامر ذلك الرجال، إلى أن باعوا الدّيار وباعوا البنات ولا بقي واحد منهم يقدر على كسب الأقوات. فلما علم الأمير حالهم أمر قومه أن يخملوا أحوالهم. ولمّا طلع النّهار وركب وركبت قومه وجعل القايم على بغلة قدامه ومشايخ الجبل أعطى كلّ رجل منهم إلى من يثق به من أصحابه وسار إلى أن بلغ حضرة سلطانه ودخل البيت التي فيها السّلطان.

فلما رأى السّلطان قبّل الأرض ثم تقدّم وقبّل رجليه فهناه السّلطان بالسلامة، وشكر صنيعه فتقدّم وقبّل يده فخلع على أكتافه القفطان، ودفعه في أعلى [مكانة] ومكان، وفرّق المال على من معه من القومان، وجعل بين يدي السلطان القايم وأصحابه والمال ومضاعفة ما أنفق السّلطان من المال فزاده إكراما على اكرام، وأولاه الولايات العظام. ويا سيدي حسين باي نصرك الله، عليك السلام.

[موقف الباي من حكاية القاضي علي شعيب وعزمه على محاربة ابن أخيه :]

فقال الباي حسين للقاضي علي شعيب : قد فهمت ضرب أمثالك، وإنّي نصنع ما صنع هذا السلطان بهذا القايم [70] ونرسل أنا أحدا ممّن نثق به ونعلمه شجاعا وأنّى لي بذلك الرّجل في أحبابي وخدامي مثل هذا الأمير ومن معه وأنت تعلم الغالب على أهل افريقية الخيانة، وقلّة الدّيانة، يأكلون خيرك، ويعبدون غيرك، ولا يبكي لي إلاّ شفري، ولا يندب لي إلاّ ظفري، وخصوصا ومع ابن أخي أحمد بن متيشة، ما كافاني بخير دمي وزوج ابنتي، ولا الذي وظّفته في مقامي حاكم عسكر، فكيف نعتمد [256] على غيرهم ونعتمد نصيحتهم.

(256) ص : نطمين.

ولمّا سمعت خواص الباي حسين أنّه معهم على الخروج بنفسه وهو لم يقل لهم ذلك بل فهموا من مجرى كلامه أنّه لا يتكل على أحد من خدّامه وأحبابه، سكتوا عن الكلام فلمّا رأى الباي حسين رحمه الله سكوت الجماعة عن المجادلة والخطاب والجواب، أراد أن يزيل عنهم وعن القاضي فحمتهم [257] فقال لهم : أنتم خواصّي، يصيبكم ما أصابني ويدهيكم ما ادهاني، ولكن قوموا بسلام، وفكّروا الليلة في هذا المرام.

ومن الغد اجتمعوا، أذن لهم بالكلام، فيما فيه من المرام، فقام بعضهم قال له : يا سيّدي إن لم تعلم أنّ مدينة تونس مفاتيحها بيدك وما فيها من العسكر تحت أمرك ونهيك، وأوجاق الخيل في كل بلد من بلادك، والقيروان التي هي قريبة إليه فيها رجالك وخيلك لا يريدون بك بدلا، ولا يعدلون بك عدلا، بحيث كان الأمر هكذا وأنت للتخت قابض، وعلى أطرافه عاضض، فما عسى أن يفعل ؟ غاية ما في الباب تجتمع عليه جماعة، كلّهم ضاعة، خيلهم هزالا، وهم في أنفسهم جياعا عيالا، فإذا طال بهم الحال عولّوا على التّرحال. فإذا رآهم علي باشا راحلين، ورجعوا من عنده خايبين، بعث إليهم أحمد بن متيشة، وولده خوفا على أمره أن يتلاشى، فيتعرّض لهم ويوعدهم ويمنّيهم، ويتساكر الكاغظ يهنّيهم، ويتضمن له أحمد [71] بن متيشة السرية، ويغيرون على الرعيّة، فتمتلي أيديهم ويرجعون إلى مقرّ عزّهم فيعولّون على هذا الكلام ويرتجى ليالي الظلام، فيسير بهم إلى العدوّ القريب، فتارة يخطي وتارة يصيب، وتارة يغنم وتارة يخيب، إلى أن يقلّ زادهم وتضعف قبيلتهم [259] وخيلهم، وكثيرا ما يموت منهم فيملّوهم أهل الجبل ثم يصرخون في وجوههم : علمنا أنّه أحاط بنا البلاء المنزّل، ولا بقينا نطعم ولا نعلف

(257) فحمتهم : اي سكوتهم عندما يرتج عليهم.
(258) لا تبعد عن جبال الوسلاتيه الا بحوالي 60 كلم.
(259) زائدة في الأصل.

لرجل فحينئذ يتفرقون، ويبقى الباشا ومن معه فرادى فيهربون فتأتي أهل الجبل ويطلبون الأمان، وأنت بحمد الله جالس على تختك لا جسارة عليك (260) ولا خسران، فهذا ما عندي وأنا غرس إحسانك وفوق الإحسان.

فقال له الباي حسين : زادت فيك عقيدتي، ولكن ما أنصفتني، أما تعلم أنّ ذنوب الرّعية الذين أخذتهم في رقبتي ؟ وأنا ما أريد هلاك رعيّتي، وأنا حسين باي قايم حي !

فسكت الرّجل واحمرّ وجهه وخجل، فعندها تكلّم الحاج يوسف برتقيز (261) ويعلم أنه عنده عزيز (262) وفهم على الباي حسين أنّه يريد يأخذهم قهرا (263) بسيف القهر، حتى يخلى منهم السّهل والوعر، وقال له : يا سيدي كل من قال أجيب، وليس في كلامهم عيب، ولكن نرسل الأوليا ء إلى هؤلاء الأغبياء، ويدعوهم إلى الصّلح الذي سماه الله خيرا، ونعمل بالأثر الصدق (264) : من دعى إلى الصّلح ولم يجب غلب، ولو كان على الحق، فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا وعاندوا فما يفوتك فيهم فوت، فعندها ارحل اليهم وقاتلهم بالسيّف، فما بقي عليك حيف، واخرج اليهم بالعسكر الوافر، والجيش المتكاثر، والله ينصرك عليهم ويملكك رقابهم ونواصيهم، وهذا ما عندي، وما نحن إلاّ عيون من أنهارك، وأغصان من أشجارك.

(260) ناقصة في ص.
(261) يوسف برتقيز : نسبة إلى البرتغال، ترجم له الصغير بن يوسف في آخر هذا الجزء وترجم له حسين خوجة في ذيله ص : 257 - 259 ولد بزغوان سنة 1092 هـ تعلم بها على يدي الشيخ سيدي علي عزوز ثم ارتحل إلى باجة واخذ بها عن مشايخها. وكان امام الباي حسين للصلوات الخمس : انظر ترجمته ايضا في تراجم المؤلفين التونسيين ج 1، ص111-110.
(262) في الأصل : عزيز عنده.
(263) ساقطة من ص.
(264) اي الصادق.

فقال له الباي حسين : والله، إن شاء الله، لأكسّرنهم كسر البيض على الصّفا (265) ولأضربنّهم بالسيف [72] حتى يحفا، ولأخمدنّ نارهم حتى تطفا، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين (266).

[والد علي باشا وزوجته كبيرة مامية بعد تمرّده :]

ولما دخل عام أربعين ومـاية وألف [1140] أخذ في تجهيز المحال، وتفريق المال، وجمع الرجال، هذا كلّه، لله درّه، ماذا جعل الله في قلبه من الشفقة والرحمة لم يوحش أخاه محمد باي والد علي باشا بكلمة ولا سلب عليه نعمة ولا فدى منه نقمة، وهو معه في باردو على أحسن حالة، واوسع باله، باقي بخدامه ومراكيبه ومما لكيه وعبيده ومن هو منسوب إليه وعليه، ثم كثرت الجماشة (267) والوسواسة في حقّ زوجة ابن أخيه علي باشا وأنّها في بعض الدّيار تغيّبت، وعن الظهور تمنعت، ولا تخلو من عجوز تأتي إليها بالأخبار لكي عندها تفوز.

قيل إن كبيرة ماميّة أوّل ما دخلت دار محمد الأخوة الأندلسي فلمّا عرف بها ومعها عجوزتها زوجة حسين الكميتي وهي المطلّقة عليها والمدلة لها وتعرف المداخل والأستار، فادخلتها هذه الدار، فلما علم خبرها سقط ما في يده، وفي أمره حار، فما وسعه إلاّ قفل باب الدار، وضبط الخادم والأولاد الصغار، وهذه الأندلس لهم بديارهم حضرة، ويضبطهم خبرة، وبتدبير مكاسبهم صنعة، وتمكنت في هذه الدار، ولا بقي عليها خوف ولا غيار، وسترها الله عن أعين النّاس، واطمان قلبها من الرّجف والباس، واتهمت بها كثير من النّاس، فحينئذ بعث الأمير حسين باي

(265) الصفا : الحجر.
(266) اقتباس من القرآن الكريم : الأعراف : الآية 87، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.
(267) الجماشة : الجمش : الصوت الخفي. وفي الأصل : الحماشة.
(268) ص : لأجعلنكم لغيركم عبرة.

رحمه الله إلى مشايخ الرّبوطات والمدينة وأكدّ عليهم وأوعدهم إن لم تفتّشوا عن هذه الضعينة نصيركم عبرة (268)، وأخلى منكم الدّيار ونيتّم الصّغار.

فارضوه بالكلام وما في باطنهم غير ما تكلّم به اللسان، لأن الناس [حينئذ] انقسمت حزبين : حزب للباشا علي وحزب للباي [73] حسين، فخرجوا من عنده وطلعوا إلى تونس وأكثروا من التدسّس والعيون والتحسس فلم يجدوا لها خبرا، ولا وقفوا لها على أثر، وبقوا يماطلون في الباي حسين :إن شاء الله ناتوا بها وبالوالدين، وبقي الأمر على حاله وكل منهم ينظر إلى مآله.

وأما كبيرة مامية لما طالت المدّة، وعلمت من الرجل بعض وحشة فبكت، ودموعها على خديها سقطت، وخنقتها العبرة، وقالت : هذا أمر مديد ما له من فرجة. فاتتها مباركة زوجة الكميتي فوجدتها في أكبر ما يكون من التمحان، ووجنتيها من كثرة البكاء كأنّهم شقايق النعمان، فقالت : يا مولاتي نفّس وروّح على نفسك من هذه الأحزان. فقالت لها : صبر جميل والله المستعان، ولكن قم واعزم ولا تبخل واسعى في أمر يكون عليه العمل، أنا ما بقيت نمكث في هذه الدار ولا دقيقة ولا درج (269) فدبّر لنا في دار أخرى عسى يكون فيها الفرج.

فخرجت من عندها وعند المغرب أتتها، وقالت لها : افرح ولا تحزن، فقد قرّب الله رفع المحن، أنا وجدت مكفا ومنزل، فقم والبس غبارك وفي المشية لا تعجل، فبعث قدامها سايرة من حومة إلى حومة ومن زنقة إلى زنقة حتى ادخلتها إلى دار رايقة، فوجدت الأرض فرشها، والسّماء غطاها، ولما جلست في البيت صار من السقف يسقط عليها ترابها، ومن

(269) اي خمس دقائق.

(270) ج مغارة : الثقب.

المغاغر (270) تلعب قدامها فيرانها. ولما قعدت لم تجد قطعة حصير، وبصرت (271) فلم تجد في الدار صاعا من شعير، تنفّست الصعداء وقالت: الله أكبر، ما أكثر نوايب الدّهر، فبعد السّرج والسّتارة، عدت للبردعة والغرارة (272)، [يا جواد] القايد فرّج الله خير، بعد الأسرّة ولباس الحرير، جلست على الأرض لم تجد قطعة من حصير، وبعد الخبز والخمير (273)، لم تجد ما تعلل به هذا الصغير، ثم أطرقت [74] رأسها وفكّرت ودمعتها على وجنتها انحدرت، وقالت : مالي ولهذا الأمر الخطير، والخطب العسير، ما أنا إلاّ إمرأة وما عسى أن يكون على المرأة ليس أنا ممّن يركب الخيل، ويسير في اللّيل، ولا أنا ممّن يسل السّيف وبه يقاتل، ولا ممّن يرفع الرمح وبه ينازل، الحقّ الحقّ ما بقي لي في الأرض مقعد، ولا في السّماء مصعد، وما بقي لي إلاّ أن نظهر للباي حسين، أنا وهذا الولدين، وهو رجل رؤوف عطوف، حنين سخوف (274)، فإذا رآني على هذه الحالة فحينئذ يدخلني مع العيلة ونرتاح وما أنا فيه من المحنة والبلية.

فاتخذت في أسباب الظّهور حتى سمع بها الباي حسين، ففي الحين بعث إليها أن ياتوا بها وبالولدين. فلما صارت بين يديه قالت له : أنت الوالد وهذان ولدك، وهذا ما عندي به اخبرتك. فامر بها أن يجعلوها في العلو الفلاني، ولا يصلها قاصي ولا داني واخرج تسكرة فيها مونتها ما يكفيها هي وولديها (275).

(271) في ص : وسبرت.

(272) في هامش ص : مثل يفهمه العامي، وهذه العبارة أدغمت في النص الأصلي، والغرارة هي عدل كبير منسوج من صوف أو شعر يوضع فيه التين ونحوه وهو الجوالق.

(273) عبارة عامية تعني : الخير الكثير.

(274) سخوف : رؤوف (عامية).

(275) لاحظ طيبة قلب حسين باي.

(276) ج برمة وهي قدر كبيرة.

قيل ان كبيرة مامية لما تولّى علي باشا البلاد، تحدثت وقالت : اعظم ما ابتلاني الله به، والحمد لله الذي فرّج الله عني أن يوما من الأيّام لم يكن عندي في بيت العلي لا دقيق ولا يدام، غير شقفة من بعض الأبرام (276)، نسخّن فيها بعض الطّعام، وأنا إذاك في مقام أمّ الأيتام، فجاعت الولدان، محمد وسليمان، فاخذت ذلك القطعة من البرمة وطلبت جذوة (277) من النار لنسخّن لهم من القمح قليّة، وأنا ما لي في البيت لا طعام ولا ايدام، إلاّ ذلك الرّشة من القمح نديّة، فلمّا جعلت شقفة البرمة على النار وجعلت أحركها فانكسرت الشقفة وتبزّع كلّ ما فيها، والولدان يرجوان فيها ففي أمري حرت ودمعتي على خدّي سقطت وقلت : «إن كان عندك يا زمان حسيفة، (278) مما تكاد بها، فهاتها فهاتها»، وقلت : اللّهم وسّع عليّ إن كان عندك فرج، وإلاّ عجل بموتي [75] نرتاح من هذا الحرج فالحمد لله والعاقبة الحميدة للصّابرين.

فهذا ما بلغنا وكتبناه ورقمنا والعهدة على الناقلين. والخبر من حيث هو خبر يحتمل الصدق والتغيّر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

(277) في الأصل : جذوى.
(278) الحسيفة : الغيظ والعداوة (فصيحة).

ذكر خروج حسين باي من باردو بالمحال، بعد المناظرة والقيل والقال

قيل : (1) لما أعجبه كلام الإمام يوسف برتقيز الذي سبق ذكره وما عوّل عليه ووافقه، ففي الحين أمر كاتبه أن يكتب كتابا وينمّقه (2) ويتحمّل بكلّ الشّروط عليه إلى أهل وسلات [وعلي باشا ابن أخيه، وذكر في الكتاب هاهم الأوليا، عليكم قادمون، وإلى كلامكم سامعون، وبكل ما تشترطون] فالأوليا، به متكلّفون (3)، ومتحمّلون، ولا بقي على الرّسول إلاّ البلاغ المبين، وختمه (4) وطواه، وفي شونه (5) ألقاه، وركب الخيل إلى القيروان لسيدي عبد العالي، فليبعث إلى من يعرفه من الرّجال الصالحين (6) ويجتمع هو وإيّاهم حتى ياتيهم أمري ويطلعون إلى أهل وسلات ويبشّن بينهم خبري وإنذاري وتنذيري، وها أنا تبرّيت من فتنهم وشرّهم وقتلهم وقتالهم فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا وعاندوا فاللّعنة على من وجبت، «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» (7).

فلمّا بلغ إلى سيدي عبد العالي هذا الخبر، ضحك منه وقال : هو الرّجل المنتظر، إنما صاحبهم (8) علي، صاحب القدر العلي، وما علينا إلا السّمع والطّاعة، نبعث لأصحابي ونركب في هذه السّاعة، فبعث إلى أصحابه واجتمعوا، وقال لهم : ما أمرتم به فاسمعوا وأطيعوا (9) فاجابوا بالتّلبية، وهذا أمر ليس عنه تولية، ثم واركب «وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون» (10) وركبوا على الخيل وساروا إلى الجبل.

(1) في الأصل : قال.
(2) أ : يتممه.
(3) أ : في الأصل متكلمون.
(4) ختمه : وضع عليه خاتمه أي طابعه.
(5) الشون : الصدر.
(6) ص : الصلح.
(7) قرآن : الشعراء، الآية 227.
(8) أ : أنا صاحبكم.
(9) ص : فاسمعوا وأطيعوا واسمعوا.
(10) قرآن، ابراهيم : الآية 12.

وقبل قدومهم (11) وصل الخبر إلى أهل وسلات، فاجتمعوا وقالوا : هذا أمر ليس له التفات، اللّهم إلاّ أنّ يرضى بهذه الشّروط ابن أخيه ولا يبقى علينا ملام فيه فيتزل مع الرّجال، فنرتاح من الفتن والقتال، فقدموا على الباشا علي [76] وأخبروه (12) بقدوم سيّدي عبد العالي، فقال لهم : مالي ولهذا الأمر [الغالي؟] أنا ما بيدي حكم ولا حل ولا عقد، وقد هربت إليكم بروحي والولد، فافعلوا ما عليه المعتمد، وأنا منتظر بكم والله خير الناظرين (13).

فلمّا سمعوا منه هذا الكلام تحزّمت، وبالرصاص أفواهها مليت (14) وإلى نحو الثنيّة التي [تأتي] عليها المشايخ وصلت ووقفت. وتغيّب عن هذا الموطن كلّ رجل كبير، وظهر كلّ سفيه حقير، فبقوا واقفين، وإلى قدوم السادة منتظرين، حتى قدم عليهم (15) سيدي عبد العالي وأهل الصّلاح، فلم يروا في القوم من فيه فلاح، ولا نجاح، فتقدّموا إليهم وباسوا أيديهم وتكلّموا فيما بينهم فلم يروا إلاّ متيمة (16) ضايعة، ورعاة عراة (16م) جايعة، فعلموا أنّ كبارهم تغيّبوا، وسفهاهم بهذا الأمر تحزّبوا. فتنفّس الشيخ الصعداء وقال : «وكان أمر الله قدرا مقدورا (17)»، ورجعوا خايبين، ولم يقبل منهم صرف ولا عدل (18) من أحد القوم الظالمين حتى أتوا إلى مدينة القيروان، وبهذا الخبر بعثوا بعض الفرسان، إلى أن وصل الباي حسين الخبر فتغيّر وجهه وقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(11) أ : قدومه.
(12) ص : وأخبره.
(13) أ : منتظر بكم والله خير الناظرين، والآية من سورة آل عمران، 150.
(14) ص : ملت.
(15) ساقطة من ص.
(16) أ : سيمة.
(16م) أ : رعات عرات.
(17) الأحزاب : الآية 38.
(18) عبارة تعني انهم لا يؤتمنون.

وفي تلك السّاعة أمر برمي الكتان وبالرؤية تملاها (19) الصبيان، وبعث إلى آغة وكاتب العسكر أن (20) لا يبقى ولا يغيب أحد عن هذا المخطر، [ما] خولّتكم ثلاثا وعشرين من السنين بنعمتي إلاّ لعلمي إذا أصابني مصاب تفدوا منه نقمتي، وتكشفوا عنّي غمّتي، وتزحزحوا عني مصيبتي، قد طال ما أعطيتكم من الرّواتب ورقيتكم المناصب، ونعطي العلوفة لمن هو مريض وغايب، و«هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان» (21).

فلما وصل أمره إلى الديوان، أخبروا الشواش بما كان، فطافوا في الأسواق والديار وقالوا : [77] وَاروارْ (22) ليس في هذا الأمر رخصة ولا عذر ولا وسعة، فعدوا (23) عددكم، واصقلوا مكاحلكم، وامضوا لمكانكم واوصلوا إلى المحلّة مونتكم واثقالكم، واعطوا من يبات في محلتكم، وعلى الله الاتكال.

وبعثوا إلى أوضاباشي (24) بنزرت ورأس الجبل ونابل والحمامات : جهزوا أرواحكم واحضروا عددكم (25) لأنا إن شاء الله عازمين على فتن جبل وسلات، فوصلت العساكر تسرع من كل ثنية إلى أن وصلوا إلى الحريرية فاخذوا من الأخبية يطاقاتهم ونزعوا فيه أسلحتهم وبقوا للرحيل منتظرون، وأمر بجرّ المدافع ودخولهم المحال، واخرج الخزنة ووكّل عليها الرّجال، واجتمعت القومان قدام باردو في تلك البحاير، حتى صار الغبار في كل ثنية ثاير، فحينئذ خرج الباي حسين من باردو يتفقّد الأحوال، وما جمع من العساكر والرّجال، فرأى عسكرا كثيرا، وجيشا غزيرا، فعندها

(19) رمي الكتان : إقامة الخيام وفي أ : وبالروية تحلاها.
(20) غير واضحة في أ.
(21) قرآن : الرحمان : الآية 60.
(22) مشكولة في ص غير واضحة في أ.
(23) ص : فقروا.
(24) ص : أولضاش.
(25) أ : واحضروا عدوكم.

اطمانّ خاطره وانشرح باله وأمر الحوانب باللّعب قدامه، وتكلّمت المدافع من القصبة والأبراج، حتى صار دخانهم كأنّه عجاج.

ولما كثرت في المملكة المهجرصون (26) اتخذوا للباشا علي سيّارة وصاروا يخبرونه بما كان، ويبعثون معهم الملابس الغالية الأثمان، فيظهر الباشا علي ذلك الملابس لتطمين (27) قلوب [أهل] وسلات، ويزيل منهم الوسواس. فعندها أخبر حسين باي (28) بعض الأحباب بهؤلاء السيارة البايعين نفوسهم بأقلّ خسارة، فبقي يترصّدهم حتى عثر ببعضهم فأمر بتعذيبه إلى أن يقرّ بمن بعثه وبنفسه غر، فإذا أباح له بسرّه المكتوم : بعثني فلان وأنا ما عليّ لوم، غرّوني بالدرهم والدّينار، وأنا رجل فقير ما بقي لي قرار، فأمشي في الليل وأكمن في النّهار، فيعلم الباي حسين مقاله ويأخذ [78] أسراره، فتارة في الزندالة يرميه، وتارة على راس الشرافة يعليه، فسر إلى جهنم وبيس القرار فشعشع بهذا الحاج محمد الرصاع وكان عند الباي حسين في أعز انتفاع (29) وكذلك [ميندس] الأندلسي والحاج علي المنتشالي وغيرهم من أعيان تونس فغفل عنهم الباي حسين لأنّه مشغول بالخروج. ولما تم مآربه أخرج وطاقه وعين للسّفر معه من أراده، وقال : إن شاء اللّه اليوم الفلاني راحلون، وعلى اللّه متوكّلون (30). فبقت الناس على هيء. ولما أتى اليوم الفلاني نذر بالعشي : غدا إن شاء الله الرّحيل، وعلى اللّه التعويل، «قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون» (31).

ولما أصبح اللّه بخير الصّباح، وصلّوا صلاة الصّبح وصلّوا على النبيء صلى الله عليه وسلم لما فيه من الرّبح، وفرغوا من شؤونهم اسرعوا

(26) ص : المهجرسون : بالسين، اي المتمرّدون الناكثون عهودهم والهجرس في اللغة : اللئيم والقرد والثعلب وكل ما يعسعس بالليل والهجارس : شدائد الأيام.
(27) ص : ليطمّن.
(28) أ : الباي حسين.
(29) ص : البقاع.
(30) ص : متكلون.
(31) التوبة : الآية 51.

إلى لبس عددهم وتسريج خيلهم وركبوا عليهم، وتلوا قوله تعالى : «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين» (32) ووقفوا صفوفا مياة وألوف، وهم لركوب الباي حسين منتظرون.

أمّا الباي حسين لما صلّى صلاته وأتمّ على النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم صلاته، وأورد أوراده وقف ووقفت خواصه ووزرايه وكتابه ومماليكه وحوانبه منتظرون لما يأمرهم به فأمرهم أن يلبسوا عددهم ويسرجوا خيلهم، وأمر السايس أن يسرج مركوبه، ثم دخل إلى داره ولبس آلة حربه وخرج من الدار، ودارت به الشّطّار، ومسكوا الركاب. ولما ان اراد على الفرس يعلو، تلا قوله تعالى : «إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (34). وسار فحين خرج من باب باردو زعق النفير، وضربت الطبول وانتشرت الأعلام خلفه والرايات قدّامه، وأطلقت المدافع من القصبة والأبراج من باردو حتى تستّرت الشّمس بالدخان، وركضت قدّامه الفرسان، وبعد ساعة ركب محمد باي أخوه وفي جرته (35) اتباعه وقدامه وخلفه. فحين خرج ونظر إلى خلق [79] الله قال جهرا : نحن في أمان الله، كثر العطاس على قول الحمد لله. ففي الحين إلى أخيه وصل هذا الكلام، فحوقل وقال : ما عليه ملام. وادّخرها في قلبه وقال : ليس هذا وقت مكافاته وخرجت من تونس العلماء والأولياء والأكابر للتّشييع، والأمهات والزوجات والأخوات خرجن للتّوديع، فقضوا ما عليهم من المآرب، وولّى كلّ إلى مكانه طالب، وطوى الباي حسين المراحل، وقطع المنازل، إلى أن وصل تحت جبل وسلات.

(32) الزخرف : الآية 13.
(33) أ : التاء مفتوحة : كذا والصحيح في الرسم : متات.
(34) القصص : الآية 85.
(35) يتبعه، وراءه، في أثره.



علي باي بن حسين باي

ذكر صفة جبل وسلات وما فيه من القرى والدشرات، وعدد رجالهم بالألف والميات :

أعلمك يا متأمل إلى حال هذا الجبل وما احتوى عليه من السهل والوعر، والعامر منه والقفر، قيل إنّ دوره من خارج ثمانون ميلا واحتوى من داخله على مايـة وأكثر من دشرة وقرية، فالدشرة تفزع ثلاثمايـة وأكثر والقرية تفزع قريب من الالف بهذا وصل إلينا الخبر فإذا هرب إليهم هارب، وفي البلاد راغب، عليه تجمعوا، وإليه فزعوا، ونادى مناديهم الفزوع، الفزوع، فيتجمّع من يقدر على القتال، والحرب والنّزال، ومقابلة الرّجال. فمن غد يفزعون، وتحت الزّمايل يدخلون، فعندها يعدّون من عنده مكحلة، ويحضر للمقتلة، قيل يعدّون عشرة آلاف وأكثر وأقل، [سوى] من ليس له طاقة [36] أو بنفسه بخل، وهم خمس قبايل أوساطهم أولاد مانس والجبيل وأهل تيفاف وأهل بورحال، وأكثرهم أولاد اسماعيل، ليس بين القرية والقرية وصلة، إلاّ كلّ واحدة في راس ذروة منفصلة، ما يصعد [إليها] إلاّ المعز والبهايم والبغال، والشّاب القويّ من الرّجال. ترى مسربا كمسرب النمل لما فيه من كثرة الوحل.

وقرب هذه القرى وبعدها شجر الهندي والخروب، وأعز مكاسبهم عندهم شجر الزيتون، فمنه يدهنون ويأكلون، وفيه يتجرون، وإلى كلّ بلد [به] يرحلون. وعندهم التّفاح والمشماش [80] والخروب [37] والكرموس، كثيرا لا يبخلون به ولا يبيعونه بالفلوس، لهم في الجمعة [38] سوق يجتمعون فيه ويهرع إلى هذا السوق من كان نازلا خارج الجبل من الكعوب وأولاد عون وغيرهم، يبيعون معهم ويشترون، وبعد بيع سلعتهم

---

(36) أي قدرة على القتال.

(37) ساقطة من ص.

(38) اي الأسبوع : تعبير عامي.

وهي الحبال والجبايب والوزاري، وما فضل فوق راس المال يشترون به اللّحم والطعام للعيال.

وسيرهم (39) مع نسايهم إن لم تقصّ المراة الجبّة أو الوزرة، وياتي بها إلى السوق يبيعها فهي غير حرة، والنّساء في عشرتهم في أرذل حال، ولو كانت المراة أحذق وأزعم وأخدم من جميع العيال، وأصدقها كثيرا من المال.

وحرثهم في داخل الجبل قليل، ما عليه تعويل، إنّما حرثهم في خارج الجبل، وعليه المعول، وأكثر حرثهم الشّعير، وقليل من القمح النضير (40). فإن قيل لماذا سمّي هذا الجبل بوسلات الجواب : إنّ الصّحابة لما وصلوا إلى جلولا وكانت في ذلك الزمان مدينة عظيمة، وبها عين من الماء العذب جارية غزيرة وهي في طرف هذا الجبل، فالصّحابة حصروها حتى أخذوها ثم بعثوا إلى من هو حال وساكن فيه : ما أنتم معنا فاعلون، مفاتنون (41) أم أنتم مسلمون ؟ فردوا إليهم الجواب : قد أسلمنا، وبما قالت به أهل البحاير قلنا، فقال كبير القوم : اسألوهم. [من] كثرة استعمال هذه اللّفظة (42) ردت إلى لفظة وسلات فهذا هو السبب في تسمية وسلات. وما في هذه المملكة من قريب ولا بعيد، ولا رعيّة أسرع وأغدر من هذه الفئة، فهي دايما في النّفاق على السلطنة. ويعلمون أنّ نفاقهم يوصلهم إلى المهلكة، «ولو شاء ربّك ما فعلوه» (43).

(39) اي عادتهم.
(40) أ : النظير وفي ص كما أثبتنا.
(41) أ : معانتون.
(42) ص : اللفضة.
(43) الانعام : الآية 137.

ذكر بعوث العلماء من تونس مرّة أخرى إلى أهل جبل وسلات

ولمّا وصلت وحطّت عليه العساكر الوافرة، والجيوش المتكاثرة، ودارت [81] بهم العروش من كل ناحية فصار الجبل في وسطهم كأنّه قطعة بيضاء في ظهر جمل أسود، وحصروا حتى لا يطلع [ولا ينزل] منهم أحد. وطمع الباي حسين رحمه الله في خوفهم وارتفاع عنادهم وكسر شوكتهم، وقال : لعل إذا زدتهم هذه المرّة فشيخ الباشا علي الشيخ سيدي محمد الخضراوي (44) والشيخ فلان والشيخ فلان العالمون العاملون، ربما يستحي منهم ويعظم عليه شقاؤهم وتعبهم، ويركن إلى قولهم، ويعمل على طمانيتهم فلا يردهم خايبين. فعيّن الحوانب، وكتب أمر إلى الحاج سليمان كاهية دار الباشا : حين وصول الأمر اليك فقم واسعى على رجليك، وآت دار الشيخ سيّدي محمد الخضراوي واعطه الأمر يقراه حتى يعلم ما فيه، وتملّق له أنت بلسانك وقل له : يا شيخ أرنا فضلك وإحسانك واحقن دماء هذه الأمم، واصلح بين ابن الأخ والعم، وإن كان فيه تعبك لكن الثّواب الجزيل حاصل، وأرنا من يمشي معك ومن أنت عليه عامل.

فلما وصل الأمر إلى الحاج سليمان كاهية ففكّه وقراه وعلم ما فيه قام قايما على قدميه وسعى على رجليه إلى دار الشيخ الخضراوي ودقّ الباب فأمر الشيخ أن ينظروا من دقّ الباب فخرجوا فوجدوا الكاهية وتبّاعه واقفين، فولّوا في الحين، وعجّلوا في خطاهم واخبروا الشّيخ بأن الحاج سليمان كاهية ومن معه منتظرين، فقام سريعا، سميعا مطيعا، يهرول في مشيته حتى لاقاه واقف عند باب داره فردّ عليه السّلام، وأخذ بيده وأدخله إلى بيته وأقعده في مجلسه وقال له : أهلا وسهلا ومرحبا ما

(44) محمد الخضراوي، ولد سنة 1087، كان مدرّسا بجامع محمد باي المجاور لضريح محرز بن خلف وبالمدرسة الحسينية الكبرى ترجم له حسين خوجة في ذيله : ص 234 - 235.

هذا الخطا المبارك فرمى (45) له الأمر ففكه وقراه وقال : السمع والطّاعة لأولي الأمر قال الله تعالى : يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله [82] وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم. (46) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : اسمع وأطع ولو كان عبدا حبشيا ولو ضرب ظهرك أو أخذ مالك أو كما قال صلى الله عليه وسلم (47) ولكن يا كاهية، وبيت البركة والعافية، هل عنده فرسية عاقلة [سيارة] أو بغيلة (48) غير هرابة نعزم إلى المحلة المنصورة عليها، وابعث معي من يركبني ويحفظها. فضحك الكاهية من كلامه وأنعم له بما طلبه، ثم قال له الكاهية : ابعث في هذا الوقت إلى من هو من العلماء، تختاره وتعلم أن علي باشا يكبر عنده مقامه ويعزّ عليه تعبه وشقاؤه وربّما يصلح الحال، بين أهل وسلات وجيش المحال. ثمّ أتاه ببعض طعام حاضر (49) وقال للكاهية : بسم الله وأعذر لمن يكن قدومك إلينا على بال ولا خاطر. فأكل منه جبرا لخاطره وفرحا لغلبه، وأخذ منه الإذن في القيام فقال له : رح بسلام. ثم التفت إليه وقال له : متى يكون السّفر ؟ فقال له : هذه السّاعة تبعث إلى فلان وفلان فإذا [انعموا] (50) نرسل لك الخير.

فلما خرج الكاهية من عنده بعث إلى الجماعة بعض طلابه فجمعهم وإلى الشيخ الخضراوي أتى بهم. فلّما وصلوا إلى الدّار تقدّم الطّالب وأخبر الشّيخ بقدومهم، فخرج إليهم ورحّب بهم، فقالوا : خيرا إن شاء

---

(45) في ا و ص : فرما.
(46) قرآن، النساء : الآية 59.
(47) جاء في الصحيحين عن ابي ذرّ : يا أبا ذر اسمع وأطع ولو عبدا حبشيا مجدّع الأطراف (اي مقطوعها يعني أخسّ العبيد انظر مختصر شعب الإيمان للبيهقي : ص 104 (ط. 2 بيروت 1985).
(48) أ : قفبلة.
(49) في أ وص : حاظر.
(50) انعموا : اي قالوا نعم. وفي أ : بياض.

الله تعالى : فأدخلهم البيت وأجلسهم، وبالأمر رمى إليهم فقراه بعضهم وأخبر الجماعة بما فيه، فأجابوا كلّهم بالسّعي على الرّاس والعين، لما أمر به الأمير حسين. ثم تشاوروا متى يكون السّفر فاتفقوا بعد غد إن شاء الله تروحوا عند الفجر. فبعث الشّيخ الخضرواوي إلى الكاهية وأخبره، ففي الوقت بعث إليه بما كان منه وطلبه، وباتوا على ترحال، وودعوا العيال.

وفي فجر اليوم الموعود، ركب الكاهية واجتمع بهم وعين معهم [83] الخيل وشيّعهم وبقي سايرا معهم إلى الملاسين، فوقفوا ومدّوا أيديهم وقروا الفاتحة، وقالوا آمين، وعلم خبرهم الأمير حسين، قبل وصولهم (51) بيومين، فبقى لقدومهم منتظرا، وعلمت النّاس هذا الخبر، وفي الحين طلعت بهذا الخبر الجواسيس ووصلوا إلى علي باشا وأخبروه بما حدث وما نشا، فاخبر أحمد بن متيشة، وقال له : ما رايك ؟ قال : يفعل الله ما يشاء.

وأمّا العلماء والشّيخ الخضراوي فلّما استخلوا (52) في الثّنية وحدهم قالوا : ما لنا ولهذه الدعاوي؟ وفهموا على الشّيخ أنّه عنده بعض ميل للباشا علي، وتموا سايرين والخيل معهم وفي خدمتهم حتى أدخلهم المحلّة وخبّروا الباي حسين بقدومهم. فركّب الباي حسين بعض كتّابه فلاقاهم، وبالسّلامة هنّاهم، وولّى معهم يسير، إلى أن وصلوا الوطاق الكبير، وأخذوا عليهم الإذن من الأمير، فاذن لهم بالدّخول.

فلمّا دخلوا ورآهم، وقف على قدميه وبالسّلامة هنّاهم، وأقعدهم في أعالي المجلس، ثمّ بعد قعودهم [هو](53) جلس، وبقي يسأل واحدا واحدا (54) عن سفره ويتبسم في وجوههم ويدنيهم [إليه] ولّما حضر وقت محطّ

---

(51) ص : قدومهم.
(52) استخلوا : اختلوا ببعضهم بعضا (عامية).
(53) عن ص.

السفرة (55) قام من غير مهلة وأمر بالمشايخ فجلسوا عند راس السّفرة وأخذوا في الأكل والحديث كما جرت به السّنة. فلمّا قضوا مآربهم من الأكل قدموا لهم اللّيان (56) للغسل فغسلوا أيديهم، ثم أمرهم إلى خباء مهيّا لهم، ولمّا جنّ الليل أتوا للمسامرة وتقاولوا : كيف تكون مع هذا الرجل المقابلة، وما يكون من الخطاب والمجاوبة ؟ فقال الحاج يوسف أو غيره : من توصيه، فلا خير فيه، مأخوذ من المثل، وأنتم بحمد الله أهل البراهين والدّلايل، وتعلموا صواب الكلام. [84] ممّا هو عايل فإذا وصلتم وقابلتم فلا تكثروا القيل والقال، ولا تاتوا بشيء ليس هو على بال، فإذا وصلتم وقابلتم (57) فإن سمع وأطاع، ليس عليه ضياع، وإن هو باقي على عناده وشقّ العصا ما بقي في قتاله نزاع، قال الله تعالى : «وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا» (58). وانفض المجلس وقاموا إلى ناديهم وناموا.

ولمّا بان الفجر وحضرت الصلاة قاموا واستعملوا وتوضّوا ثم قدّموا الشّيخ الخضراوي فصلّى بهم وتلوا عشرا من القرآن، وثنوه بالصلاة والسلام على أفضل ولد عدنان. ولما فرغوا ممّا كانوا فيه أتاهم البواب وأخبرهم بكلامه أن قوموا وامشوا للأمير فهو في وطاقه، فأمركم بحضوره (59) والسعي إليه، فقاموا وساروا حتى وصلوا إلى الوطاق، ووقفوا ينتظرون الإذن في التلاق، فأذن لهم بالدّخول فدخلوا، وردّوا السّلام ويده قبّلوا، فأمرهم بالجلوس ودارت عليهم القهوة من التاي (60)

(54) ص : واحدا بعد واحد.
(55) السفرة : منضدة قصيرة القوائم للطعام.
(56) اللّيان : إناء من نحاس أو غيره لغسل الأيدي.
(57) فإذا وصلتم وقابلتم : غير موجودة في ص.
(58) قرآن : الإسراء، الآية 15.
(59) في ص : فأمرني.

في الفناجل والكؤوس، ولما شربوا القهوة وطلعت الشّمس من القبلة أمرهم أن يركبوا وركّب معهم من يعتمد عليه إلى أن بلغوا تحت الجبل وما هم قاصدون إليه، فدخلوا في الخنقة وما خرجوا منها إلاّ بعد التعب، والوجل والوصب، فهم في تلك الحال منتظرون، وإذا بجماعة قليلة قادمون، مقدمهم شايب فخراوي (61) فسلّم على الجماعة وخصوصا على الشيخ الخضراوي، ثم وقف معهم، وعن حالهم يسايلهم.

فلما قضوا المسألة، أخذوا في المكالمة، فقال لهم الشيخ : هذا أمر ظهر وفشا، ولكن بالله عليك اجمعني مع علي باشا، وأحمد بن متيشة، فقال له : يا سيّدي، قيل إنّ علي باشا عليل، ولم نره من زمن طويل ولم نسمع منه قيلا ولا قال (62) منذ حلّ ببورحال، ولكن إن كنت أنت سيد الرّجال، وإليك تشد الرحال، [85] فاسمع مني هذا المقال، واحضر لي البال. فقال له الشيخ : قل واترك الخوف، فما عليك من هذا حيف. قال له : نعم قال له : أناشدك الله بماذا نسبتمونا إلى الكفر، والعصيان، وصخّتّونا (63) بالبغي والعدوان ؟ قال له الشيخ : لمخالفتكم الجماعة والخروج على السلطان.

قال له الشايب هل اتيناه إلى تونس فقاتلناه، وبباردو حاصرناه، أو أحد من رعيّته أخذناه، أو بعث إلينا من قيّده علينا فعصيناه ؟

قال الشّيخ : اللّهم لا لا. قال له (64) : فما بالكم حينئذ إذا كان الأمر كما ذكر حلّلتم قتلنا يا علماءنا وأفتيتم بسبي أولادنا وهتك السّتر عن حريمنا، وأخذ أموالنا. ففي أي آية تجد هذا في كتاب الله أو في

(60) كذا. والأصح القهوة والتاي.
(61) فخراوي : أي طويل القامة، عريض المنكبين.
(62) يوجد تحريف في أ في هذه الفقرة. في أ قيلا ولا قال.
(63) ص : ضمخختمونا.
(64) في أ : قال له الشايب.

حديث من حديث رسول الله ؟ والردّ عليكم، وربما بغيكم علينا يعود إليكم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، وحسابهم على الله (65)، فكيف تقاتلوا أنتم من قال لا إله إلا الله ؟، وبعد هذا إنّ هذا رجل دخل علينا، وناجي بالروح والولد إلينا، وحلّ بين أولادنا وعيالنا أعندك نصّ أن نخذلوه أو تربطوه وإلى عمّه نردوه ؟ أناشدك الله يا عالم العلماء، ومصباح الظلماء، ومردّ البصر بعد العمى (66) إن أنت جالس في دارك [وقاعد في بيتك فأنت في هذا الحال ورجل هارب دخل دارك] وحل بين أولادك وعيالك والطلب في أثره ما أنت صانع به ؟.

قال له الشيّخ : أحميه، وبكلّ مال أفديه، وإن كانت لي قدرة بها ننجيه، ومن الموت أفكّه وأحييه. قال له الشايب : يا سبحان الله، والعباد كلّهم خلق الله، فما الفرق بيننا وبينكم ؟ قال الشيّخ : اللهم نعم.

ثم قال له الشايب : أناشدك الله وأسألك بحقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو طرى شيء على حسين باي وأزعجه، ومن كرسيه أخرجه، وقصدنا وحلّ في وسطنا، واحتمى بنا، والقايم عليه أتانا، وفيه [86] طلبنا، وبالمال أغوانا، أفيه عيب إن أخذنا المال من عنده ورددناه اليه ؟ قال الشيخ : [كله] عيب، والله أعلم بالغيب. ثم قال له الشيخ : أوتيت فصل الخطاب، ولكن عجّل بما نرجع به من الجواب. قال له : يا شيخ أنت عندي من الحذّاق، وقد رأيت أن الحرب قد قامت على ساق، «والتفّت السّاق بالسّاق» (67) واتسع الخرق على الراقع، وصمّت الأذن عن السامع،

(65) في ص : حتى يقولوها، والحديث كما ورد في صحيح البخاري في كتاب الإيمان : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله».
(66) في أ وص : العما.

وبعد حين ما ترى ديارنا إلا خالية بلاقع، هذا ما قدّره الله، والأمر كلّه لله، فارجع بسلام، فما عليك ملام، هذا ما عند علي باشا وعندي وبهذا الخطاب ارسلني فلا مطمع في مقابلته ولا سبيل الى قصده ورؤيته، وعليكم السلام [ورحمة الله].

وتركهم وولى (68) وإلى الجبل علا، فلمّا سمع الشّيخ هذا الكلام، وبقي هو والجماعة ومن معهم في المقام، فقال الشّيخ : ارجعوا بسلام، ولا رادّ لقضاء الله (69)، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. وأخذوا في الرّجوع، وسالت من أعينهم الدّموع، وحصل في القلب الخشوع، على ما حكم به الله.

(67) قرآن : القيامة : 29
(68) في أ وص : وولاّ.
(69) ص : لما قضاء الله.

ذكر تفريق السلطان الذهب على من ليس له قلب أو فيه قلب، ومن أيديهم ذهب :

اعلم أنّه لما سبق الخبر إلى الأمير حسين، وبه حدّثه العين، ما وسعه في الأرض مقعد، ولا وجد إلى السماء مصعد، ندم على خروجه وتشتيت حاله، وتفريق ماله على مستحقه وغير مستحقه وما بقي يسعه إلاّ أن يشد على وسطه حزامه، وياقف على ساق الجد ولا يتكّل فيها على واحد ولا أحد، ودوّر في يده السّبحة، ودعا (70) اللّه أن يرفع عنه هذه المحنة، ووصلت إلى عنده العلماء المبعوثون، كئيبون حزنون، فما زادهم كلمة ولا راوا منه وحشة فنزلوا في الخباء، وصلّوا ما عليهم من الفرض، وقاموا إلى ناديهم ورقدوا. وعند الصباح قاموا وصلّوا وبعد الصّلاة صلّوا على النّبيء صلّى اللّه عليه وسلم. فلما قضوا ما عليهم أتوا إلى الوطاق، وأخذوا الاذن في التّلاق، فأذن لهم في الدخول [87] فدخلوا وتكلّموا مع الباي حسين في الرّواح فأذن لهم وعيّن معهم بعض الحوانب إلى تونس يوصلوهم، وبالخدمة لا يبخلوا عليهم، فرجعوا سايرين وإلى تونس قافلين، وشمتت بهم المهجرصون، وقالوا في حقّهم :

إذا [كان] الغراب دليل قـوم * يسير بهم إلى بعض الجيـاف(71)

وأمّا الباي حسين رحمه اللّه لّما انقطع الرجاء من الصّلح عنده وخاف من ما حدثته به نفسه وأمله قال : يا اللّه انقطع الرجاء إلاّ منك، وخاب الأمل إلاّ فيك، وما بقى إلاّ اتّكالي عليك. ثم بعث إلى خزنادار، وأمره أن يحضر شكاير الدّراهم والدينار، فامتثل لأمره وحضر ما عنده، ولّما صلّى حسين باي صلاة الصبح، وفرغ من تدوير السّبح، وقرا في وطاقه

(70) في أ وص : ودعى.
(71) ورد البيت في «الشهب المخرقة» لأحمد برناز طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990. ص 358 كما يلي :
ومن يكن له الغراب دليلا * يدلّ به على جيف الكلاب.

دلايل الخيرات، والخواص والأكابر واقفة ترجى معه الملاقاة (72)، فلمّا فرغ من شؤونه قام وقعد في راس مجلسه ودخلت الجماعة وقعد كل أحد في مكانه ودرجته، وشرع في الحكم والفصل بين الخصم والخصم، فهو في هذه الساعة، وجدوا في هذه (73) المحلة بعض السيّارة فشدوهم وربطوهم وإلى بين يديه قدموهم، فأخذ ما عندهم من المكاتيب، واطلع عليهم وحملهم في الجيب، ثم أمر بهم إلى باش شاطر، وجرى لهم العسكر بالشواكر (74)، وقطعوهم حتى صار لحمهم يتناطر (75)، وتركوهم عبرة للناظرين، وكان عنده الحاج مبارك الاوراسي في أرفع مكان، وأعزّ سلطان، فهو كاهية الكواهي، وكلامه عند الباي حسين ليس بواهي، مالبس قدامه الرزّة (76)، وما يلبسها بعد السلطان إلاّ ذو العزّة. فألبسه اياها وصار بين يديه بها يتبختر ويتباهى (77) وإذا رجعت الخواص والكتاب والوزرا إلى ديارهم فلا يبقى مع مماليك البيت إلاّ هو معهم، ومحسوب منهم وهو ناظر عليهم، فما رقى عند الباي حسين أحد درجته، ولا قعد أحد بقعته ولا بلغ أحد طريقه.

فلما عثروا على هذه السيارة [88] وأتوا بهم إلى بين يديه، وأخذ منهم المكاتيب واطلع عليهم فوجدها مكتوبة مبعوثة من عند علي باشا إلى مبارك الأوراسي كاهية تونس وإلى ابن حليلة كاهية زواوة، فبهت في العجب، وقال : اللّه أعلم بالغيب، ولكن العجل ندامة والتأني سلامة، وتلا قوله تعالى : «يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (78) ثم فكر في

(72) في أ وص : الملاقات.
(73) غير موجودة في ص.
(74) بالشواكر، يعني الشواقر : والشاقور : الفأس.
(75) يتناطر : يتناثر.
(76) الرزّة : عصابة خاصة توضع على رأس المختون أو الأمير.
(77) في أ : يتباها.
(78) قرآن : الحجرات، 6.

نفسه وقال : هذا شيء لم نشكّه في هذه الرجلين، لو كان أحد غيرهم يحتمل ويحتمل، وأما هذان لما رأى علي باشا قربهم مني ومكانتهم عندي أراد أن نبطش بهم ونقتلهم فتتغيّر الخواص، وتنفر العوام وتتفرق علينا الناس، فعندها يحل بنا الشدة والباس، وإذا شاع هذا الخبر بأنّ الباي حسين فعل ما فعل لما حلّ به ما حل رجع يقتل في خواص خواصه، وغدا يقتل خواصه [79] وهلمّ جرا، وأنا، يعني علي باشا، من بعيد نسمع جالس في مكاني فإذا فعل بهم هذه الفعال أسرعوا إليّ وهربوا، وتركوا المحلّة وعن نصرته غابوا، فإذا فعل هؤلاء الخواص تبعتهم الحوانب والصبايحية فبقي عسكر الترك وحده قد أحاطت بهم البليّة، فعندها لووا السّناجق، وأتوني ما بين سابق ولاحق، فتصير هذه الواقعة كواقعة مراد باي مع عمه رمضان باي فإذا انفرد حسين باي وبقي وحده أو قليل معه من الناس فما بقي ينفعه إلاّ النّجاة بالراس، فنزل من الجبل سلطانا من غير قتال ولا امتحان، ولكن كيده يعود في نحره، وسيفه الذي سلّ يعود في جسمه.

وكتم هذا الحديث في صدره ولم يبح به حتى لولده واستعمل الصبر، وطلب من الله النّصر، وقرّب مبارك الأوراسي وزاد في إكرامه وكذلك ابن حليلة أغمره في إحسانه، ثم فكّر وقال : ما يبري هذا العلال إلاّ المال، يتفرق على الرّجال، فعندها بعث إلى خوجات العسكر وقال لهم : احصوا وثبتوا وعدوا من هو معنا من العسكر حضر. [89] وكذلك بعث إلى خوجة زواوة والصبايحية : ثبّتوا من حضر فامتثلوا لأمره وجعلوا يحسبون ويعدّون ويرقمون في الدفاتر، حتى لم يبق أحد إلاّ من هو غير حاضر. ولما أتوه الخوجات بالأرقام واطّلع عليها ورمى بالرّقم إلى باش كاتب وقال له : احص عدد هذا المال للتركي زوج سلاطن والزواوي سلطاني

(79) ص : إن حسين باي لما حلّ به ما حل ولّي يقتل في خواص خواصه وغدا يقتل خواصه.

واحد والصبايحي كذلك وغيرهم كل واحد وقدره [80]. فحضر بالحساب والرقم فوجدوه تخرج ألوف. فلما فرغ من هذا الموطن بعث إلى خزنادار فأتاه وبالرقم إليه [ألقاه] وقال له : اعلم كم من ألف سلطاني هي، وحضّرها بالعشيّ، وأخبرني أنّك حضّرتها. فذهب إلى خبايه وأحضر بين يديه صنادقه وحلّها، وأخرج منها الشكاير وأمر اليهود [81] بالعدّ والحصر، ولما فرغوا من عد الذهب وعلموا كم هو ردّها إلى الشكاير وباتت حاضرة.

ولما طلع النّهار وفرغ الباي حسين من حكمه وفصله، بعث إلى خوجات العسكر وقال لهم . اذهبوا إلى خباء بيت خزنادار وانصبوا ثمّ السفرة، ويأتي الشاوش وينادي كعادته في دار الباشا: الباي حسين نصره الله من أعطاكم البقشاشا [82] فذهبت الخوجات ونادوا على الأغوات، ولبست الأوضا باشية الكسبات وتقدموا إلى خباء خزنادار، وعيّط [83] الشاوش بالدار [بالدار] كلما فرغ من دار عيط على الأخرى، وأتت زمرات من الايولضاشات فيمدوا للواحد سلطانين [84] ويرجعوا حتى فرغوا من عسكر الترك. وعند قيام السفرة وفراغها وقف خزنادار وخواصه، ووقفت الأغوات وكذلك الخوجات، وأتاهم خزنادار بالشربات في الطاسات. فلما شربوا الشربات، وهي عادة جارية كساير العادات فعندها مدت أيديهم الخوجات والأغوات [90] وبولكباشية والاضاباشية [85] ومن هو باقي من البولضاشات [86] . [ورفعوها إلى السماء وعيّطت الشواش بالأصوات : يا مجيب الدّعوات] ويا قاضي الحاجات انصر

(80) لكل حسب رتبته ومكانته.
(81) لاحظ أن اليهود كانوا يشتغلون عند الباي لعد الأموال والقيام بالحسابات.
(82) أي البقشيش.
(83) عيّط : صاح وهتف ونادى (عاميّة).
(84) السلطاني : ثلاثة ريالات نواصر، أنظر أسفله (ص 91 من المخطوط).
(85) ص : الأوضاباشية.
(86) أ : بولقباشية.

سلطاننا، وهدّ أوطاننا، واخذل عدّونا، ومن حيّرنا وبغى علينا، وأراد قتالنا، اللّهم أرزق الباي حسين النّصر، وأيدّه بالظّفر. والأمير واقف، هو وخواصه يسمع وينظر.

قلمّا سمع هذا الدعاء فرح وبكى بكا الفرح، وزال عنه التّرح، وعلم أنّ الله بهذا الدّعاء ناصره، لأنّه صدر من جمع [والجمع] والجماعة لابد فيها من رجل صالح عسى اللّه أن يجيب دعوته، ويقضي حاجته، قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلّم : أمّتي لا تتفق على ضلالة (87) هذا موطن الترك. ولما فرغت الترك ورجعوا إلى أخبيتهم واحد قاعد والآخر متّكي يلعبون بالذهب الأحمر ويقولون : هذا نهار ازهر لكن [من] يمدّ يده للبوس، يقدم على القتل وقص الرؤوس، ومن أراد ذوق العسل يصبر على لسع [ابر] النحل. ثم بعد ضرب هذه المثال، رجعوا واستغفروا وقالوا : على الله الاتكال، هذا ما كان منهم. ثمّ بعث إلى خوجة زواوة ومن معه من الشواش وقال : اذهبوا إلى خباء خزنادار [ونادوا على زواوة ولا تكثروا وشواش واتبعوا قانون الترك وافعلوا كفعلهم ولا تكثروا عياطا واقتدوا بهم، فعندها مشى الخوجة وبولكباشية والاضباشية والشواش حتى وصلوا إلى خباء خزنادار ودخلت الجماعة] وقعدوا وفتحوا دفاتيرهم وعلى أفراد زواوة نادوا : يا خليفة يا سعد يا أحمد يا قصد الله يا مبروك تعالوا وقفوا ولا تقعدوا ورتّبوا الصّفوف كالتّرك وتعاندوا، ولا تزدحموا ولا تتخاصموا وبالأيدي بالكم تتمادوا.

ووقف الشّاوش ونادى، فأتت زواوة من كلّ نادي فيعطي لكل واحد منهم سلطاني أحمر، وفإذا حصل في كفّه خفق قلبه وتحيّر فعندها يرفع صوته بالدّعاء للباي حسين بالنّصر والظّفر ويقول : آمين يا ربّ العالمين إلى أن توافت زواوة من عطايها ورجعت إلى اخبيتها، ثم تقدّمت خوجات

(87) جاء في حديث رواه ابن حنبل (ج5، ص 145)... عليكم بالجماعة فإنّ اللّه عزّ وجلّ لن يجمع أمّتي إلاّ على هدى.

الصبايحية وحضروا أغواتهم وكواهيهم وشوّاشهم وأضباشيتهم وقبضوا مالهم من العطيّة، وعند الفراغ مدّوا أيديهم ودعوا للباي بدوام الملك، [91] ولاعدايه بالسيف يمضيهم. ورجعوا إلى أخبيتهم كلّ منهم شاكر، زواوة وصبايحيّة وعسكر. ثم الباي حسين التفت وأعطى بعد هؤلاء لأنّهم العمدة لكلّ عوني وجلاصي وكعوبي وقيزاني وغيرهم، العطا الكافي لكل عار وحافي، وباتت العساكر والقومان والعرب والخدام على قلب واحد صافي، وصاروا يمشون إلى تحت الجبل وينادون : يا أهل الوحل انظروا لسيّدنا الباي وما أعطانا، وبه أغنانا، وبالسّلطاني ملك أرقابنا، ونفديه بأموالنا وعيالنا وأولادنا، واليد فيما عنده مليانة وعلى الله وعليه اتكالنا، لانبّدل به ساكت ولا عايط. وأنتم ما حصل [لكم] إلا الحصر والقتل واللمس والجوع والأخذ والتمني بتساكر الكاغظ، فعندها يتناوشون هؤلاء وهم بضرب الرصاص ومن مات من الوسالتية يجرون له ويقصّون منه الراس ويأتون بالراس إلى عند خباء خزنادار فيعطيهم الإحسان. وكان في دولة الأمير حسين رحمه اللّه السّلطاني مقوم بثلاثة ريالات نواصر لا يزيد ولا ينقص، وانفق وأحبّ الناس الناصري، ولا يعرفون لاربع، ولا ثمن ولا خروبة إلا هذا الدرهم المربع وقيمته من فلوس النحاس [المدورة] اثنا عشر فلسا، والخروبة ثلاثة نواصر وثلاثة أفلس، والثمن ستة ناصرية ونصف، والربع ثلاثة عشر ناصري، والنصف ريال ستة وعشرين ناصري، والثلاثة أرباع تسعة وثلاثون ناصري، والأربع أرباع يقال لهم ريال والريال اثنتا وخمسين ناصري. هذا ما لحقناه ورأيناه في أيام حسين باي رحمه الله، وهو الذي بدع هذا الربع المدور في آخر دولته والغالب عليه الفضة. ويخرج هذا المرّبع في عمالة بر الترك وغيرها، ولم يبدع غيره حتى جاء علي باشا رحمه الله وسامحه ونقص من فضة الربع وجعل مكانها نحاسا، وبدع الثمن والخروبة مدورة، ولله في فعل خلقه [92] أسرار، لما ضرب هذه الخروبة وأعطاها في الرواتب وسارت في البلاد وشاعت وعلى نفسها نادت أنا اسمي الخروبة جنيت لخراب البلاد،

والغلاء في كل شيء للعباد، والأمر كلّه بيد اللّه، وما مثلكم إلاّ كمثل قرية «كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كلّ مكان فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» (88).

ولما أنعم على النّاس الباي حسين بهذا الاحسان كثر السلطاني في أيدي الناس حتى وصل وحصل عند الرعيان، وصار يلعب به الصبيان، رخص سومه وقلت حرمته وذهبت عزته، طاح من فوق إلى أسفل، ولا بقي يساوي ولاحبة خرذل، فعندها نقص [من] ثمنه بين الرجلين وبيتاعانه بريالين اثنين وتارة يزيدانه نصف ريالين.

فلما [سمعت] القراوة وغيرهم من أهل السّاحل بأن السلطاني في المحال، لا يأتي لأحد على بال، فأسرعت إليه بشكاير النواصر والكوامر (89) وصارو يصرفونه إلى تونس فيبيعونه بسومه الأوّل ويرجعون إلى المحال ويفتشون عليه ويطلعونه ويأخذونه حتى لم يبق مع من لم يعرفه لا أصفر ولا أحمر.

ولما طالت المناوشة والمحاربة بين العرب وأهل وسلات ولا ظهرت لا لهذا ولا لهذا علامات، ولا بقي أحد ينزل أو يطلع لجبل وسلات، ضاق الأمير حسين من هذا المقام الذي ليس تحته طايل، وقال : إلى متى وحتى تجر الماكولات والزيت والسمن والبشماط في الكرارط والخيل والأبغال والإبل، بل نامر بالصّدمة عليه من كل ناحية شرقا وغربا وقبلة وجوفا، ونجعله جايحة. فعندها بعث إلى قواد ومشايخ العربان، ومن كان نازلا قريبا من الجبل ياتونه رجلة وفرسان.

(88) قرآن : النحل، 112. وضرب الله مثلا قرية.

(89) الكوامر : ج كَمَر : حزام من جلد به جيوب لحفظ النقود. انظر ملحق القراميس العربية لدوزي ج 2 ص 496.

فلمّا اجتمعوا عند باب الوطاق وبالنصر دعوا أمر بدخولهم فدخلوا وأمرهم بالجلوس فجلسوا. ولما اطمان بهم المجلس قال : يا قواد ويا مشايخ، إلى متى أنا هنا حابس ؟ فأريد الصدمة عليهم وأفدي النقمة [93] منهم، ولكن إن كنتم أحبابي وعواني فبينوا لي سهله وثناياه والقرية منها والسّهلة واتركوا وعراه. فقالوا : يا مولانا الثنيّة الفلانية تاتي منها أولاد عون، والثنيّة الفلانية تاتي منها الكعوب والخنقة الفلانية تاتي منها جلاص، والخنقة الفلانية تاتي منها القوازين وساير الناس. وهذه الجهة هي أسهل وأقرب إلى بورحال، يصعد عليها العساكر، وزواوة تاتي من جهة الفج. فقال لهم الباي حسين : إن شاء اللّه، وإذا أراد اللّه تكون الصّدمة عليهم يوم الاثنين، فهذا يوم الإربعة، ويوم الوعد تكون على محذرة، وإذا سمعت ضرب المدفع، فكل أحد منكم على ثنيّة إلى الجبل يفزع. فمدوا أيديهم وقروا الفاتحة وبعدها من عنده خرجوا، وإلى أمكنتهم عرجوا، ويعملوا كما أمرهم به الباي ويباتوا على هي. وشاع هذا الخبر اليوم الفلاني الصدمة على بورحال، فقامت على ساق الرجال، واستعدوا للقتال، والحرب والنزال. وفقد العسكر العدد، وحضر كل واحد منهم ما عنده من المدد، وضربوا الطراقية (90) ثلاث مرات حتى صار النهار ظلمات، ووصل الخبر لأهل جبل وسلات، فجمعوا بعضهم بعضا ونادوا في القرى والدّشر، كل من يطلق المكحلة في هذه الساعة يحضر، وفرّقوا على الثنايا والخنق كل صبي أغر.

وأمّا الباشا علي ومن معه من أصحابه رفعوا ما عندهم، وإلى داخل الجبل الوعر أدخلهم، ووقفوا على ساق، وقالوا : ما بقي بعد هذا اليوم من تلاق، فاللّه يحكم بيننا وبينهم، ومن هو على الحقّ اللّه ينصره، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

(90) الطراقية : ج طارقة. درع طويل يغطي معظم الجسد أو ترس. هكذا يفسرها دوزي والظاهر أنه نوع من إطلاق البارود. نفس المرجع : ج 2 ص 41-40.

ذكر طلوع العسكر وهجومه على أهل جبل وسلات، وما وقع فيه من المهلكات :

ولما أتى يوم الأحد ركب الصّباح الأمير حسين باي على فرسه ولم يتكل على أحد ودار بدور المحال [وقرب وبعد وحصّن] حتى لا يدخل [94] بين الخباء والخباء واحد، وطلعت الطبجية [91] الخزنة [واخرجوا البارود والكور والبلنكيط وما للمدفع من العدد] وفقدوا المدفع ومسحوه من داخل واخرجوا ما في من الرمد، وشحموا عجلاته ونحّوا ما فيها من الصدد [92].

ولمّا صلّى الباي حسين العصر بعث إلى الشواش أن صيحوا : غدا يوم المخطر، ويوم النصر، ويوم الكسر. فدارت الشواش وصاحت بأصوات عالية : قوس [93] يا عسكر. فلما سمعوا هذا التنذير، فما منهم من حط جنبه على حصير، فالقاري منهم يتلو في قوله تعالى : «إنّ الّذي فرض عليْك القرآن لرادك إلى معاد» [94]، والآخر يقول : «يارب أودعت عندك العيال والأولاد». والتركي العجمي التّراس يقول : «يا مداد [يا مداد]». وبات البرغل في طنجرته، والبشماط منفخ في قفته، وطاح الليل ودخلوا الخباء فواحد قايم وواحد متكي [95] وواحد يضحك والآخر يبكي، ولا من طرق بعينه نوم، وأكثرهم ولّى على نفسه يلوم، ويقول : يا ليتني كنت جزّار أو حمالا أو نجارا أو تنقض [96] على بهيمي الزبل من بين الديار، وخدمة الرجل نفسه ليس فيه عار، وباتوا نومهم مفزوز [97]،

(91) ص : الطوبجية، وهم المدفعية.
(92) أي الصّدأ.
(93) أ : قوس، قوش : أي شدّوا أحزمة السروج على الخيل.
(94) قرآن : القصص : 85.
(95) ص : قاعد وآخر متّكي.
(96) تنقض أي أحمل.
(97) أي منقطع.

ومن الرعب والخوف من الموت قلبهم مهزوز، والسباط لم يخلعه من رجله، والكبوط لم يزله عن ظهره إلى أن أصبح الله بخير الصّباح وبان الفجر بنوره ولاح، فقام الباي حسين وقدم امامه وصلّى وفرغ من قراءته وتلا وصلى ذلك اليوم كل من لم يعرف القبلة ولا يقرا فاتحة ولا سورة (98) الكوثر (99).

ولما فرغت القومان من شؤونهم وممّا لهم وعليهم، فالفارس أسرج فرسه والراجل لابس لأمته (100) ووقفوا وصاروا منتظرين لما يرد عليهم من الأمر، وما يسمعون من الخبر، فبعث الباي حسين للطبجية أن يطلق المدفع، لكي تأتي الرّجال وتفزع. فلما وصل إلى الطبجي الإذن، شعل فتيله وسدّ منه الأذن، وكواه بالنار فصوّت ومن صوته صوّتت الجبال والقفار، وضرب [95] الطّبال وزعق النّفير، وترنّمت الزرنا وقربع النفير، وحكتها الجبال بالصوت الذي يقال لها الصدى (101) والذي لم يفرق بينهما يحسبهما صوتا واحدا وتقدم السردان وتأخر نايب الاي وامتدت [الصفوف] وقدمت الطبجية (102) المدفع على عجله وهم به دايرين، وما بقي إلاّ الاذن من الباي حسين، رحمه الله فهم له صانتون وملتفتون كأنّهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وفي ظنّهم أنّهم إمّا أن يتقدّم أمامهم أو خلفهم أو عن يمينهم (103) أو عن يسارهم الباي حسين بحوانبه وهم بين أيديهم سايرين، فأتاهم الاذن بالصعود إلى بورحال وحدهم من غير أمير ولا عليهم صاحب معرفة بالحرب وخدامه، وتقديمه وتأخيره، وتقديم وتأخير

(98) في الأصل : صورة.
(99) السورة 109.
(100) اللأمة : ج لأم ولؤم : الدرع.
(101) في أ وص : الصدا.
(102) ص : الطبوبجية.
(103) أ : عن يمينهم أو عن شمالهم أو عن يسارهم.

ولا من يحرّضهم على القتال، ويسير أمامهم إلى النّزال، ولا من المماليك (104) قدامهم بصناديق المال، لأجل البقشيش لصناديد الرجال، بل أمرهم بالتّقديم إلى الموت أضيع من عيال بلا مال.

فايدة : [مكانة الترك بتونس :]

لما كانت مملكة تونس استقرّت على حكم البايات من رمضان باي الذي خلفه سنان باشا لمّا فتح تونس وفكّها من أيدي النّصارى والكفرة الغدارة كما هو مذكور في أول هذا الكتاب أي كتاب «بشاير الإيمان» (105) وفي غيره إن شئت فراجعه في مظانه، وخلفه أي رمضان أمير لواء وهو أول البايات، ثم مراد باي ثم أولاده وأولاد أولاده وكلّهم بايات. وكان انقطاع ملكهم على يد ابراهيم الشريف رجل عجمي. ولما تولى تسمى باسم البايات. ولما أتت أولاد على تركي وملكوا عمالة تونس فالمتولّى منهم يسمى باي [وما معنى الباي قيل يا خالي وقيل يا ضاحك وقيل يا شجاع] وقيل ياأمير. هذا ما سمعناه في هذه اللفظة (106).

ولما حلّت الترك بمدينة تونس وملكوها، ومن أيدي النصارى فكوها، وصارت في أول الأمر لهم الحكم والكلمة ولهم النظر والمشورة خدمتهم [96] أولاد عرب وأرتهم ونصحتهم وعرفتهم لأجل التريّس (107) والتقرّب وحين لم يرد الله بإبقاء الحكم في أيديهم فرّق كلمتهم وشتّت شملهم، وريّس عليهم من غير جنسهم، هرعت أولاد عرب إلى خدمتهم والتقرّب

(104) ص : مماليكه.
(105) انظر ص 112 من ترقيم المخطوط وجاء ذلك في ذيل «بشائر أهل الإيمان» في حوادث سنة 981 هـ على يدي سنان باشا قائد الجنود العام الذي فتح تونس وأخرج منها الإسبان، وعيّن أمير لواء لضبط الأوطان وتقرير الرعايا واستجلاب الجبايا وهو رمضان باي. انظر ص 89-87.
(106) في ص : العضاء رسمها مغلوط.
(107) الياء مشددة في ص.

منهم ككتّاب وترجمان وكاتب سر وحوانب وغيرهم، صاروا يتطلعون على عورات الترك، فعند سماعهم ينمّون بهم إلى الباي ويقصّون عليه خبرهم ويأتون إلى الباي في صورة المتنصح، وهم في ذاتهم أملح من الملح، ويتحفونه بالشي الغريب، ويجعلون أنفسهم أقرب قريب، ويأتونه بكل شيء عجيب، ويخترعون على التّرك الأقوال، ويأتون للباي في مشية التّعجال، ويقفون بين يديه ويتقرّبون منه فإذا رآهم الباي على هذا الحال، ومرادهم في سرّ المقال، أذن لهم في الكلام، فوشوش له في أذنه : خذ على روحك من التّرك، وما بقي عليّ ملام، فمرة مرتين أو أكثر، فتربّت الشحنا بين الباي والعسكر، فصار منهم يتحذّر، وديوانهم لا يحضر، ولا يقربهم إذا كانوا في سفر، [ثم يجعل كاهيته أي خليفته في مقامه فيعطيهم رواتبهم ويقضي حوايجهم ولولا الاحتياج إليهم، ووقوف سلطنته عليهم، وطاعة الرّعية بسنجقهم ما كان إلاّ أن يخلّي ديارهم قفرا، ومساكنهم غبرا، ولا يستر لهم عورا، ولا يجبر لهم عثرا، ولكنّه أحوجه الحال إليهم، فما يتمّ أمره إلاّ بهم، ومن كانوا معه أي الترك فهو الحاكم والأمير، وغيره الطّالب له، ويريد عزله ليجلس مكانه ما نال السّلطنة ولو أتاه معاندا (108) في جيش تيمور أو بخت نصير(109).

هكذا أجرى الله هذه العادة في سلطنة تونس منذ ملكتها الترك إلى السنة التي نحن فيها، سنة سبع وسبعين ومائة وألف [1177].

ما في العدد ترك. وكان ابتداء ملكهم لتونس سنة واحد وثمانين وتسعماية [981]. فمدة ملكهم من ابتدائه إلى الآن ستة وتسعين وماية،

(108) ص : مفاتنا. وأ : معانتا.
(109) تيمورلنك : ولد سنة 1336 م وتوفي سنة 1405 م غزا إيران وآسيا من دلهي إلى بغداد، وغلب السلطان العثماني باي زيد الأول سنة 1402. وتوفي في مسيره نحو الصين لاحتلالها
وبختنصر، يعني نبوخذنصر وهو ملك بابل جعل منها عاصمة للمشرق. كان احتل مصر وبيت المقدس.

بيانه مايتان ثنتان (110) إلاّ ستة سنين. أما ما يقرب [97] من المائة الأولى فحكم تونس وسلطنتها وعيالها ومالها وعليها وجباياتها وخراجاتها في أيديهم ونظرهم. وأما بعد هذه المدة فصاروا إسما لارسما والأمر في حقهم يتقهقر، وفي النقصان يتأخر. وأظن أنّ انقطاعهم بالكلية من هذا القطر قد اقترب، والله أعلم بالغيب، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين،«إنّما مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل النّاس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينّت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكّرون» (111).

فاذا علمت ما قدمناه من المتولى لكرسي (112) تونس من البايات هو الذي معه عسكر الترك وأمره لا ينعدم ولا ينفك الجات البايات الى التحزّب بهم مع ما هم فيه من التحذّر منهم، واذا أتى السفر لخلاص الجبايا من الرعايا أفردوهم بمحلّتهم وأمرهم ونهيهم بيد كاهيتهم خليفة الباي عليهم. فلما تحقق هذا الأمر عند الترك، وأنهم مهمولون في زوايا الترك، رخفوا مناطقهم في أوساطهم وتركوا الصديد (113) أكل مكاحلهم، وفي قعر البيوت ألقوا خناجرهم، وتزوّجوا من بنات تونس وولدوا لهم الأولاد وسموهم الكوارغلية، ولحقوا بآبايهم في نزول الراتب والسفر محلة ونوبجية (114)، وصاروا أي الترك وأولادهم كاحاد البلدية. فحال حالهم وقرب وعدهم لا يدخلونهم في مدخل، ولا في أمر عليه المعول، فإذا أمرهم الباي بالسفر أو حرب سمعوا وأطاعوا وخرجوا لأجل أخذهم الراتب. فمن كانت هذه حالته وقدره وقيمته فكيف يرمي نفسه في

(110) في هامش ص : اعرف تاريخ دخول الترك لتونس ومدّة تصرّفهم حقيقة.
(111) قرآن : يونس 24.
(112) ص : لركيسي.
(113) عامية والمراد : الصدأ.
(114) أي موسيقيين. وفي الأصل : نوفاجية.

الهوالك والعواطب، أو كيف يفتن أو يحارب ؟ ومع هذا [98] ليس قدّامه ولا خلفه من يخاف منه أن يراه هاربا فيكثر عليه من المعايب، وينادي عليه : يا آكل الراتب، تقدّم ولا تتأخر ففعلك هذا ليس بصايب، بل أمره بيده إن رأى مطعمة تقدّم إليها، أو رأى مهلكة تأخّر عنها، وصار واقفا مع الواقفين، أو فاتنا من جملة الفاتنين، أو متقدّما فهو من جملة المتقدمين، أو متأخرا فهو من جملة المتأخرين. فإذا رأى الذي قدامه هرب فهو من جملة الهاربين. فإذا دارت على العسكر الدايرة من كل مكان عيّطت وأشاعت زواوة وصبايحية وعربان أنّ العسكر قد خان، قد خان.

ويقول بعض الحوانب أو المماليك : أنا رأيتهم يقطعون في أخبية الكتان أو حفروا المتاريز [115]، وهدموا البنيان، فيرمونهم بالبهتان، فيتحقّق هذا الفعل الشنيع، والأمر الفضيع، عند السلطان، فيقول : كثّر الله خيرهم [116] ما جزاء الإحسان إلاّ الإحسان، وأنا أعرف بهم ليس لهم أمان، ولا إسلام ولا إيمان. فيتغيّر خاطره عليهم ويزيد في مذلّتهم وإهانتهم، ويعدهم وإبعادهم، وخزيهم [117] ولعنهم وسبهم وشماتة أضدادهم فيهم، وإذا أنصف المنصف وحقّق العارف، فهم على هذا الأمر الذي هم إليه منتسبون، أبعد من وادي السبت وجيحون [118]. أتراك يا متأمل وناظر إلى هذه الكلمات إذا كان عندك عمل وشغل في المحل، ووافقت أصحاب العمل على شيء يفعلونه أو تراب يغربلونه وغبت عنهم وتركتم في العمل حاركون وخادمون وأنت لم تقف عليهم ولا رايتهم ولا ندهتهم ولا حرصت عليهم بما يفعلون بل يلتهون، وإذا تعبوا أقلّ التعب قعدوا يرتاحون وفي المحل يضطجعون، ويترقبون قدومك فيجعلون عليك

(115) المتاريز : ج مطريز أو مطريج، من الاسبانية، في الأصل تعني قناة للسقي.
(116) في أ : خيركم.
(117) في أ : ضربهم.
(118) أماكن : وجيحون : نهر بلخ، منبته في بلاد التبت.

العيون ويعملون عمل يوم في يومين وعمل عشر في عشرين. هذا مع الحياة وهم من كلّ شرّ مطمينون.

وأمّا إذا وافق الرجل أصحاب العمل، [99] وأتى بهم إلى المحل، وتحزّموا فتحزّم معهم وحرك حركتهم وعمل عملهم، وإذا وقفوا عن العمل صاح عليهم وندهم، وإذا جاعوا غداهم وأشبعهم، وعلى فعلهم شكرهم ووفاهم وفقهم [119] وأجرتهم، فعمل يومين أو ثلاثة يعملونه [120] في يوم واحد مع الراحة. فما بالك يا أخي بالذي يقدم على زهق روحه أو تسطيره أو أسره والوسع قدامه والخلاص من الموت وراءه، ومع هذا ليس عليه حراس، ولا من يخاف [منه] بعصوص [121] ولا راس، ولا من يعطيه بعض درهم أو فلس، فإذا هرب أو تخبا [122] أو تروع فما عليه ملام، إنما الملام على الحكام، فعند ساعة البلاء والخوف من الموت فعلى العتاق من الخيل [123] الجياد يركبون، وبنده حراسه فبه يدورون، وهم مثله على الخيل السّبق راكبون، على الفرار عاملون، وعيونهم قدامهم وخلفهم ويمينهم ويسارهم ناظرون، فإذا وقعت الحرب على ساق، والتفت السّاق بالسّاق، وصارت مرّة ما لها مذاق، وجرى الدّم من اللّحم، وبالرّصاص انكسر العظم، وبضرب البطاغان [124] ظهر الشحم، ولا بقي الرجل من غيبة عقله عليه يعرف ابنه من أبيه، ولا ابن عمه من أخيه، ولا له منجا، ولا له ملجا [125]، ولا من الموت أيضا يترجّى، ولا يركب صحيحة ولا عرجا، واختلط العسكران، واجتمع الفريقان، وغابوا عن

(119) أي ما اتفقوا عليه من مال.
(120) ص : يخدمونه.
(121) عامية : ذيل.
(122) اختفى.
(123) ص : عتاق الخيل.
(124) البطغان : أو الباطاغان : سكين كبير، أو خنجر أو سيف قصير.
(125) كأنّه مشهد من يوم القيامة.

الأعين من دهمة الدخان، وغابت الشمس عن الأعيان (126)، ولا بقي أحد يتكلّم إلاّ المدفع بصوته يترنّم، والبارود بحسّه يتنغّم، فإذا رأى الباي ملك الموت يقبض الأرواح، الشّجاع قد طاح، ودمه على الأرض ساح، نبش فرسه وراح، وعلى وجهه ساح، وقال : رحم الله من قال : ومن نجا بنفسه وراسه فقد ربح، وتبعه بعض أصحابه وإلاّ فالكثير منهم يهرب في حينه ولا يتلهّف على ولده ووالده ويتركون أهل البلاء في البلاء واحلون، وركضوا خيلهم إلى الناحية التي هم قاصدون، وعليها معولون، [100] فعندها ينادي المنادي : التفتوا إلى ورائكم أو يمينكم أو شمالكم هل ترون أميركم أو واحدا من خواص خواصه باقي معكم، أو يبيع نفسه في خلاصكم، فعلى من تقاتلون ؟ ولأجل وقوفه معكم تموتون [فيلتفت لمقاتل] فلا يرى آغة ولا كاهية ولا صاحب طابع ولا باش حانبة، فيلقي مكحلته في يده من يده ويهرب أو بقي واقفا في مكانه غايبا على حسّه وعقله حتى يقتلونه أو تسلبه العرب، أو يستره الله تعالى عن الأعيان فيذهب، فعندها يدخل العدّو محالهم وتتفيّا أموالهم وتتمزّق أخبيتهم، لا يدري أحد على أحد. وفئة وسلات لما ولوا هاربين لقطوا من المسارب والأودية والشعاب مكاحلهم، وغنموا حوايجهم وسلاحهم بعد الذي لحقوه فقتلوه أو كتفوه وسلبوه، وإلى علي باشا سامحه الله ردّوه.

إذا تأمل المتأمل في هذا الكلام، فما على عسكر تونس من ملام، إنّما الملام على الحاكم والحكّام، وأبرهن لك على تصحيح هذا الكلام : اعلم أنّه قد صار وحصل في هذه الناحية من هذا القطر الغربي ثلاثة أوجاق [من أوجاق] الترك : طرابلس والجزاير وتونس.

(126) العيون.

[فتح تونس على أيدي الأتراك :]

أمّا سلطنة طرابلس صغيرة، وإلى الصحاري والقفار (127) قريبة، ولولا البحر وغنايمه ما تقيم رعيتها بسلطانه. وأمّا الجزاير فسلطنة قوية برا وبحرا ورعية، وأمرهم تام [دايم لا ينخرم] وحاكمهم واحد منهم تركي عجمي لا يقدمون كورغلي ولو كان ملي و[لا] يخدّمون ولا يقدّمون في المراتب المعتبرة إلاّ من جنسهم، وابن عمهم تركي عجمي، فصار أمرهم محكوما، لا محطوما ولا مفروما. وهي أقدم وأسبق من مملكة تونس، وحين فتح سنان باشا رحمه الله [تونس] (128)، أتاه باشة الجزاير في ثلاثة آلاف من الجند معاونا له على أخذ نصارى لعنهم الله [تعالى]، وبقي معه يفتن ويعرك في الذي من النصارى بتونس وسنان [101] باشا مشغول بقتال نصارى حلق الوادي حتى فتح الله تونس على سنان باشا.

فلما فرغ سنان باشا من شؤونه رجع باشة الجزاير إلى بلاده، فهي أقدم بزمان من تونس ومحالهم التي تخرج لخلاص الرعيّة ما يخرج من الجزاير إلاّ العسكر كلّهم رجيلة حتى يقدمون المحال على بياتهم، فعندها تختلط معهم الخيل كوارغلية صبايحية، ولا يدخل محلّة العسكر لا بدوي ولا عربي ولا رعيّة، هذا في حالة السّفر لخلاص الرعيّة. ولمّا أن قدر الله على مملكة تونس ساعة ساعة يسلّط عليهم الجزيرية فيهرب إليهم هارب أو غاصب أو طالب مملكة تونس فيدخل الجزاير فيكرمونه ويوعدونه بنصره والخروج معه ويقدمون على القتال والقتل مع أبناء عمهم لأجل

(127) ص : القفاري والصحاري.

(128) الزيادة يقتضيها التوضيح وسنان باشا : انظر اخباره في الجزء الثاني من اتحاف أهل الزمان (ص 32-23) الطبعة الثانية خاصة ملاحظة عدد 19 ص 23. توفي سنة 1004. أمّا أخبار الفتح فنجدها في «خلاصة الأثر» للمحبّي والمؤنس لابن أبي دينار والخلاصة النقية للباجي المسعودي والحلل السندسية للوزير السرّاج.

تولية سلطنته، فتكرّرت منهم هذه الفعال مرات من زمان إلى زمان ومن دولة سيدي يوسف الداي (129) رحمه الله كان أول خرجة للفتن والقتال مع عسكر تونس بسبب الشّيخ ثابت بن شنّوف. كان سي يوسف داي قتل بعض أولاده أو إخوته، الله أعلم بسبب اقتضى ذلك، فإذا عوّلوا على الخروج لقتال عسكر تونس يعينون مايتى خباء كلّهم عسكر، ليس فيهم من هو راكب الخيل. وقبل هذه الفتنات الثلاث، وهي سمنجة والثّانية فتنة الكاف والثالثة يأتي ذكرها (130). وأقاموا في هذه الفتنة الثانية على الكاف شهرين أو أكثر في سنة تسع وخمسين ومائة وألف [1159] ولم يقضوا منها شيئا، فسمتها أهل مملكة تونس العيطة أو الدزيرية الكذابة. وفي فتنة سمنجة وهي واد ومحل قريب من الحنايا الجاهلية (131) التي [هي] قرب زغوان، فكانت فتنة سمنجة أتوا بالمعظّم علي باشا رحمه الله لما لم يحصل له شيء بطلوعه جبل وسلات [1021] وقتاله مع عمّه كما سيجيء في هذا الكتاب إن شاء الله.

والفتنة الثانية [المسماة بالفتنة الكذابة] (132) هي التي أتوا ومعهم أولاد الباي حسين، محمد وعلي ومحمود، ونزلوا على الكاف ورجعوا في عام تسعة وخمسين ومائة وألف [1159]، وهي المسمّاة بالعيطة الكذابة أو الجزيرية الكذابة [كما سيجي]. والفتنة الثالثة أتوا الجزيرية معهم ولدي المعظم حسين باي سامحه الله، وهي في عام تسع وستين ومائة وألف

---

(129) يوسف داي : تولى الحكم سنة 1019، أنشأ أعمالا عمرانية مهمّة بتونس، وفي عهده حصل خلاف على الحدود بين ولايتي الجزائر وتونس وقع بسببه قتال بين قبائل القطرين، فتغلب الجزائريون في واقعة السطارة قرب الكاف سنة 1037 هـ / 1628 م ثم تدارك يوسف الأمر بالصلح حقنا للدماء. توفي يوسف سنة 1047 / 1637م.

(130) هذه العبارة مذكورة في أ فقط وص : والثانية فتنة الكاف وأقاموا عليه شهرين.

(131) يعني بها الحنايا الرومانيّة التي كانت تنقل الماء من زغوان إلى تونس وقد أصلحها المستنصر بالله الحفصي وأورد عليها الماء إلى جامع الزيتونة.

(132) في هامش ص : المسماة : مكتوبة بتاء مفتوحة.

[1169] كما سيجيء إن شاء الله تعالى، كان يخرج مع المحال الدولاتلي بنفسه كواحد من أبناء جنسه.

وأمّا هذه الفتنات الثلاث، لم يخرج الدّولاتلي الحاكم على وجق الجزاير (133) بل يبعث كاهيته في الأولى، في أيام ابراهيم خوجة (134) بعث ابراهيم الخزناجي، والثانية التي يقال لها العيطة الكذّابة ولم يتعدوا فيها الكاف بعث فيها خليفته شريف أحمد، وحين لم يقضوا شيئا ورجعوا خايبين (135) قتلوه قبل وصوله، وقيل لم يقتل. والثالثة بعث العسكر من الجزاير وحده وخرج معهم إلى الجزاير المعظّم الأفخم، صاحب السّيف والقلم، المرحوم محمد باي ولد حسين باي سامحهما الله تعالى، وكان قبل خروجهم من الجزاير سبّقوا قدامهم الأمير باي علي، صاحب القدر العلي، إلى باي قسنطينة إلى آخره كما سيجيء إن شاء الله في محلّه.

وحاصله أنّ المايتي خباء الذي يعيّنوهم للسّفر إلى قتال تونس لم يدخل المحلّة سوى التّرك وحاكمهم، سواء كان الدّولاتلي بيده (136) أو خليفته لم يدخل محالّهم فارس ولا عربي ولا بدوي ولا من كبر شانه من أولاد عرب ولا من حقر شانه إلاّ الدولاتلي والعسكر، ويصير الدّولاتلي كواحد منهم وهو في وسطهم ويباتونه في اللّيل ويجلسون معه كبيرهم وصغيرهم، عاليهم ودانيهم، وينصبون الدّيوان فيما [103] بينهم لا يدخل عليهم أحد من غير جنسهم ولو كان الذي أرادوا أن ينصروه أو يملكونه كرسي تونس، فلا يخلط عليهم ولا يحضر معهم، بل له محلة

---

(133) ص : الدزاير.

(134) ابراهيم خوجة : يعرف باسم كوتشك، تسلم زمام الحكم في 24 رمضان 1158 هـ / 20 أوت 1745 م، توفي في 3 صفر 1161 هـ / فيفري 1748 م انظر : تاريخ الجزائر العام : ج 3، ص 230.

(135) زايدة في أ.

(136) أي بنفسه.

(137) ح قيطون نوع من الخيام.

وقياطن (137) خاصته ويشاورهم ويشاورونه فإذا اتّفقوا على أمر وفرغوا منه راحوا إلى أخبيتهم فإذا وصلوا وتقابلوا مع وجق عسكر تونس ويقيمون مقابلين عدوّهم حتّى يرتاحوا، فإذا ارتاحوا مضوا إلى خباء الدولاتلي أو كاهيته في اللّيل ينصبون الدّيوان متى يكون القتال، فإذا عينوا يوما وأرادوا القتال فيه فيخرج عسكرهم للقتال ويخرج الدّولاتلي متحزّما، قافلا سباطه في رجله، مشمّرا أطراف قفطانه في وسطه، ومكحلته على كتفه، ويدخل وسط العسكر ويجتمعون عليه، فعندها تزعق أنفرتهم (138) وتضرب طبولهم وتتقدّم مدافعهم قدّامهم، وإذا صاروا في هذه الحالة لم يقربهم ولم يصلهم واحد من غير جنسهم، فإذا تقدّم الدّولاتلي برجله ذراعا تتقدّم أرجلهم عشرة أذرع وهو ينده فيهم ويتكلّم معهم.

قبل لما قدموا عام السّبعة محال جهّزهم محمد باي بن مراد باي (139) وتقابل بهذه المحال معهم على قلعة الكاف فلما خرجوا من محلتهم للقتال وكان اذاك الدولاتلي شعبان شلبي (140) خوجة هو الذي أتى بهم لقتال محمد باي كما تقدم آنفا. فلما خرجوا من محلتهم أبقوا فيها القليل من الناس كصاحب حرج وطباخ فقط، فلما رآها جيش محمد باي وما فيها أحد فزعوا إليها حتى وصلوها وصاروا يفيّون فيها فالتفت عسكره إلى محلّتهم فراوا قوم محمد باي يقطعون في الأخبية، فقالوا له: يا دولاتلي محلتنا أخذوها قوم محمد باي. قال لهم وجاوبهم

(138) أي يطلقون النفير.
(139) محمد باي بن مراد : استنجد بالجزائرين لقتال أخيه المترلّي فقدمت عساكرهم إلى الكاف وتقابلوا مع محلّة علي فهزموها ثم زحف محمّد متقفيا أثر جموع أخيه فنزل صحبة الجزائريين بالحرايرية. ثم تصالح الأخوان لنشوب تمرّد عسكري في العاصمة ثم استنجدا بابراهيم خوجة فقدم الجزائريون مرّة ثانية وتغلّبوا على الثائرين سنة 1096 هـ / 1685 م. أنظر خلاصة تاريخ تونس : ص 172.
(140) زائدة في أ.
(141) الشكل من ص.

بتركيته : سكّشة (141) عليكم يا عسكر الجزاير، تقولون هذا الكلام أنتم ما خرجتهم من المحلّة إلاّ سلّمتم فيها، وليس هي [104] بمحلتكم إنما محلتكم التي قدامكم لا ما خلفتم وراءكم. وجرى على ساقيه وقال : الله. ورَاوُو هذه الكلمة يقولوها إذا أرادوا أن يصدموا على شيء. فلمّا رأوه في حالة جريه سبقوا قدّامه يجرون ويتسابقون، ففي لحظة واحدة أو ساعة واحدة أخذوا السبعة محال، وهرب محمد باي وهرب من معه، من هرب، ومات من عسكر محمد باي [وجنوده] المتكاثرة شيء كثير، وأخذوا السبعة محال وما فيها ووطاق محمد باي بن مراد وخزاينه وأمواله ومراكبيه ومدافعه، وولّى هاربا وحده أو في شيء يسير من الخيل إلى تونس.

وأمّا عسكر تونس من التّرك والكوارغلية لمّا يأتي دوشمان (142) مع الجزيرية (143) أو مع غيرهم، وتخرج محلتهم على حدة وحدهم معهم كاهيتهم وآغتهم وشواشهم، وتخرج محلة الباي في قوم الخيل، وكان ينزل وحده ويرحلون وينزلون محلّة بعد محلّة، لا تخلط هذه على هذه، فإذا تقابلوا مع العدوّ ونزلوا ليوم موعود للقتال لم يبعث لهم الباي ولم يشاورهم ولا يأتونه لوطاقه إلاّ من كان شاكيا منهم فيأخذ الإذن ويدخل يقضي حاجته ولا يعرف الباي أهم في شرّ أو خير (144)، كثيرون أو قليلون، ولا يقربهم ولا يدخل وسطهم ولا يجلس معهم، ولا ينصب معهم ديوانا ولا يدري من الحبيب أو العدوّ منهم، فهم نازلون قريبا من الباي وكلّهم في دور المحلة، ولا ترىَ يا متأمّل وطاق الباي وهو في محال الفتن إلاّ العرب وخيلهم دايرين به وهو مع أصحابه وحوانبه ودريد وعربانه، كلّ يوم كذلك سواء طال المقام أو قل [المقام]، لا يقربون إليه ساحة، ولا يرون

(142) دوشمان : العدو.
(143) ص : الدزيرية.
(144) ص : أهم في خير أو شرّ.
(145) تقز : وثب، تقفز.

منه راحة. فإذا أتى يوم القتال والموت يركب الباي وخواصه وأصحابه وحوانبه وقومانه باز على قفاز [105]، ويبعدون عن القتال والموت، فإذا اشتبك القتال وكثرت الموت بين العسكرين يهرب ويخليهم على ذلك الحال، أضيع من عيال بلا مال. فإذا هرب بقومانه التفتوا إلى ورائهم فوجدوا أكتافهم عارية منهم، فيقولون : على من نقاتلو ونموتو؟ فيلقون سلاحهم ويأتيهم عدوهم فيفعل بهم ما يشاء، والله أعلم وبهذا حكم أو كهذه الفتنة أمرهم بالطلوع والهجوم على جبل وسلات وقتالهم وحدهم والباي حسين رحمه الله تخلّف هو وأصحابه في المحلة ولم يطلع معهم ولا ندهم ولا شيعهم، بل أمرهم بالطلوع والهجوم لأكل الطعام. فيا لله العجب من أهل مملكة تونس كيف يشنعون ويعيرون عسكر تونس بالخيانة وينسبونها إليهم، والجبانة ويشيعوها عليهم، لكن وكان ذلك في الكتاب مسطور، وقليل السعد يموت في الشتاء بالعطش، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

ولا يخطر ببالك يا ناظر هذه الكلمات من أولها إلى آخرها إنما أنا متعسف لأنّني من رهطهم فاستعذرت عليهم بهذه الكلمات. لا والله، الحق أحقّ أن يتّبع لأنّي رأيت هذا بعيني، وسمعته بأذني. وإذا اعتقدت يا متأمّل أن الحقّ ما قلنا، وأن الصواب معنا، أزيدك حجة أخرى، (145م) لتعلم ما جرى.

لما تولّى ابراهيم الشريف مملكة تونس، وكان رجلا تركيًا أعجميا مال إلى أبناء جنسه [وهذا بالطبع أن الإنسان أو غيره يميل إلى جنسه ويحبّه، والعيب لا يرضاه فيه] لأجل الاشتراك في ذلك الوصف، صار ابراهيم الشريف يقتل في أولاد عرب ويقرّب لنفسه الترك. فلما أكثر في القتل هرب منه صبايحية وزواوة وغيرهم، وكان إذاك أتى أحمد بن سليمان من الغرب منازعا له في مملكة تونس، ومخاصما له : بأنها مملكة آبائي وأجدادي وأنا طالبها.

(145م) من ص 105 الى ص 125 : صفحات مكررة.

فلما سمعت به المخازنية ودريد وغيرهم وصبايحية هربوا إليه واجتمعوا عليه في وادي بوهرتمة من الدخلة التي غربي باجة المعلومة أو ما يقرب منه على ما قيل، ما بين دريد [وغيرهم] وصبايحية وعربان ورعيّة، ما يقرب من ماية ألف أو أكثر. فلمّا سمع بهم إبراهيم الشّريف خرج إليهم في ثمانين خباء، ترك صافية كلّها ساقة وهو في وسطهم ساير إلى أن قرب من أحمد بن سليمان وتناظرت الأعيان وباتوا متناظرين الفريقان. فلما وصلت العسة الثالثة أمر عسكره أن يلبس عددهم ويأتونه. فلمّا اجتمع العسكر كلّه عند وطاقه قام ولبس عدّته وقفل سباطه في رجله وقام ابباش [كذا] قفطانه وجعلهم في وسطه ورفع مكحلته على كتفه وهو على ساقيه ماشيا ودخل وسطهم وكانت عنده أربعة أو خمسة من دراويش التّرك يعلمون رؤوسهم بالرّيش والجلاجل. فلما رأوه خرج ودخل وسط العسكر اجتمعوا قدّامه الدراويش وصاروا يلعبون وينقزون (145) ويبلبلون كالعتاريس (146) حتى وصل إلى نجع أحمد بن سليمان، ومن معه من القومان، فما «كانت إلاّ صيحة واحدة (147) فهل ترى لهم من باقية» (148)، وكان وصوله إليهم عند الصباح «فساء صباح المنذرين» (149)، وتركوا خيامهم وما ثقل عليهم وهربوا، وقال قايلهم ومن نجا برأسه فقد ربح، [124] فغنموها العسكر وعليهم فرّقوها، وولّى إلى مكانه مؤيّدا منصورا، مظفّرا محبورا. فإن كنت من أهل الإنصاف يكفيك يا متأمل أنّ أمثالنا التي ضربناها سابقا، وما احتججنا به لاحقا، ما فيها اعتساف، والله أعلم بما قضى وحكم، لا راد لقضايه ولا صاد لقدره.

(146) العتروس : فحل الماعز.
(147) قرآن : يس : 29 إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون.
(148) من القرآن : الحاقة : 8.
(149) من القرآن : الصافات : 177.
(150) السردان : في الأصل : السردار : حافظ السر. كلمة تركية تعني جنرال أي قائد جيش.

رجع إلى ما قبل قوله فايدة من قوله أضيع من عيال:

وتوجّهوا نحو الجبل وتقدم السردان (150) وتأخر ذيب ألاي وضربت نوبة الآغة وهجموا قاصدين بورحال صفان يمينا وشمالا، وباش حملاجي (151) في ميمنته وكاهيته في ميسرته. هذا ما كان من عسكر المعظم حسين باي سامحه الله وزواوته وصبايحيته.

وأمّا المرحوم علي باشا وأحمد بن متيشة جمعوا الجموع الكثيرة من [ورتتان وماجر ومن هو حبيب لهم من أولاد عون وأولاد سعيد وغيرهم] (152) حتى صاروا ألوفا، وأمّا (153) الوسالتية قيل إنهم خمسة عشرة ألفا أو أقل بيسير كلّهم رجال، يقدرون على الحرب والقتال، والضرب بالبارود والرّماح والسّكين والنّزال، فلما اجتمعوا [عندهم] كلهم، وهذا قبل طلوع العسكر للجبل، أمر هذه الجموع أن يبنوا قبالة ثنية بورحّال وجبلها ويمين الثنية ويسارها أحواشا صغارا الواحد من الأحواش يرفع عشرين وثلاثين رجلا مدورين ذلك الأحواش بالغناتر (154) من أين يخرج راس المكحلة ويطلقها ولا يراه أحد. وارتفاع هذه الأحواش أكثر من الغابة، ويدخلون الرجال وسطها من غير علامة، فامتثلوا أمره وفعلوا ما أمر به.

ولمّا فرغ من عمل هذه الأحواش أمر بالنّساء والأولاد وكل رجل كبير أن يرفعوا إلى القرى الوعرة متاعهم والعزيز عليهم وما يخافون عليه، ويتركون بورحّال الذي فيه ديار أولاد السهيلي ومسكن الباشا ومن معه

اما هذا الفصل فهو يتبع ص 125.

(151) باش حملاجي : يبدو أنه المكلّف بحمل الأعلام والرايات وقد عرّف في النص المترجم بانه ضابط مكلف بخيمة الباي انظر ملاحظة 3 ص 69.

(152) عن ص، وفي أ : من صناديد الرجال الأبطال حتى

(153) في ص : ماعدا.

(154) الغناتر : كوات للرّمي في الحصون تطلق منها القذائف.

فارغة. فلما فعلوا ذلك أمرهم [125] أن يجتمعوا عنده من هو من أهل الجبل ومن أتى إليه من غيرهم. فلما اجتمعوا عنده قال لهم : إذا كان يوم القتال وقد سمعتم أنّ اليوم الفلاني يطلعون إلينا من جهة بورحال العساكر، وأما الثنايا الأخر والخنق السهلة فعينوا لكل ثنيّة وخنقة عرش من العروش مثل أولاد عون وجلاص وغيرهم، فافعلوا أنتم يا أهل جبل وسلات كفعلهم، وعيّنوا من كل قرية ودشرة ما يقابلهم، ومن دخول الجبل يمنعونهم، وبالرصاص يرمونهم، حتى يرجعوا على أعقابهم، ولا يتمّوا في القتال إلى آخر نهارهم.

ثمّ قال لمن اختار من أهل وسلات : إذا رايتم عسكر الترك طلع إلينا [وهجم علينا] فلا تظهروا لهم، ولا يراكم أحد منهم، غاية ما عندي أنّ الذي عيّنّاهم للأحواش يتاوشونهم من وراء الأحواش بضرب الرصاص من الغناتر فإذا قربوا إليكم فاهربوا [قدامهم] وإن شاء الله يكون فيه هلاكهم، وكونوا باز على قفاز عندي، ولا تلتهوا بشيء حتى آمركم ما تفعلون، وما أنتم صانعون. فقرأ الفاتحة معهم على أنّ لا يتأخّروا عما به يامرهم. ولما أتى اليوم الموعود، واجتمعت عند الباي حسين رحمه الله الجنود، وأمر العسكر إلى الجبل بالصعود، وتقدّم العسكر وساروا إلى بورحال [قبّل وغار، والمدفع قدامهم يتكلّم، والبارود من أيديهم يترنم، وتلك الرّجال التي في الأحواش، مكاحلهم أفواهها في تلك الغناتر تحطّم، فإذا ضربوا تلك الأحواش بالمدفع، خرج من فيها وإلى بورحال] يفزع، فمازالوا سايرين، وإلى بورحال قاصدين، وطمّنوهم الوسالتية وأظهروا لهم [بأنّهم] من قدّام العسكر هاربين، وإلى داخل الجبل والمضارب (155) الوعرة طالبين، وتركوا بعض أثاث في بورحال والقرى الخاليين، تطميعا للقوم الغافلين، وكان إذاك الكبير من العسكر عمره ثلاثين، وقليلا من

(155) المضارب : الأماكن.

بولكباشية والأوضاباشية واغوات [126] السناجق وغيرهم من العسكر بقي من الماضين، الذين لهم معرفة بخداع الحرب والقتال، والطعن والنّزال، إنما الباي حسين إذاك [له] في السلطنة [ثلاث وعشرون سنة فأكثر عسكره من الكوارغلية وبعض الأعجام فعمره كمدته في السلطنة]، ومن يوم تولى الباي حسين رحمه الله إلى تمام ثلاثة وعشرين [1123] الكثير من العسكر لا يعرف خباء ولا سفر ولا سكّين ولا مكحلة ولا قتل ولا مقتول ولا ملحمة، ولا رأى دما يجري ولا محطمة، غاية ما عندهم تاتيهم بالطّريق صيفا محلّة، وشتاء محلّة، ثلاثون دارا من العسكر كلّه محلّة، فمن أراد السّفر أمّ طريقه أو يأخذ عوضا لأجل أن يبيع ويشتري ويتّجر، إن كان صيفاففي السّمن والعسل والبقر، وان كان شتاء يتجر في التمر، فيحكون في السفر صيفا أربعين يوما وأكثر في محلّة الشّتاء حتى يخلص المال والعوايد من التّمر، فيرجع كلّ منهم أي من العسكر إلى بلاده، ومعه هدية [لعياله][156] وأولاده، وصاحب العوض يقبض من المعوض عنه [157] أكثره في تلك السفرة ريالين ويخرج إلى المحلّة لا مكحلة ولا سكّين، فإذا وصلوا إلى تونس ففي الحال يعطيهم الرّاتب الباي حسين، فهذا دابهم وشانهم الثّلاث والعشرين من السنين، إلى [أن] انقضت مدة الراحة، وأتاهم الشّقاء والمبيت في السّاحة، فأراهم ما كانوا عنه غافلين، وأيقظهم [158] الباشا علي وابن متيشة بتسليط الرعيّة عليهم فأفنوهم من ورائهم بضرب السكين، وظنّوا أنّهم لما وصلوا بورحّال، أخذوا الجبل وقتلوا الرّجال، فعندها أرسلوا للباي حسين سامحه الله يطلبوا منه البقشيش، والطارقلي [159] ففرّحنا بالمال. فقد أراحك الله من ابن متيشة

(156) في أ : لأولاده وعياله. (وعياله : زوجاته أو زوجته).
(157) ساقطة من ص.
(158) في الأصل أيقضهم.
(159) لم يترجم المترجمان هذه الكلمة، وفي الاصل . وطار قلبي بفرحنا. وطارقلي تعني الأسلحة ونوعا من الدروع. انظر . ملحق المعاجم لدوزي . ج2 ص40 وقد اجتهد في تفسير «طارقة».

والباشا علي، وحطّوا أثقالهم وأتتهم السّقاية بأمشاك [160] بالماء لشربهم وغسل وجوههم [127] وكان هذا أوّل النّهار. فلمّا ارتاحوا أتتهم من المحلّة الطّباخة بالبشماط، وبالماء الذي أتت به السّقاية [161] نفخوه وداروا عليه وأكلوه، بالبطاطة [162] عدوه، ولا قعدوا للسفرة حتى جعلوا عيونا ومن يترقّب وعن الحرس لا يغيب، ومن خاف من شيء سلّط عليه، وقضاء الله تعالى لا يفوته من بعث إليه.

فلمّا فرغوا من الأكل نصبوا الدّيوان فيما بينهم، وقالوا : هذا محلّ ليس فيه أمان، ومن غفل عن نفسه راح في الخسران. فاتفق رايهم على كلمة واحدة، وبعثوا للباي حسين سامحه الله أنّ في هذه السّاعة أرسل إلينا الأخبية. وحين وصله الخبر اختلفت الآراء، وتفرّقت الكلمة. فبعضهم يقول : وماذا عليهم في ذلك المكان يجتمعوا إلى غد إن شاء الله نبعث إليهم الجيوش ويفزعوا، [وآخر] يقول : مباتهم هناك خطر، وما يدريك أن يحصل لهم ضرر.

وكانت الصبايحية، وهم وجق الباجية، لما رأوا العسكر وصل إلى بورحّال، ولم يفتنهم إلاّ قليل من الرّجال، أسرعوا إلى تلك القرى الخالية طمعا في نهب الرّجال، وربّما يعثرون على شيء من المال، فصعدوا إلى تلك القرى ودخلوها، وجعلوا إذا وجدوا جرّة من الزيت كسّروها، وحاجة تعجبهم فياخذوها ويجمعوها. وأمّا العسكر فتفرّقت حزمته ولمّته وشتت جمعه واشتغل كلّ أحد بما يعينه، وصار الأخ لا يدري على أخيه ونزعوا عدتهم [163] وحطّوا ما أثقلهم، وبالجدران استظلوا [164]. ولما رأى

(160) الأمشاك : ج مشك أو مسك : كيس من جلد البقر مربع الشكل معد لحمل الماء على أسنمة البعير أو ظهور البغال حيث يوضع مشك من كل جانب.
(161) أي الذين يسقون بالماء.
(162) ص : باللياطة.
(163) أ وص : عددهم ويعني عدتهم.
(164) في أ وص :استضلّوا.

العاقل منهم والذي ستره الله قال : ليس ما فعلوا، فهم في هذا المكان وعلى أنفسهم غفلوا، أنا ما نرى في هذا المكان المخوف لي قرار، وإذا صوّبت إلى المحلة ليس فيه عار، فأخذ الثنية التي كان اطلع عليها وشافها وعرفها وبقي سايرا [128] إلى أن وصل المحلّة فدخلها وأتى وطاقه وجلس فيها وقال : بسم الله مجراها ومرساها (165) وقال :

فألقت عصاها واستقر بها النّوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

هذا ما كان من هؤلاء الأغبياء، وأمّا علي باشا وأحمد بن متيشة ومن معه، ومن يعرف الحرب وخداعه، لما راوا العسكر شتت جمعه وتفرقت لمّته (166) وراعى الصبايحية كل أحد غانم بما لَه وجمعه، فعندها نادى : أين الرّجال وأبناء الرجال ؟ وأين الأحرار وأبناء الأحرار الذين يقدمون على النّار، ولا يحملون العار ؟ أين رجالي وأولادي، ومن تمنّعت عندهم برقبتي وولدي ؟ تحزّموا وسلّوا السّيوف، واجروا، وعلى هؤلاء [الغافلين] (166م) اصدموا، وظهورهم بالسّيف احطموا. وكان الوقت قريبا من العصر فاجتمعوا من كل قبيلة ومن كل قرية ودشرة حتى صاروا لا يحصى لهم عدد، ولا يقف لهم على حدّ، وتقدمت [قدامهم صبيان ورتتان وفي المثل حتى تخليك صغار ورتتان تعقب الواد] (167) وكلّهم التموا وفزعوا فزعة واحدة حتى ظننت الأرض أنّها نزلت عليها صاعقة، وهو يوم القارعة، «وما أدراك ما القارعة» (168) والأرض اهتزت من قوّة جري الرّجال، حين صدموا على العسكر في بورحّال، وبعضهم قصد الدّشر التي فيهم صبايحية الباجية، فلم يشعروا ولم يعلموا إلاّ حين أحاطت بهم

(165) قرآن : هود، 41.
(166) اللمّة : الصاحب أو الأصحاب في السفر، للمفرد والجمع.
(166م) أ : النساء.
(167) أ : الرجال الصناديد من الوسالتية.
(168) قرآن : القارعة 3.

البليّة، والمصيبة العظمى القويّة، وأحاطوا بهم من كلّ مكان، ولم يقدر أحد أن يركب من الفرسان والشجعان، فداروا بهم وأوقعوا فيهم ضرب السّيف والرصاص فقتلوا من صبايحية الباجية مايتين فارسا، أو أكثر (169) وكمّلوا بمن كان لهم حارسا، ولما سمع العسكر صوت البارود قاموا وشبّوا نحو القرى والصعود، فإذا بالرّجال قادمين عليهم جنود بعد جنود، ومن أيديهم يتكلّم البارود، فما ترى آحاد العسكر في الجري والفرّ إلاّ كمثل [129] تيمور لما جمع الجيوش وأطلقهم على الوحوش وما تراهم إلاّ كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة (170)، الولد لا يلوي على أبيه، والأخ لا يدري على أخيه، واستقبلوا نحو المحال، وتعطّل اللّسان عن المقال، ولا يدروا هل يأتوا على واد أو كهف أو شعبة مانعين مما وراءهم بالرقبة، فيطيح الواحد منهم على وجهه فتتكسر منه الركبة، والسّيف في عراقبهم (171) يقطع، والرّصاص من الصّغيرة من ظهورهم يطلع، وتركوا تلك العدد، ومالهم من القوة والمدد، والطوبجي ومن معه تركوا الخزنة وخلّفوا المدفع وكثر الصراخ : إلى أين إلى أين، يا عسكر الباي حسين ؟ اصبروا لضرب السكين (172) من الصّبيان الصناديد المختارين.

فما شعر الباي حسين رحمه الله إلاّ بالمانع (173) الأوّل يركض على رجليه ركض الخيل، ويصرخ : الويل الويل، أهذا نهار أم ليل ؟ والثاني المانع ينادي : أين المنع يا أسيادي ؟ أين أنا غادي ؟ والثالث المانع يصرخ ويصيح : يا إخواني أين نطيح ؟ والرّابع تركي، ينفض روحه

(169) ص : سبعين فارسا.
(170) قرآن : المدثر : 50.
(171) عراقب : ج عرقوب : عصب غليظ فوق عقب الإنسان.
(172) أ : السيف.
(173) المانع : أي الهارب.

ويقـــول : قاعد أو متكي ؟ والخامس التركي ينادي : باب وسلاتي أمان الله أمان، جانم [174] ويا سلطان.

هذا الذي منع ووصل المحلّة وأمّا الذين أحاطوا بهم من كلّ جـهـة فـيضـربونه على فـارته [175] فـتظهـر منهـا العـضلة والذي يضربونه بالرّصاص، يطلع إلى فوق وينزل على الرّاس. وكان قبل صدمتهم أوصاهم الباشا علي سامحه الله : إذا أمسكتم رجلا كبيرا لا تضرّوه وخذوا عدّته وإليّ أوصلوه، وحـوايجه لا تنزعـوه. فـمسكوا بـاش حملاجي اختبارا، وقالوا له : باب أفندي ما عليك غيار. فأوصلوه إلى الباشا، وهو يرتعد ويتغاشى [176]، ومسكوا كاهية الحملاجي وهنوه، ومن قفطانه لم ينزعوه، ووصّلوه إلى الباشا علي فباس يده وقال : يا سيّدي لا تلم علي. ولحقوا الثالث فلما شدّوه قال لهم : أنا ما نخاف من [130] المتلفة، فوصلوني إلى الباشا فلي به معرفة. فبلّغوه إلى الباشا فعرفّه نفسه وكان قبل الخروج من تونس يمشي إليه ويجي. فقال : أنت مصطفى القهواجي؟ قال: نعم يا شربجي [177]، أنت مولاي وسيدي وسلطاني، فاعتق روح الجاني. فقال للثلاثة : ما عليكم باس ولا شدّة، ارتاحوا اليوم عندي [وغدا] ارجعوا إلى المحلّة وباقي العسكر الذي منع من الموت أتوا فرادى وثواني وثوالث لم يسمع لهم صوت، ودخلوا المحلّة كل منهم إلى خبايه لا يسأل الأخ على أخيه، ولا العمّ على ابن أخيه، لما حلّت بالباي حسين رحمه الله هذه المصيبة والدّاهية العظمى المكينة كثر من قوله : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، إنّا لله وانا إليه راجعون، ما أصاب من

(174) جانم : كلمة تركية، وترجمت هذه الفكرة بجملة : الفارون الخمسة الأولون واثنان منهم تركيان يركضون صارخين صراخ الهلع.
(175) الفارة : عضلات الساق.
(176) يتغاشى : أي كأنّه سيغشى عليه ويغمى.
(177) شربجي أو شرباجي : قائد أعلى للجيش. وهي كلمة تركية.

مصيبة إلاّ بإذن الله، وهكذا قدّر الله وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، صبر جميل والله المستعان. وحار في أمره وتنهّد، ودوّر السّبحة في اليد، وضرب اليد على اليد، ثمّ تلا قوله تعالى : «واصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق ممّا يمكرون إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون» [178] ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم [نحن معاشر الأنبياء] أشدكم بلاء ثم الأمثل فالأمثل [179] ورحم الله من قال :

تنكّـر لي دهري ولـم يـدر أنّنـــي * أعـزُّ وأحداث الزّمان تهون[180]

فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه * وبتّ أريه الصّبر كيف يكـــون

ورحم الله من قال :

تـعزّ فـلا شـيء عـلى الأرض باقيـا * ولا وزر ممّا قضى الله واقيـا

ورحم الله من قال :

وإذا الأمور على الملوك تشابهت

فمـا لهـم إلاّ الصّبر على مـا سيكـون

(178) قرآن : النحل 128-127.
(179) حديث، وفي أ : أشدكم بلاء الأنجيا، ثم الأمثل فالأمثل. وفي حديث رواه ابن حنبل . إنّا معشر الانبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر (ج3، ص94) ونجد بابا في كتاب المرضى من صحيح البخاري عنوانه باب اشد الناس بلاء الانبياء ثم الأوّل فالأول.
(180) وورد العجز مختلا في أ. والعجز المشهور هو : «أعزّ روعات الخطوب تهون».

[131] تتمّة

نحن جماعة مجتمعون في محلّ في بلد باجة وإذاك النّاس حزبان : حزب للباي حسين سامحه اللّه، وحزب للباشا علي رحمه اللّه. فنحن في ذلك الحال وإذا بالخبر ورد به بشّار وكان إذاك [عند] الضّحى أنّ جبل وسلات أخذه العسكر، وعلي باشا سامحه اللّه من بورحال فر، وأنّ أهل وسلات تحت سيف القهر، فالحبيب فرح واستبشر، والمهجرس عبس ولهذا الخبر استنكر، وكان عندنا [180م] في البلد رجل صالح من أصحاب الأحوال إسمه سيدي سعد بووذينة رجل طويل فخم، ممتلي باللحم، له لحية كبيرة ولونه أسمر، فنحن جلوس في مكان عند ورود الخبر، وإذا نحن بسيدي سعد قادم إلينا، ووقف علينا، ودموعه تجري على خدّه ولحيته وهو عريان إلى وسطه وحبل متحزّم به، وهو ساكت لا يردّ لأحد جوابا، ولا يسمع منه خطابا، فبقي مقدار ساعة واقفا مقبلا علينا، ثم ذهب فبقينا نحن حايرين في العجب ثم رجعنا إلى ديارنا وبعد المغرب، التقينا فقام واحد منّا وقال : هل رأيتم ما رأيت ؟ قلنا له : وما رأيت ؟ قال : رأيت فلانا وفلانا يتخامسون وهم يضحكون [181]، ما هو إلاّ الخبر قدم عليهم فنحن كذلك والخبر شاع بين الناس، والواقفين والجلاس، أنّ العسكر كسّروه الوسالتية وتفرّق على ثنيّة، والباي حسين رحمه الله هرب، وما في المحلّة نهب، فسقط ما بأيدينا وبهتنا وهزتنا الروس، وكذّبنا وقلنا : هذا الأمر محال، إنّ العسكر تكسّره أهل الجبل، ومع الباي حسين نوّر اللّه ضريحه ألوف من الرّجال، فساعة ساعة يتقوّى الخبر، وارتفع الشك قريبا من العصر، ومن غد أتى الخبر بأنّ صبايحية الباجية لم يبق لهم أثر، ولم يبق منهم بقيّة إلاّ قليل روّح إلى المحلّة من الصبايحية، فحزن المحبّون وفرحت المهجرسون.

(180م) في أ . عنده

(181) كذا والأصح : يتغامزان وهما يضحكان : أي يشيران عليه بالأعين

ولما قضى اللّه وحكم على العسكر ومن قتل من الأمم وتفرّقت النّاس على كل ثنيّة فمنهم [132] من قصد القيروان، ومنهم من بات عند العريان، ومنهم من رجع إلى تونس وهو عريان ولم يعلم الباي حسين سامحه اللّه قدر من قتل من العسكر، ولا يدري من تغيّب ولا من نفر، فعندها ركب الحواتب إلى بلد تردّ إلى المحلّة الهارب، وبعث أمره إلى ولده المرحوم المعظم صاحب السّيف والقلم محمد باي [182] نور اللّه ضريحه، وأسكنه أعلى الجنان وفسيحه، أن يرسل من عنده حانبة إلى الدّيوان، ويخبر أهل الدّيوان بما كان، ويرسل الشّواش وينذروا في كلّ محلّ ومكان، من أتى من المحلّة ووصل إلى تونس وتغيّب فيرجع إلى خبايه فليس فيه عيب، والّذي لم يرجع، ولم يطع فنضرب على راتبه ولا بقي له فيه مطمع.

فلما وصل الخبر إلى الدّيوان، أمروا الشّواش برفع الصّوت والإعلان، أن ينذروا ويعلموا كل إنسان، الذي أخذ من الباي حسين سامحه اللّه الإحسان، فحين سماعهم بهذا التنذير وقطع الرّاتب، رجعوا إلى المحلّة وما عليهم عاتب.

وبعد ثلاثة ايام من يوم الوقعة أطلق الباشا علي رحمه اللّه ذلك الثلاثة، وبعث معهم من شيّعهم إلى المحلّة وبلغوا مأمنهم فدخلوا أخبيتهم ووصل خبرهم إلى كاهيتهم وآغتهم فعندها بعثوا للباي حسين رحمه اللّه بخبرهم ووصولهم وها هم جالسون في أخبيتهم وأنت بما تأمر أرسل إلينا.

فلمّا بلغ الخبر إلى الأمير حسين سامحه اللّه ردّ اليهم الأمر وقال لهم : إنّ باش حملاجي [183] وكاهيته في هذه الساعة ارسلوهم إلى

---

(182) في هامش ص : الرواية الثانية إنّ محمد باي سامحه الله كان مع والده في المحلّة يوم كسر الترك في بورحّال واللّه أعلم.

(183) صاحب منصب إداري كبير مكلّف بصندوق الباي وحساباته.

تونس. وأما مصطفى القهواجي فلا ترسلوه إلى تونس، وأنا وصلني الخبر وما به وانس، مع الباشا علي أرسله ليوسوس ويتجسّس، فأرسلوه من هنا إلى حلق الوادي، وحطّوه في البرج لا يصل إليه رايح ولا غادي. فأوّل سفينة حلّت [133] شراعها فالقوه فيها، ولا ترجعوا من عندها حتى تقيم البحرية مخاطفها، وسارت في سبيلها.

فكان أمره مطاعا، وبعثوا بالثلاثة سراعا، أن وصّلوهم إلى حيث امر، وينفي مصطفى قهواجي اشتهر. ويأتي بقية خبره ان شاء الله تعالى فيما يأتي.

ولما حدثت على الباي حسين رحمه الله هذه الخطرة، وما وقع للعسكر من الكسرة، وقف من كان قاعدا، وفاق من نومه من كان راقدا، وظنّوا أنّ أمر حسين باي أخذ في التقهقر، وسيف سطوته قد انكسر، ونجم علي باشا قد طلع، ونور برقه لمع، وظلامه بالضوء شعشع، أسرع إليه أكثر النّاس بالسّيارة والهدايا والملابس ليتّخذوا عنده يدا، ويصيّر بينه وبينهم وعدا، فإذا تولّى السّلطنة فازوا عنده بالمسبقة وما بهم مخمصة.

هذا ما كان من الذي يلقي نفسه إلى الهلاك، والطمع الذي يوصل إلى السّفاك، وحسبوا أنّ الباشا علي أكثر عدلا من حسين باي وإن كانت الناس في أيام عمّه على أحسن حال ففي أيام ابن أخيه تزيد مالا على مال، وهذا ما إليه مالوا، وحدّثتهم أنفسهم وقالوا، والغيب لا يعلمه إلا الله. ومن جملة من دخل في هذه المناوشة، فرقة الحنانشة، ورأسهم بو عزيز الغدّار، وسلطان كبير أولاد عمّار، وحين سمعوا بالوقعة وأنّ الباشا علي حضر بالنّصرة وحسبوا كحساب الأوّلين، وقالوا مالنا متأخرين، نبعثوا إلى الباشا علي السّيارةويأمرنا بمن يريد من الأعراش نطلق عليه الغارة، ونأخذوا سعيه ونخلوا دياره، ونفسّد على عمّه البلاد، ونكثر القتل في العباد، ونحن من أوّل الزمان أهل فساد، وبيت طغو وعناد.

ولما دار بينهم هذا الكلام، وفرغوا منه بعد الخصام، أرسلوا إلى الباشا علي رحمه الله المكاتيب [134] وأخبروا السيّارة علي باشا (184) أن الشيخ بو عزيز يقول لك : أنت عندي أعزّ من كل عزيز، وأنا لك سميع مجيب، أقرب إليك من كلّ صديق وحبيب، فامرني بأمرك الحسيب، أن نحيّر رعيّة عمّك وناخذ كلّ بعيد وقريب.

هذا ما كان من سيارة بو عزيز. ولمّا وصلوا إلى الباشا علي فرح بهم وهنّاهم، ومن الدّراهم أعطاهم، واطّلع على ما في الكتاب من خطاب، فردّ إليه الجواب، أن أسرع واغز وفسّد من حين تدخل وتتعدّى الحدادة (185) مبدؤك شارن ومنتهاك زواغة (186) القريبة من بلد باجة. وهذا عرش زواغة السّعي والرعي أكثر من النساء والرجالة وأكثر السّعي عندهم لأجل بلد باجة وداعة. وشيّع الباشا علي رحمه الله السيّارة إلى حيث اطمانوا وارتاح خاطرهم وتهنّوا وتمّوا سائرين، وإلى من بعثهم قاصدين، حتى وصلوا إلى بو عزيز وهو إليهم رقيب، فاعطوه المكاتيب، ففكّهم وقراهم، وعلم أوّلهم ومنتهاهم، فاحمّر وجهه من الفرح وتمغط (187) وعلى خواصه نادى وعيّط، ولمّا جلسوا أراهم مكاتيب الباشا علي بالغزو على رعية عمّه وأخذ سعي من هو ملي (188) فقوموا وعدّوا واحصوا كل فارس كرار، ومن القتل ليس بفرّار، ومن هو يستحي من العار، لا يهرب ولو دخل النّار، وافقدوا الخيل وحضّروا البغال، واتركوا الخيام والعيال، [وابشروا بهذه الغنيمة وما ترجعوا به من السعي والمال]، ففرحوا غاية الفرح، لأنّهم قوم سنح، لا يعرفون للعباد إلاّ القتل والذبح، ولا يريدون

(184) ص : الباشا علي.
(185) أي الحدود.
(186) شارن : قبيلة كانت تعيش في الجبال حتى مدينة الكاف وزواغة أصلها من البربر وقسم منها كان يعيش قرب الحدود الليبية والآخر قرب باجة.
(187) تمغّط : مد يديه وساقيه.
(188) مليّ : أي غنيّ.

للخلق إلاّ الخسارة وقلة الربح، إلى أن سلّط الله عليهم ذلك الأمير العالم (189) فانتقم منهم وفناهم بالقاطع الصارم، وحصّلهم في الشَّرك بقليل من المطاعم، وسيأتي إن شاء الله في محلّه وكيف ركب بو عزيز [عند باب قصبة تونس على حصانه فامتثلوا لأمر شيخهم بو عزيز] وباتوا على فزيز، وما إليه قاصدون، وعليه معولون.

(189) يعني محمد الرشيد باي انظر عنه دراسة بكتابنا « في الحضارة العربية التونسية» دار المعارف، سوسة، 1988.

[135] ذكر أخذة (1) عرش زواغة على يد بو عزيز حين قدم إليهم وأطلق عليهم الغارة :

ولما سار الشيخ بو عزيز وأتت عن يمينه ويساره الأجواد (2)، طهّر الله منهم البلاد، وأراح منهم العباد، قدّامه وخلفه المزارقية، أراح الله من شرّهم المملكة التونسية، ما اجتمع على الشّيخ بو عزيز [منهم] إلاّ كلّ حلاّف ومهين ومنهم همّاز ومنهم مشّاء بنميم ومنهم منّاع للخير ومنهم كلّ معتد ومنهم كلّ أثيم ومنهم عتلّ ومنهم كلّ زنيم (3) إذا تتلى عليهم آية: قالوا أساطير الأولين (4) ولا زالوا سايرين إلى [أن] وصلوا العبايدة [خلا لك الجو فبيضي واصفري، ونقري ما شئت أن تنقري] (5)، أكابر جندوبة : الشيخ غنية وأحمد بن مبروكة، فلمّا سمعوا بقدوم بو عزيز عليهم تمغرت (6) وجوههم واهتزّت قلوبهم فركبوا خيلهم وعرضوه، وبالسلامة هنّوه، ورجعوا معه إلى أن نزل في بيوتهم وذبح البقر والغنم وكثروا من المطعم، ولمّا فرغوا من الأكل وقعدوا للمسامرة قال لهم بو عزيز : دلّوني على من نغير عليه وناخذ ولا يقاتلنا ولا نقاتله وليس لهم شوكة، ولا تصير بيننا معركة.

(1) أ وص : أخذت.
(2) الأجواد : أي الفرسان وهم من المزارقية من دريد وجلاص ويعملون في خدمة الباي.
(3) اقتباس من القرآن : القلم : 13-10.
(4) اقتباس من القرآن : القلم : 15، المطففين : 13. «إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين».
(5) المثل رقم 1267 من مجمع الأمثال للميداني ويضرب في الحاجة يتمكّن منها صاحبها. وتنسب الأبيات لطرفة بن العبد :

يا لك من قنبرة بمعمر * خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقري * قد رحل الصيّاد عنك فابشري
ورفع الفخّ فماذا تحذري * لا بدّ من صيدك يوما فاصبري

(6) تمغّرت : اسودت (عامية) من الفجيعة أو العار.
(7) يعني العدة.

وكان إذ ذاك شاع عند النّاس خبر زواغة بما عندهم من السّعي وما لهم من الثروة واجتمعوا كلّهم قريبا من باجة في مكان يقال له : بحاير انغرية، ونزلوا فيه وحضروا خيلهم، وعددهم (7) وفارسهم ورجلهم، وقالوا: لا غالب لنا اليوم أحد من الناس، نحن أصحاب القوّة وأولي الباس. وصار كل يوم، وكان إذ ذاك رمضان في سنة أربعين ومائة وآلف [1140] [136] تركب منهم الفرسان ومن هو ليس بفارس ورافع المكحلة، تجتمع كلّها مرجلة، وتلحق الفرسان إلى أن يصلوا إلى المكان المسمّى برشقة، ويتفقّدوا كلّ رتبة، فمنهم الموشّح ومنهم المعلم (8) ومنهم القايل : أنا الفارس العروم (9)، وغيره يقول : أنا البطل القطمطم (10). ثم يرجعوا إلى أهلهم تتسابق رجلهم، وتركض الفرسان خيلهم، ويطلقون المكاحل بالبارود، وصاروا يخرجون كل يوم من نزلهم جنود، بعد جنود.

ولما شاور بو عزيز أحمد بن مبروكة العبادي، وغيره ممن هو جالس في النادي، وكان عندهم [خبر] عرش زواغة، وما عندهم من السعي والصياغة، قالوا له : يا شيخ إن فاتتك هذه الغنيمة، وأي غنيمة من هذه الرعية الذميمة، وفؤاد البهيمة، قد غشّشوا على قلوبنا، من فزوعهم كل يوم إلى قبالتنا حتى خفنا منهم على سعينا وسرحنا، وهم أقلّ من كلّ قليل، وأرذل من كلّ رذيل (11)، قد اتخذوا بلد باجة لقربها منهم ظهرا، وطمعوا إذا أتاهم أحد ممن أراد أخذهم فتفزع الباجية إليهم ويردونه قهرا، فقال للعبايدة بو عزيز : عند المغرب نسيروا، وعند الصباح على القوم نغيروا، والتمّت على العبايدة من كل عرش واتتهم مشايخ عمدون وأولاد بو سالم وشيحية، والقدر يغلب الحذر، واللّيلة المشومة لا ينبح فيها كلب.

(8) المعلم : الموسوم.
(9) يقال : جيش عرمرم وفارس شجاع صنديد.
(10 لعلّها التضمضم : القضم : أكل الشيء اليابس، والقضمضم : يعني بها احتمال المشقة والصعوبات، ويبدو انها كلمة صنعها محمد الصغير للسجع.
(11) ص : أذل من كل ذليل.
(12) قرآن : الصافات 177.

ولما طاح الليل وركبت الخيل وتمّوا سايرين، وعلى زواغة عاملين، إلى أن طلع الفجر ولاح، وبنوره باح، فوصلوا إلى منازل عرش زواغة المغرورين، «فساء صباح المنذرين» (12)، فما شعروا إلاّ والخيل بهم داروا، وعليهم غاروا، فما تسمع إلاّ صياح النّساء وبكاء [137] الصّغار، وتكلّمت طلبة بو عزيز فصارت أهل زواغة [تخلي الباير وتهرب بالعزيز، وركبت خويلة من زواغة واشتغلوا بالقتال، والكثير من أهل زواغة هرب] بالسّعي والمال، ومنعوا سعيهم ومالهم وتركوا في القتال إخوانهم، وكثرت على الخويلة القوم والفزاعة فقتلوا من زواغة عمر بن حمروسي وعمر بن بوحوال، وجرح البعض وهربت الخويلة ولا بقت واقفة عرايا إلاّ خماسة البعض من الباجيّة وكلّهم هربوا وتركوا سعي الباجية، ماله حمية، منهم العبد الفقير لربه (13)، المقرّ بالعجز والتّقصير، محمد بن يوسف الصغير (14)، الكورغلي الحنفي كاتب هذا التذييل، وقد رفعوا لي في هذا اليوم خمسين ثورا وخمسة أبغال وعشرين من الخيل ما بين ذكور وإناث وزوج مراكيب وبهيمة مصرية في جرتها من الأولاد (15) اثنين أو ثلاثة وغضاوة وحوالة وجذعان وبقرة منيحة (16).

ولم يمنعوا أصحابي بشيء من السعي وتركوا البيوت واقفة، وهربت هذه الخماسة إلى باجة لا يستحي الرجل من المراة ولا تستحي المراة من الرجل، ودخلوا إلى بلد باجة، فأخذتهم النّاس فرجة، وقصدوا ديار أصحابهم نساء ورجال منهم أصحابي ما يقرب من العشرين فيهم رجل

(13) زائدة في أ.
(14) زائدة في أ.
(15) ص : أولادها.
(16) الغضرى : ولد الفرس الصغير، والحوالة : الحمل الصغير سنه عام. الجذعان : التيس (الجذع) ومنيحة : العطية تكون في الحيوان وفي الثمار وغيرهما. جاء في الحديث من منح منيحة غدت بصدقة صبوحها وغبوقها.
(17) قرآن : النمل 52.

مجروح في كتفه وقمنا لهم بما يأكلون وما يحتاجون، وكان قريب حصاد النعم فلما طاب الزرع ووقع فيه الحصاد خرجوا إلى زرعهم واشتغلوا بحصادهم والبلاء والأخذ [في راس من جاد مثلي وغيري وأنا أكثرهم سعيا ورعيا فما بقي إلاّ وجه الله والخليفة على الله] ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. ومن ذلك الأخذة لا رحم الله بو عزيز، لم نرجع كما كنت ولا ما به استانست والعوض في الآخرة على الله. هذا ما كان من خبر زواغة.

وأمّا العبايدة فضرب منهم أحمد بن مبروكة برصاصة فروّحوا به على الأعمدة يتغاشى، قيل مات حين وصوله إلى أهله [138] وقيل مات في الطّريق، لا رحم الله ذلك الزّنديق، وقيل مات في الطريق، لا رحم الله ذلك الزنديق، وقيل مات واحد من أجواد بو عزيز مع من قاتل من أولئك الخويلة، وخلت منازل زواغة ولا بقي فيها ديار، ولا نافخ نار، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» (17) «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» (18).

ولما أخذ بو عزيز زواغة، لم يقم في هذه الناحية ولا ساعة ورجع لأهله بما أخذه من المال والصاغة (19)، وبلغ الخبر إلى الباي حسين سامحه الله بما فعل بو عزيز [والعبايدة وغيرهم في وطن إفريقية، وما أحاط بزواغة، والباجية أضرمت ناره، وحار لبّه وعقله وتوعد بو عزيز] وبعث إلى العبايدة يتوعّدهم ويقول لهم : إن هنّاني الله تعالى من هذه المحنة وخلصت من هذه الوحلة، فمن ضاع له ولو عجل ناخذ له منكم جمل، «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» (20)، ألا لعنة الله على القوم الظالمين.

(18) قرآن : الانعام 44.
(19) أ وص : الساغة أي المصوغ.
(20) قرآن : الشعراء : 227.
(21) يعني بذاءة.

ذكر سجن الباي حسين وربطه لأخيه محمد باي في المحلّة وبعوثه إلى تونس مع الخيل في كريطة :

ولمّا وقعت هذه الخطرة، وصار العسكر في حسرة، وأيّ حسرة، شعشع في المحلّة وغيرها نجم النّفاق، وكثر القول من أهل الشّقاق، ووقفوا على ساق، وصار الباي حسين رحمه الله يبلع ويغص، ومن الذي أصابه ينتغص، وقد رأى من خواصه من هو يتملّص، وإلى جبل وسلات يريد أن يتخلّص، فعندها بادر بأخيه محمد باي [ومحمد باي] هذا اسما لا رسما، رجل مشغول بالأكل والشرّب والطّرب واللعب لكن لسانه فيه بذاذة (21) وعينه فيها قذاذة (22)، ولما وقعت الكسرة على العسكر كثر في خبايه الخاطر (23) وصاروا يتكلمون جهارا، ولا يبالون بمن كان حاضرا، فوصل [139] الخبر إلى الباي حسين [بأنّ أخيك ومن معه قد عوّلوا على الهروب إلى ولده الباشا علي سامحه الله وأنا أخبرتك وأنذرتك، فتغدّى به قبل أن يتعشى بك، وحلّ حزمته وفرّق أتباعه وخدّامه، وما على الرّسول إلاّ البلاغ، فتحقق الباي حسين] رحمه الله ما سمع وطبّق قراين الأحوال، على قراين المقال، ووافق ما عنده من العقل والنقل فوجده صحيحا فعندها أمر من حوانبه وخدّامه من يعتمد عليه ويركن إليه أن يسرج فرسه ويركب وياتيه ففعلوا ما أمر به وأتوه راكبين، ولما يأمر به مطيعين. ففي الحين أمر بعض خواصه ومماليكه أن يلبسوا عدتهم ويتقدّموا إلى حضرة محمد باي ويدورون به ويطردون خدامه وأعوانه. فلمّا رآهم محمد باي رحمه الله، علم أنّه قد حصل في الشّرك، ولا بقي يخلص منه ولا ينفك، كما بقي لأخيه مدّة في السلطنة، فما وسعه إلاّ الامتثال، لما أمر به حين رأى نفسه قد وقعت في الاثقال، وانفرد عن الرّجال، فحطوه في الكرّيطة

(22) يعني قذى.
(23) اي الناس.
(24) قرآن : النمل : 52.

وسارت، والحوانب بها دارت، وفي الحين أمر الأمير حسين رحمه الله بتخميل خبايه وتفريق خدّامه وتشتيت أعوانه وإطفاء النّار من وجقه، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» (24).

وأما الكريطة والحوانب لازالوا سايرين [إلى أن وصلوا إلى باردو وإليه]، داخلين، وكان قبل هذا الموطن والثّقاف أخبر الباي حسين رحمه الله ولده السعيد، صاحب القول السديد، والرّاي المبارك الرّشيد، المعظّم الأفخم، صاحب السّيف والقلم، محمد باي أسكنه الله أعلى الجنان، وزاده إحسانا فوق إحسان، أنّه يقدم عليك أخونا محمد باي، فحين وصوله إليك انزله من الكريطة وادخلوا البيت الفلاتية وسد عليه بابها ولا تخلّي إلاّ طاقة ينظر منها بعد أن تريسه من الفراش، وما ياتيه من المعاش، فصار الأمجد الأمير محمد رحمه الله منتظرا لقدوم عمّه محمد باي سامحه الله حتى قدم إلى باردو، فحين وصوله فعل به ما أمره به والده الباي حسين رحمه الله، والراجح أنّ محمد باي مع أبيه في [140] المحلة مع إخوته، ولم يتركه أبوه بعده قايما بباردو ولافارق أباه (25) إلاّ حين بعثه بمحلة لخلاص المجبة من عند الجباية كما سيجئ إن شاء الله، فبعد الخلاص دخل باردو وأقام له بأمر أبيه إليه في ذلك، وهذه رواية أخرى مخالفة للأولى والله أعلم، وارتاح الباي حسين رحمه الله من غوايل أخيه (26) وشرّه ونسوه في ذلك البيت، كأنّه في قبر ميت، حتى أتاه الله بالفرج من حيث لا يعلم، لانّه في مكان مظلم، ولا يصل إليه إلاّ من يأتيه بالطّعام، مع بعض الخدّام.

(25) من والراجح إلى والله أعلم، في هامش ص، بخط مغاير.
(26) أ : عوابل أخيه.
(27) أ : وجاء في الأثر : لعن الله من قطع رحمه.

ولمّا وصل الخبر إلى ولده الباشا علي سامحه الله بما فعل عمّه مع أبيه، زاد همّه، وغمّه، وكربه، وقال : بيس عمّي ما صنع، وما ذلك الرّجل إلاّ محسوب من جملة التّبع، ولو كان فيه خير ما سمّوه الناس مربّي الضبع، وهذا أمر لا يفدي إليه غليلا، ولايبري له عليلا، وهذا رحمه الله، وقد جاء الأثر في لعن الله من قطع رحمه (27) وهذا الفعل محسوب من السّوابق، ولا يرضى بهذا الفعل إلاّ كلّ عايق. ثم تنفّس الصعداء وقال :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

هذا ما كان من أمر محمد باي وأخيه سامحهما الله تعالى. ولمّا ربط أخاه الباي حسين [رحمه الله] واختلى بنفسه وهو مكروب ممّا حلّ به وما قاساه من دمه ولحمه، وضربته على عينه ريشة من جناحه تفطّن وتنبّه لأمر قد غاب عن عقله وقال : الحمد لله الذي كم له من نعمة، في ظاهر نقمة، وكم له من رحمة، في طيّ سخطة، قال الله تعالى : «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (28)، ماذا نصرني الله به باطنه فيه الرحمة، وظاهره فيه النّقمة، من قبله العذاب أن سلط الله البربر على قتل العسكر وقتلوا من الترك مقتلة [141] عظيمة، فإذا جلسوا الترك فما تراهم إلاّ بهذه المقتلة يتحدّثون وعليها يتقهرون، ويتنهّدون ويعضون على أيديهم ويتحسرون، ويتمنّى الواحد منهم لو أمكنه الله برجل من أهل جبل وسلات بعد تعذيبه بالعصا وكيّ جسده بلظى حتى يطيح لحمه فتفات (29) ونبري عظمه بالسكين لنكتب به ورقات، ولا يشفى لي غليل، ولا يبري لي عليل، إلاّ

(28) قرآن : البقرة : 216.
(29) فتفات : فتافيت : اجزاء صغيرة.
(30) اي سخرية.

أنّي ناخذ جبل وسلات، ونحرق بالنّار الولدان ونسبي البنات، فهذا هو البـرهان القـاطع، والدّليل السـاطع، على أنّ أحـدا من التّـرك ولا من الصبايحية الذين وقع فيهم القتل والفتك، أن لا بقي يألف أحد أحدا خصوصا والعداوة بينهم سابقة، والطباع منهم متنافرة،

فالقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

وفرح واستبشر، وأعطى الإحسان إلى العسكر، هذا ما كان من فطنة وتنبه الباي حسين رحمه اللّه.

وأمّا الباشا علي سامحه اللّه وأصحاب العقول لمّا وقعت هذه الخطرة، ورزقوا على العسكر النّصرة، فكان أوّل الواقعة فارحا، وآخرها ترحا، وتفطّن الباشا علي سامحه اللّه بأنّه ما بقي لك في السّلطنة مطمع، ولا بقي أحد من التّرك ولا من المخازني إليه يطلع ولا بقي مسلم من ناحية عمّه في درجه يطلع، وأيضا تفطّن وتنبّه لهذا الشيخ بو عزيز لا سامحه اللّه بأن معول سلطنة تونس على من كان معه العسكر، فهو السّلطان، والذي لم يكن معه العسكر لو التّمت عليه ألوف الألوف من البـربر والعربان، ماملك البلاد، ولا ساد العباد، وأمره مآله إلى الانحلال والذهاب والفساد، وها هو وقعت على العسكر هذه المقتلة واتخذوها فيما بينهم معرّة ومكسرة ومصخرة (30)، ولا بقي يتم أمرى لعلي باشا وأمره قد اضمحلّ وتلاشى فما بقي يسعني مع الباي حسين رحمه الله باي الشرق إلاّ التّرهدن (31) [142] والتملّق، والوعد بالفعل الجميل معه والتصدق، ونبعد من أولاد عمار ونتفرّق، فنبعث إليه سيّارتي ومكاتبي ونعتذر إليه عما صدر منّي فهو رجل حليم كريم، خصوصا وهو في هذا الخطب الجسيم، فيعفو عن السيآت، وما مضى منّي من الزلات، ومدّة

(31) الترهدين : التملّق والنفاق (عامية).
(32) قرآن : المائدة : 95.

حياتي ما بقيت أرسل أحدا إلى جبل أهل وسلات، ومالي وللبايات، وهم أقرب في الحياة والممات، «عفا اللّه عما سلف ومن عاد فينتقم اللّه منه واللّه عزيز ذو انتقام» (32) وبعد كتب الكتاب ختمه وطواه وإلى السّيارة إلى الباي حسين [رحمه اللّه] أعطاه، والباي حسين ثابت في حطّه على جبل وسلات، ثبوت الجبال الراسيات، ولا تزلزلها الرياح العاصفة ولا تدكدكها الصواعق المحرقة [المخرقة]، القاصفة لا يخطر بباله خوف ولا يتململ ولا يتحرك ولا يتضمضم، صلاته في أوقاتها، وأوراده في تلاوتها، والشيخ سيدي (33) عبد القادر الكيلاني نفعنا اللّه به مقدّم هذه الكوكبة ومؤخرها إلى أن وصلت إليه سيارة بو عزيز فأعطوه الكتاب ففكّه وقراه، وعلم ما فيه ويجنبه ألقاه، وضحك وتعجّب وقال : يا للّه العجب، ما كان بيني وبين بو عزيز من الذنب، حتى أخذ رعيتي، وأنا مشغول بمصيبتي، فلا راقب الله ولا خافه، مما مليت به من الخطايا صحايفه، ولا خاف على نفسه من التلف، ولكن عفا اللّه عما سلف، وأنا صاحب العفو والصّفح، واللّه يعامل كلا بما فيه رشح (34)، وكل إناء بما فيه يرشح، اكتب يا كاتب جوابه، ولاتطوّل خطابه.

فكتب الأمر وامتثل له (35) وأخذ الطّابع وطبعه، وإلى السّيارة مده، ثمّ أمر الباي حسين رحمه اللّه خزنادار أن يعطي لكلّ واحد من السّيارة برنوسا وجبّة وزمالة (36) ودينارا ففرحوا بما أعطاهم، وبالزّيادة منّاهم، وزوّدهم، ورجعوا على طريقهم، حتى وصلوا إلى نجعهم، فوجدوا بو عزيز منتظرا إليهم وكل ويوم يترجّى قدومهم. فلما جلسوا بين يديه فرح بهم،

(33) زائدة في أ.
(34) رشح الجسد : عرق، ورشح الاناء : تحلّب منه الماء ونحوه.
(35) ص : فامتثل الأمر وكتب.
(36) زمالة : عمامة.
(37) قرآن : الحشر : 16، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

وبالسّلامة هناهم فأعطوه [143] الكتاب فقراه وعلم ما فيه من الجواب فقال : الحق مع الباي حسين [رحمه الله] والباطل معنا.

ومن غد خلت منه الدّيار، وحطّ في القفار، وبعد وهرب من أولاد عمّار، فمثله كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر، فلمّا كفر قال إنّي بريء منك إنّي أخاف الله ربّ العالمين، فكان عاقبتهما (37) أي بو عزيز وأولاد عمار أنّ سلطانا ومحمد الصغير قتلا جميعا بباردو في ليلة خنقا والشيخ بو عزيز ركب على حصانه ومات جيفا كما سيجيء بيانه في محلّة إن شاء الله تعالى.

وكان ولي في تونس يعيّط في سوق التّرك ويقول : بالك الطمع ياضبع. ولما علمت أولاد عمّار ما فعل بو عزيز وما صدر منه أنفوا من ذلك وتبرّوا منه وقالوا : لعن الله ذا الوجهين، واللاّعب بالخاتمين، ومن قديم الزّمان هذا فعله والكلب العقور لا ينسى غدره، وهذا الفعل لا نقدر عليه ولا ناتيه، وليس هو من فعلنا ولا من شيمتنا ولا نفعل فعل الكلب الغدّار، ولما يلحقنا عليه من العار، ونحن أولاد عمار الأحرار، فتسامر سلطان ومحمد الصغير في ناديهم وأخذوا يتناظرون فيما يكمدون به بو عزيز ويقهرونه، وعن فعله يكافونه، فقالا : ما يبري هذه العلّة، ولا يسد هذه الفلة إلاّ أن نبعث لجبل وسلات [لعلي باشا يبعث إلينا ولده يونس وندوربه ونلتيم عليه ومن هذا المكان إلى جبل وسلات] إلى الكاف كله في حكمنا وتحت طاعتنا ومن لم يوافقنا نصيح عليه فناخذه وبسيف القهر نقتلوه، وهذا هو الرّأي الصحيح، والأمر الرجيح.

فلما اتّفق سلطان ومحمد الصغير على هذا الراي وصمّموا عليه أحضروا كاتبهم وأمراه أن يكتب كتابا للباشا علي بعد التّحميد

(38) أ وص : تظنن.

والتمجيد : أرسل إلينا ولدك يونس، وعجّل ولا تضنن (38) به علينا، ولا تبخل فإذا وصل إلينا وسمعت به الناس أنّه عندنا، فتهرع إليه النّاس من كل مكان، ونقاتل به الإنس والجان.

فلما وصلت إليه السّيارة اعطوه المكاتيب ففكّها وقراها واطلع على ما فيها ثم رماها إلى أحمد بن [144] متيشة فاطلع على المكاتيب، وكان قبل وصول المكاتيب بلغ الخبر إلى الباشا علي سامحه الله بانقلاب بو عزيز وبعثه إلى الباي حسين رحمه الله يطلب منه الشفاعة ويوعده أنّ هذا المكان من سرأط إلى قصر جابر إلى الكاف كلّه تحت طاعتك وأمرك ونهبك ما دمت حيا، وبلغه أيضا ما فعلته أولاد عمار من فراقهم لبو عزيز الغدّار، خوف العار، فلما قدمت عليه السّيارة بالمكاتيب وعلم ما فيها ورماها لأحمد بن متيشة اطلع عليها كما قدمنا آنفا، فقال له : يا أحمد ما رايك في فراق ولدي، وقطعة [من] كبدي ؟ فقال له : يا سيدي، ما عليه خوف ولاباس، ومرادهم إذا أتاهم يونس تجتمع عليهم النّاس، أولي الشدّة والباس، فيصيرون في ذلك المكان بو عزيز بعصوص وهم الراس.

وكان قبل هذا البعوث انحلّت الحزمة، في أهل جبل وسلات وتفرّقت بينهم الكلمة، وقلت في ديارهم الحبوب، وكثيرا ما صاروا يأكلون حصايد الحروب، وملت أهل الجبل من الحصر والنّفاق ودار الكلام بينهم في الغالب كل محصور، متّاخذ مقهور، ولو طال ورأى الباشا علي من الذين هم راس الجبل وأوسطهم أولاد مانس لما طال عليهم الأمر وضاقوا من الحصر الخيانة، وغدر الأمانة، وتحقق عنده أنّهم كاتبوا الباي حسين وهو نازل قريبا منهم بالمكان المسمى بالقطرانية، فبقي في أمره حاير ويفكّر ويدبر في الأمر الذي إليه [صاير] إلى أن دخلت عليه مكاتيب أولاد

(39) قرآن : ابراهيم :11.

عمار فوجدها مندوحة فعزم وصمّم على إرسال ولده يونس مع من يعتمد عليه وأمرهم إذا بلّغوه إلى أولاد عمار أن يرجعوا إليه وكتب مع ولده يونس [رحمه الله] مكاتيب إلى أولاد عمار : قد ورد علينا مكاتيبكم، وعلمنا خطابكم، وقد اسعفتكم على مطلوبكم وبلّغتكم مرادكم بارسال يونس ولدي، وقطعة من كبدي، وهو أمانة الله عندكم [145] فاصنعوا ما أنتم معه صانعون، «وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون» (39) والعهدة على الناقل إلينا هذا الكلام، فإن قدّم أو أخر فما علينا ملام، والخبر من حيث هو خبر، يحتمل الصدق والتغيّر.

(40) في ص بعد عليه : وشعيه ولعلها : وشيعه.

ذكر قدوم يونس إلى أولاد عمار :

ولما جهّز الباشا علي [سامحه الله] ابنه يونس [رحمه الله] وتمّ جهازه، وركب معه من يعتمد عليه (40)، ولمّا فارقه ضمّه إلى صدره وبكى وعزّ عليه فراقه وشكا وبكى الولد يونس وهو إذ ذاك قد قارب البلوغ خايفا ممّا هو في الغيوب، وفراق والده المحبوب، فقال له : سر يا ولدي في حفظ الله، وأنت وديعة عند الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وغاب كلّ عن حبيبه، والمسافة بعّدت كل قريب من قريبه.

ولمّا غاب يونس رحمه الله [عن الأعيان] رجع الباشا علي [سامحه الله] إلى مقرّه ومكانه فجمع الأحباب والخلان وتمّ يونس ومن معه سايرين وإلى نجع أولاد عمار قاصدين، وجدّوا في السّير، خوفا أن يفطن بهم الغير، وسبقت إلى أولاد عمار السّيّارة، طالبين منهم البشارة، على قدوم يونس أولي الحضارة، فلمّا بلغوا إليهم، وبالسّلامة هنّوهم، أخبروهم بقدوم يونس عليهم، واعطونا البشارة فها هو غدا قادم إليكم فقوموا أخبروا الأجواد (41) ومزارقيتكم، وجمّعوا جموعكم واضربوا طبلكم حتى يجتمع عليكم قريبكم وبعيدكم، واركبوا خيلكم وفزّعوا رجالكم واعرضوا الدخيل عليكم واكرموا من هو قاصدكم ومنتصر بكم، وراعوا الباشا علي فيمن سلّمه في أيديكم، وجعله أمانة الله عندكم، وأظنّ أنّ الباشا علي إذا نصره الله يجازيكم، وبالحديد الماضي أو الحبل يكافيكم. فلما سمعوا [146] من السّيّارة هذا الكلام أخبروا الأجواد فاجتمعوا كلّهم، وركبوا خيلهم، وتعلّمت فرسانهم ولبس الحروج أبطالهم وساروا وضربوا طبلهم، وركضوا خيولهم، وتنغّم بارودهم ولمعت رماحهم وحطوها على أكتافهم، وتقدّمت فرسانهم وتأخّر رجلهم وجدّوا في السّير إلى أن لاح لهم غبار من

(41) اي الفرسان.
(42) الوكس : الكساد.

تحت شعاع الشّمس فعلموا أنّه غبار يونس فركضوا إليه ونزلوا وقبلوا يديه، وقالوا : أهلا وسهلا ومرحبا نفدوك بالكبير والصغير منا ومن حبا.

ورجعوا معه سايرين وإلى نجعهم قاصدين، إلى أن بلغوا النجع، فقدّمت العجايز أولات الهلع، يزغرتو لأجل الطمع، وهيّوا له خيمة [حمرا]، وفراشا وزرابي داروا بها حضرا فنزل يونس من على فرسه ونزلوا معه أصحابه الذين بعث الباشا علي معه وجلسوا في ذلك المجلس، وارتفع عنهم الوكس [42]، وفزعوا إليهم بالقصاع فوق رؤوس الوصفان، ملآنة بالخرفان، وحطّوهم بين أيدي الضيفان، فأكلوا واكتفوا حتى نادوا يا جيعان. ثم لما فرغوا من الضّيافة بعثوا إلى الشيخ بو عزيز وأخبروه بقدوم يونس إليهم، وأنت أخبرنا بما عندك وما المعول عليه ؟ فبعث إليهم وأخبرهم أنّه معهم ومنهم وإليهم. وفي ذلك الحين جهّز ولده وأمره أن يركب فرسه ويتفقّد حاله وأمر بعض المزارقية أن يسيروا مع ولده راكبين الخيل، مستخفين بالليل، وساروا قاصدين الباي حسين [رحمه الله] وهو نازل قريبا من جبل وسلات فما شعر إلاّ بالخيل دهمته، وبالخبر الواقع قصدته، فأمر بنزولهم وإكرامهم وأعطوه المكاتيب، فعلم ما فيهم فعندها بعث إلى القيروان أن يطلقوا إحدى وعشرين مدفعا على قدوم ولد بو عزيز. ولمّا سمع الباشا علي صوت المدفع يترنّم [147] أمر الباشا علي أن يعمّروا المدفع الذي تركوه، وببورحّال خلّوه، أن يجاوبهم بإحدى وعشرين مرة مثلهم نكاية لهم، وهذا مدفعكم، وبه نرميكم.

ولما اطلع الباي حسين [سامحه الله] على ما في المكاتيب وخاف على قرية الكاف ومن يليها أن ياخذوها [43]، ولما سمعت أهل الكاف بقدوم يونس وأنّه عند أولاد عمار مالوا إليه، وأرادوا أن ينافقوا به. فأوّل

(43) أ : قرية الكاف أن يأخذوها هي ومن يليها.
(44) أن يفتنوا : أن يحاربوا أهل وسلات ويهجموا عليهم .

ما عيّن الباي حسين محلّة صغيرة مقدار عشرة أخبية أو أكثر وجعل أمرها وحكمها إلى كاهية صبايحية الباجية مسعود كاهية، وأرسل معه بعض الخاصّة وساروا طالبين الكاف، هذا ما كان من خبر هؤلاء.

وأمّا الباي حسين فإنّه نبّه على عسكر زواوة أن يفتنوا [44] غدا أهل جبل وسلات وباتوا على هي، ولم يخطر نوم على عين من هو حي [45]. ولما طلع النّهار امتدّت صفّان من الترك وصفّان من زواوة وأمرهم الباي حسين أن ياتوهم من ناحية برج الشوك ويقاتلوهم، ولما حققت أهل وسلات ومن معهم أن لا مطمع فيمن ياتيهم هاربا أو أحد إليهم يفزع أمرهم الباشا علي أن يسدّوا ويدعموا بالحجر الثنايا السهلة والخنق الفسحة ويبنوا بنيانا وثيقا عالي، ويجعلون في وسط البنيان غناتر [46] قالوا ولما تموا هذا البنيان المتين صار أحصن من سد ذي القرنين [47]، فالذي يأتيهم من ناحية هذه السّدود للقتال، فيضربونه من تلك الغناتر فيخرج رصاصهم إلى صدور الرجال، فما يسمعون منهم مقال، ويطيحون على الأرض كأنهم تلال، والذي من داخل السدّ ما يصلحهم شيء من أهل القتال، ولمّا أتوهم من النّاحية التي أمرهم بها الباي حسين فيقاتلوهم، وتقدّمت سردان العسكر الشبان وعانوا المشقّة الشديدة في قرب ذلك المكان [148] الذي فيه البنيان [48]، فتارة الواحد منهم يمشي على صدره ويديه، وتارة يزحف على ركبتيه، فإذا راوا منهم الرّاس، ضربوهم بالرّصاص، فما يخطئون الصدر والعقاص [49]، فضربوا أشجع ما في الكوارغلية، ودمه فار، مصطفى بن قارة سافار، ولم تلد أخرى مثله ولا بقي ياتي نظيره، فحين

(45) ص : عين ساقطة.
(46) الغناتر : كوات تطلق منها القذائف.
(47) ذو القرنين : هو لقب الاسكندر الأكبر توفي سنة 323 ق م، هو مؤسس الاسكندرية، هزم الفرس واحتل بابل وسوس.
(48) ص : في قرب ذلك البنيان.
(49) ج عقيصة وهي الخصلة من الشعر لدى المرأة، ويعنى هنا الرأس.
(50) حصان المشك، شكّ الحصان : صفّحه بالحديد وهنا يعني الحصان الذي يحمل كيس الماء

على الأرض طاح، فكثر من عنده الصياح، وجروه من رجله إلى أن بعدوا عن ضرب الرصاص، ورفعوه على حصان المشك (50)، وخلصوه من هذا الموطن الضّنك، إلى أن أتوا به المحلّة وتركوه ورجعوا إلى إخوانهم وهم في أشدّ ما يكون من القتال، من الصّباح إلى بعد الزّوال (51)، وكثر فيهم الموت كورغلي وتركي وتازوت (52)، والذي يطيح منهم ففي الوقت من رجله يجرونه، فإذا بعدوا عن الرصاص على الحصان يرفعونه، وإلى المحلة يوصلونه، وفي الخباء يغطّونه، ويتركونه، ولمّا لم يبلغوا غرضا ممن يقاتل فيهم ورجعت الشمس وعادت قبالة وجوههم حالت بشعاعها بينهم وبين أعاديهم، وفتروا من الزحف ولا بقي منهم من ياقف، فبلغ الخبر إلى الباي حسين [رحمه الله] بأنّ العسكر مات وانظر. فبعث إليهم الحوانب أن كفوا عن القتال، وارجعوا إلى المحال، فرجعوا ينفضون من على رؤوسهم التراب، وما أحل بهم من المصايب فوجدوا إخوانهم مطروحين على الأرض، فما صلّى أحد منهم سنّة، ولا فرض.

ولمّا سمع الباي حسين بولد الحاج سافار أوّل من طاح، ودمه على الأرض ساح، فأمر أن يجعلوا له تابوتا ويحطّونه فيه، وإلى تونس يسيرون به إلى والده الحاج قارة سافار، فما شعر أبوه (53) إلاّ بدقّ باب الدار، فخرج فلما رأوه الحاملون له عزّوه في مصطفى وبكوا وشهقوا معه، فسقط ما بيده، وجلس على الأرض ما يدرى مابه، وسمعوا إخوانه [149] الاختيارات (54) وكثر الخاطر وأدخلوه إلى الدّار وقالوا : ماله في الدّار من مبات، والوالد داهش، مما أصابه مرتعش، ولا يدري على ولده

والمشك هو كيس يحمله البغل أو الجمل من كل جانب.

(51) لاحظ حدّة هذه المعارك وطولها.

(52) تازوت كذا، ولم أصل إلى فهم معناها، ولم تترجم في النّص الفرنسي.

(53) عن أ.

(54) الاختيارات : تابعو الدولاتلي.

(55) عن أ.

في الدّار أم في النعش. فأخذوا في جهازه وغسلوه وكفنوه، وعلى أكتاف المؤذنين رفعوه، وإلى الجلاّز في قبره دفنوه.

وأمّا الموتى الذين حضر أجلهم، وأتوا بهم إلى الأخبية وطرحوهم، أمر الباي حسين بغسلهم وأعطاهم الأكفان من عنده ففيهم كفنوهم، وجعلوا مقبرة في ساحة محلّتهم، وصار كلّ من يتعدّى عليهم يترحّم عليهم، والفواتح تقرا لهم من إخوانهم. وأمّا الباي حسين فإنّه جهّز ولد بوعزيز وأعطاه المال حتى أغناه وكذلك أمر خزنادار أن يكسي جميع (55) من جاء معه ويعطيهم السلطاني كلّ ذي قدر قدره، وسرّحه إلى أبيه وأمر الحوانب أن يشيعوه إلى مامنه ويرجعوا من تشييعه.

وقد قدمنا أن المحلّة سارت حتّى وصلت إلى الكاف فخرجوا إليهم وهنّوهم بالسّلامة، وفي الحين أقبلت من عند أهل الكاف القصاع بالعصيدة وحطّوها بين أيدي الرؤوس التي في المحلّة فأكلوا حتّى اكتفوا وما علموا بالمصيبة. فلمّا فرغوا من الأكل وغسلوا أيديهم وجلسوا فما شعروا إلاّ بأجلاف أهل الكاف عليهم صدموا وأخذوا في المحلّة فقاموا وقليلا من أهل المحلّة عدموا فما يصدّق الفارس أن يتمكّن على سرجه فيلقيه على فرسه ويركب وهو مما حل به هارب، ولا يدري على نفسه حاضر هو أم غايب، فما يصدّق بأنّه نجا من الموت والمصايب، وتفرّقوا أيادي سبا وتمزقوا [كل ممزق وتفرقوا] على كل ثنيّة أشتاتا، فنحن في بلد باجة ساكنون، وفي ديارنا جالسون، وإذا بالنّاس هرعت من كل مكان واجتمعت باهتة وإذا بالفارس مسعود كاهية [150] داخل البلد، وإلى داره قصد، ودخل داره وأغلق عليه بابه. وكان عندنا ببلد باجة بولكباش آغة اسمه محمد مدلجي في يده مفاتيح البرج وهو تحت حكمه ونظره،

(56) كرات المدائع.

ليس فيه شيء من العدة ولا بارود ولا كور [56] ولا مكحلة إلاّ ثلاثة مدافع يطلقونهم في الأعياد، ويطلقون واحدا ليلة الصيام، وواحد عند خروج [شهر] رمضان. وليس في هذا البرج أحد إلاّ الحرّاس لمن هو مسجون في حبس البلد. وكان رجلا تركي عجمي مغفلق [57] [عمي] فحين سمع بقدوم مسعود كاهية والنّاس في أمره شاخصة لاهية، جرى جريا عنيفا وقصد البرج يحثّ حثيثا وأغلق أبواب البرج وحده ثم عمّر المدافع بما بقي من البارود عنده وأطلق المدافع الثلاثة وصار ينظر من فوق حيطان البرج ما له راحة، فصار النّاس من فعله يتعجّبون، ويضحكون، وينادونه من تحت الحايط وعليه يصرخون، فيجيبهم : أنتم غدارون، ما تريدون فأجابوه : يا باب محمد فما بعد تسريح هذه الثلاثة مدافع ؟ هل عندك خزنة أو طعام لمن عندك يدافع ؟

فهذا ما جرى منه حين دخول البلد مسعود كاهية وحصر نفسه إلى آخر النهار. فلما [جاء] فتح الباب وخرج، وإلى داره درج ولمّا ارتاح مسعود كاهية صار يلبس عدّته وأولاده وأتباعه ويدور في اللّيل في البلد حتى يعيا من الرصد، ولا يعرضه أحد، فيرجع إلى داره بمن معه من التباع والولد، وجميع من بعثه الباي حسين [رحمه الله] لم يرجع إليه أحد، حتّى أتاه الخبر، من حيث لا يشعر.

(57) مغفلق : مهدد بمصيبة أو وقعت عليه كارثة (عن ملحق القواميس لدوزي).
(58) بودرياس : من ولاية القصرين الشمالية، معتمدية فوسانة.

ذكر واقعة بودرياس، وما أصاب أهل المحلّة من الباس، من أولاد عمار ويونس :

[151] ولمّا وصل خبر محلّة مسعود كاهية، وما أصابهم من أهل الكاف البادية، بعث إلى شيخ دريد عمارة بن دالية، فأتاه وأمره بالطّاعة تلقّاه، وحضر عنده ودخل وطاقه وجمّع الكواهي والأغوات، وشاورهم هل يقيم أو يرحل عن جبل وسلات، فأجابوه : رحولك في هذا الوقت ليس بصايب. وجهزّ محلّة كلها خيلا من دريد وعمارة بن دالية رئيسهم، وصبايحية الكافية وشواشهم وآغتهم وكاهيتهم يسيرون إلى أن يصلوا قريبا من أولاد عمّار ويناظرونهم ويقفون في عين العدو ويحرسونهم ولا يقاتلونهم بل يحرزوا رعيتهم ووطنهم حتى يقلقوا أولاد عمّار ومن معهم فيرحلوا إلى تلّهم وبلادهم ويبعثون يونس إلى أبيه علي باشا [رحمه الله] ويعود كيدهم في نحرهم، وها هو الشيخ بو عزيز خذلهم، وجهّزهم الباي حسين [رحمه الله] المحلّة وعيّن لها عمارة بن دالية شيخ بني رزق، وبعث من الأغوات مصطفى كرونة وآغة الكاف وكاهيتهم وشواشهم ووجق صبايحية الكافية بأسرهم، ووصل الخبر إلى أولاد عمّار بالمحلّة القادمة إليهم وفيها فلان وفلان [وفلان]، ودريد كلهم فرسان شجعان مختارة. فلمّا سمعوا أولاد عمار بهؤلاء الرؤوس قادمين إليهم فرحوا فرحا كثيرا، وقالوا : من فاتته هذه الغنيمة، فلا بقي يربح ديمة.

ورحلت المحلّة كلّها خيل من عند الباي حسين [رحمه الله] ولازالت سايرة إلى أن وصلت إلى هذا المكان الذي يقال له بودرياس [58]، ونزلت مناظرة لأولاد عمار، وجعلت المحلّة قارة غول [59] يدور في اللّيل والنهار، واتخذوا ظهر الشيخ بو عزيز الغدّار، وهذا كطاير الليل إذا جاءه الطير

(59) قارة غول : رجل قوي.
(60) لبود الجياد : صدورها.

يقول لهم : أنا منكم ويوريهم الأجنحة، وإذا جاءه الذيب يقول له : أنا من جنسكم ويوريه أسنانه وبزازيله. هذا حاله مع البايات والأمراء وغيرهم حتى جاءه صاحبه فركّبه [152] حصانه.

وأمّا أولاد عمّار لما رأوا المحلّة نزلت اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن لا يصل أحد إليهم ولا يقربهم ولا يحاربهم، وامكثوا في تجمعكم ولابد لهم من شراهة ولهم أولاد صغار سفهاء نزاهة، فيركبوا ويكثروا من الفزوع إلى ساحتنا فلا يخرج إليهم أحد من فرساننا واتركوهم وسرحنا، فلا رفعوا شيئا من الغنم أو المعز فلا تركبوا ولا تلحقوهم ولا تحاربوهم، فإذا راوا منّا عدم اللّحوق لفكّ سرحنا تخيّل في عقولهم أنّنا عنهم جبنا، وجدّ عليهم أنّنا عن قتالهم ضعفنا، فعندها تختلف كلمتهم فالعاقل منهم يقول : الحذر الحذر، وأولاد عمّار أهل خديعةو مكر، ولم يعرف لهم كسر. وأمّا الصّغير منهم إذا سمع هذا الكلام يأنف منه ويغضب ويقول لقايل هذا الكلام : أنتم ما حضرتم ولا عليكم ملام، وراس الباي إن شيتم ندخل تجمعهم وبالرّصاص نضربهم ونرجع إليكم، فإذا اطمانوا وانحلت خدمتهم ومع هذا فهم مجمّعون من كل خليط، لا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يدري أحد على أحد، فباتوا على هذا الرأي وطمّنوهم، وبينهم وبين السرح تركوهم، فغفلت أهل المحلّة وتيقّن عندهم أن أولاد عمار في قلّة، فما فطنوا أهل المحلة إلاّ عند الفجر والفرسان دارت بهم من كل مكان والرّجل منهم صدم وسط العربان، فما تسمع من فرسان دريد إلاّ عبّود عبّود، واستعجلوا عن تحزيم اللبود [60]، وأما صبايحية الكافية فلا تسمّ إلاّ الكاف الكاف، فركب عمارة بن داليتوهز رمحه فضربوه فطاح إلى الأرض وطلعت روحه فهربت عليه أحبابه وخدامه وقيل مات في هذه الخطرة الحاج علي السيليني شاوش

(61) الأبلق : الفرس الأبلق الذي ارتفع تحجيله إلى فخذيه.

صبايحية [153] الكافية، ولحقوا [مصطفى] كرونة آغة صبايحية الباجية وداروا به، ومسك واحد من فرسان أولاد عمار عنان حصانه وكان راكبا على أبلق، وفي المثل : «ياتيك راكبا على أبلق [61] إذا طرد لحق، وإذا طرد سبق». وكان عنده في التماق [62] أو الجزمة فرخة صغيرة مدفونة، فمدّ يده إليها من غير أن يراه أحد وضرب بها ماسك العنان فطاح على الأرض ممتد، وفسخ العنان، ونبش الحصان، فجرى كأنّه السّرحان [63] فنبذوه وعضّوا فيه فغاب عن الأعيان، وتفرّقت قوم المحلّة تفرّق أيادي سبا، أو حلّ في وسطهم طاعون أو وبا، وقتلوا قوم أولاد عمّار فرسانا متفرّقين، لم يسموهم لنا النّاقلون.

وأمّا صبايحية أهل الكاف فلمّا وصلوا، وإلى القرية دخلوا وكانت نارهم على النّفاق خامدة، ويقدّمون رجلا ويأخرون أخرى، حتّى وقفت هذه العبرى [64] فاجتمعوا ورنقطوا [65] وفي النّفاق أفرطوا، وما عليهم للباي حسين من نعمة وعول فرّطوا، وبعصيانهم لأولي الأمر لأعمالهم أحبطوا، وبأذيال قتلهم وحبسهم تشبّطوا، قال الله تعالى وهو أصدق القايلين : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا» [66] «وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» [67].

(62) التماق : نوع من الأحذية.
(63) السرحان : الذئب.
(64) العبرى : العابرة، المارة.
(65) رنقط : يقال مرنقط : فيه ألوان مختلفة.
(66) قرآن : الإسراء 16.
(67) قرآن : هود 117.
(68) قرآن : البقرة 171.

ذكر نفاق أهل قرية الكاف، وما حلّ بهم من القتل والأسر والإرجاف :

وفي المثل تربي الكاف من الجوادر كما تربي أهل قسنطينة من الأبغال. ولما وصلهم خبر أخذ المحلّة قاموا [154] واجتمعوا وهرقلوا، وجهروا بكلمة النّفاق وصهلوا، وطلعوا إلى البرجين وعلى النّفاق عوّلوا، وجرى لهم ما جرى لبولكباش آغة برج بلد باجة باب محمد مدلجي كما قدّمنا قريبا، وليس في البرجين خزنة ولا خزين، ولا ذخيرة ولا ذخر ولا عوين، ولا مقاتلة ولا مكحلة ولا سكين، سوى الأبواب مجلّدة بالحديد، والماجل بالماء الجميد، فلما رأى بعض عقلايهم طلع إليهم، ونذر عليهم، وقال لهم : فعلكم هذا ليس بحميد، وما يفعل فعلكم هذا إلاّ [كلّ] غبي جلميد، بماذا تنافقون وعلى من تعتمدون وعليه تقاتلون ؟ يونس لم ياتيكم، وعلي باشا بعيد عليكم، مالكم ولشيء لم تقدروا عليه، ولا هو من شانكم ولا تنسبون إليه، وأظنّ والله أعلم أنّ آجال رجال منكم قد حضرت، ورجلين آخرين في الأكبال مدّت وقيّدت، «صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون» (68) «فإنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدّعاء إذا ولّوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إنْ تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (69).

واشتهر نفاق أهل الكاف، وما وقع وسبق الخبر إلى علي باشا [سامحه الله] بجبل وسلات فأمر بتسريح المدفع، مدفع بعد مدفع، إلى أن سمعت أهل المحال ومن كان في الصيد إلى المحلّة رجع، واجتمعت النّاس وكلّ منهم إلى رحله فزع، وسمع الباي حسين سامحه الله ولكن لم يصل إليه خبر صحيح، ولا من أتاه من هذه المحلّة بقتيل أو جريح، فهو في هذه

(69) قرآن : النمل 81-80.
(70) قوش : شدّ حزام السرج على الدابة، أي الرحيل.

الحال، وإذا ببعض الفرسان داخل المحال، ولازال يسير إلى أن وصل الوطاق فدخل وأخبر الباي حسين أنّ أهل الكاف قد قاموا النفاق فسقط ما بيده وحوقل وترجّع، ومن هذا الخبر الفضيع توجّع، وفي تلك الساعة نادى إلى طراد [155] بن قيزان وعيّن معه من الحوانب فرسان، وأرسله إلى الكاف، وهذا طراد بن قيزان من أكابر جماعة أهل الكاف، وإليه المرجع في كل أمر مهول مخاف، فركب طراد بن قيزان الخيل، ودخل اللّيل، وليس له راحة ولا مقيل.

وأمّا الباي حسين [رحمه الله] قد تحقق عنده أنّ العساكر من طول هذه الفتنة ملّت وعيت، وأرباب الخيل كثيرها من الحصر تغيّبت، والإبل والخيل أكثرها ماتت وفنت، هذا ولم يدرك الرعيّة، رحمه الله ولم يرم عليهم رمية، فصاب للرحيل مندوحة، ونزعة مشروحة، وشاور أصحابه في القلع والرحيل، فما صدقوا وقالوا له : هذا صواب لا يحتاج إلى دليل. فعندها بعث آغة العسكر أن يامر الشّاوش ويخبر بالرحيل غدا إن شاء الله أو بعد غد من غير حصر. فحملوا أثقالكم وحضروا أحمالكم، وها هي الإبل وردت عليكم فافقدوا حواياها، وبرادع الخيل دكّوا حواياها.

فلمّا سمع العسكر هذا التنذير، كأنّهم جاءهم بالخير بشير، فأسرعوا في تخميل أثقالهم، وجمعهم لحوايجهم ومونتهم، وباتوا على ترحال، وانشرح منهم البال، وخلاصهم من القتل والقتال، وفي عشية غد وردت الجمال، ونبه الشواش في العشية : صباحا قوش (70) وسمعت بالرّحيل الوسالتية ففرحوا وقالوا : أراحنا الله من هذه البلية، والمصيبة العظمى المرزية. وكان فيهم بعض العارفين من الرّجال الكبار الذين حضروا في السّابق للخطرات، فلما سمع كلامهم ورأى فرحهم هزّ رأسه وقال لهم : رويدا الآن برحيلهم اندكّ وخلى جبل وسلات، ولا يفوتكم من القتل

(71) الزرنان : الموسيقى العسكرية.

والأسر والخطايا وكشف الحريم [وبيع البنات]، وكشف حال المخدرات، وهذا ما قدّره الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ولمّا بان الفجر ولاح، وطلعت الشمس من بعده فاضاءت البطاح، قامت من العساكر الرّجال، ورفعت على الإبل الأحمال، [156] وحملت على الخيل الأخبية وماله بال، ولمّا فرغوا من شؤونهم، تحزّموا بعددهم وعمروا [بالرّصاص] مكاحلهم، ووقفوا قدما لا يزيد على قدم، وامتدّت الصفوف من الأمم، وركب الباي حسين سامحه الله وركبت أولاده الأمجد الباي محمد سامحه الله، وصاحب القدر العلي الباي علي، وفارس الجنود، الباي محمود [رحمه الله] وركبت خواصه وإمامه، وقاضيه ومماليكه وحوانبه وخدّامه، وداروا بالباي حسين دور الخاتم بالإصبع، وأحاطوا به من كلّ جهة ومن كل مطلع، ووقف ووقفت القومان وزعق النفير وضربت الطّبول وترنّمت الزرنان (71) ولازال الباي حسين، والعساكر واقفين، حتى ساق كل دوّاج (72) إبله وكلّ سقاء ملا مشكّه وكلّ طبّاخ رفع نحاسه، وكل خباء مسك حصانه وتقدّم الحملاجي على راسه سنجقه، وسارت المراحيل حتى غابت عن أعين النّاظرين، ووقف الباي حسين والعسكر على المقبر الذي ماتوا من العسكر ومدّت الأيادي وترّحموا عليهم وقريت الفواتح وللموتى أهداهم، ثم سار ومشت العساكر وأخذوا ثنية الكاف، إلى أهل الشّقاق والخلاف (73).

وأما طراد بن قيزان فتمّ في سيره ليله ونهاره حتى بلغ إلى المغاسل، بعث من قبله سيّار راجل وقال له : بالجري عجّل حتى تدخل الكاف، وما عليك مخاف، وادخل على بني عمي وجماعتي، وأهلي وقبيلتي، واخبرهم

(72) الدواج أو الداجة : تباع العسكر.
(73) أ : أهل الشقاق إلى أهل النفاق.
(74) ص : اكتاف رجلهم.

بقدومي وأنا في المغاسل يعرضوني فارس وراجل، فأسرع الرجل ومضى يهرول حتى دخل قرية الكاف وبلغ إلى جماعة طراد بن قيزان الخبر، وفي الحين قدوم طراد بن قيزان في الكاف اشتهر، فركب الفارس من جماعته وقبيلته وشهروا عددهم والمكاحل على أكتافهم (74) وخرجوا وقصدوا المغاسل، فلما وصلوه سلموا عليه فارس وراجل، ثم ركبوا وتقدموا قدامه وخلفه ويمينه وشماله حتى دخلوا الكاف ووصلوا إلى ديارهم ونزلوا ونزل [157] طراد بن قيزان ودخل داره واجتمعوا عليه، وفي الحين حضرت قصاع النعمة بين يديه فأكل وأكل من معه من الفرسان وغسلوا أيديهم وأخذوا يتحدّثون في أمر [هذا] النّفاق، والخلاف والشقاق فقالوا له : نحن بريؤون من هذا الخذلان، والأمر الذي يحصل في دماغه الجان، وما هذا الاّ فعل الرعيان، فلان وفلان، قوم الضلال والخسران، وما عسى أن يكون منهم، ولكن حضرت آجالهم، وفارت دماؤهم، وبالحديد تقطع رقابهم، وبالأغلال تقيّد أيديهم وأرجلهم، وهذا أمر قدّره الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، فقال طراد بن قيزان لجماعته : دبّروا كيف يكون الحال، من غير قتال، فاتفقوا على أمر بينهم، وبعثوا لمن في البرجين من الرّجال من بني عمّهم، فلما وصلوا نادوا عليهم، وكان قد سقط ما بأيديهم وندموا على فعلهم، وعضّوا على أناملهم، فأجابوهم وفتحوا لهم الأبواب ودخلوا وبعثوا إلى طراد بن قيزان فأتاهم وأوصى أولاد عمّه وجماعته : إذا دخلت الأبراج فكونوا على حذر، وواحد منكم لا يغتر، وادخلوا بعدي واحد بعد واحد، ودوروا بي وبأيديكم العدد حتى تخدعوا بالكلام والوعد.

ولما جلس قال : لا عليكم باس، ولا خوف وأنا ضمن لكم من كل شيء تكرهونه ومن كل أمر تقرؤون ضرره، فانحلّت بينهم الحزمة وارتخفت عليهم العقدة، فما وسعهم إلاّ الامتثال، واعطوا مفاتح الأقفال،

(75) قرآن : المائدة 33.

وصوّبوا إلى الأولاد والعيال، وتمكّن طراد بن قيزان وبنو عمّه وجماعته على البرجين، وفي الحين ركب البشير إلى الباي حسين، يخبره ويهنيه بفتح الحصنين، وأنت على ما تامرني به أنا وجماعتي، وإن قدمت بنفسك فهو أحسن إلى الفريقين، فركب الفارس وسار، وفي الباي حسين رحمه الله يفارس حتّى تلقاه في الثنية فرجع وسار إلى أن نزلت المحال ودخل الباي حسين وطاقه فأخذ منه [158] الإذن فأذن له فدخل وبشّره بفتح الكاف وأعطاه كتاب طراد بن قيزان ففكّه وقراه، وعلم ما فيه وإلى جنبه ألقاه، وأمر للفارس بشيء من عند خزنادار، فذهب إليه فمدّ إليه ما يرضيه ولازال الباي حسين يطوي المراحل، وينزل المنازل حتى وصل إلى قرية الكاف وأهلها في أشد ما يكون من الخوف فنزلت المحال، فمليت تلك التلال، صارت أهل الكاف تغيب في الأولاد والعيال.

وكان قبل قدومه اجتمع طراد بن قيزان هو وجماعته وقال : لابدّ أن تخبروني بكلّ حقيقة ودقيقة، من أشعل هذه الحريقة، واكتبوا لي من أثار هذه الفتنة ومن وقف على ساق الجدّ في هذه الخطرة، فإذا قدم الباي حسين وسألني عن أصحاب هذا النفاق، يكون الزّمام عندي حاضرا فيه أسماء أهل الشّقاق، فصوّبوا قوله وأتوا بالكاغظ وكتبوا له وساروا يسمّون للكاتب وهو يكتب فيمن حضر ومن تغيّب، ومن أراد النّفاق ومن أبى العيب، حتى كتبوا جماعة كثيرة تبلغ المّاية وبدّلوا وغيروا حتى استووا على كلمة واحدة فكتبوهم في كاغظ آخر من غير معاودة. ولما اجتمع طراد بن قيزان والباي حسين [رحمه الله] واستخلى به وتكلّم معه وسأله عن أصحاب هذا النّفاق، ومن هو الذي فيه صاحب جدّ وواقف على ساق الشقاق، فاعطاه الزّمام فلما قراه الباي حسين وعاود نظره فيه قال له : يا طراد هل رميت أحدا بما ليس فيه أنت المقلّد وأنا بريئ منه. فأجابه طراد وقال له : يا سلطان، لو كتبنا ما سمعنا وبه خبرنا لم يبق أحد من أهل الكاف لكن والله ما كتبنا إلاّ من أظهر نفسه وشهر الخلاف، وتقلّد سيف البغي ولم يقرا عقوبتك ولا خاف، قال الله تعالى : «إنّما جزاء

الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم [159] وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض» (75)، وهؤلاء الأجلاف قد عصوا السلطان وسعوا في الأرض فسادا فما لهم إلاّ السيف، ودمهم في عنقي. فعندها عاود الباي حسين النّظر في الزّمام وعيّن للموت قيل خمسا وثلاثين وقيل أقل [وقيل أكثر وعيّن للرباط والسجن سنتين وقيل أكثر وقيل أقل] باختلاف الروايات، وفي الحين أرسل المماليك والحوانب مع أصحاب طراد بن قيزان إلى القرية وصاروا يمسكون من في الزّمام أسماؤهم ومن هرب لحقوه وشدّوه، ومن تغيّب طلّعوه، ومن دخل زاوية أخرجوه، ومن لاذ بأحد أخذوه، حتى جمعوا العدد المتقدّم وأتوا بهم إلى المحال، والذي تعينوا للقتال أوقفوهم في باش شاطر (76) الترك حتى جاء الإذن للعسكر : اقطعوا رؤوسهم. فجرت إليهم الشبّان وقطّعوا رؤوسهم، وقالوا : هذا جزاء من يعصي السلطان، وأحرى حسين باي أهل العدل والإحسان، وبقت جيفهم على الأرض مطروحة، ودماؤهم في التّراب مسفوحة فأخذوا عليهم الإذن أهلهم فأذن لهم في رفوعهم، فرفعوهم وغسلوهم وكفنوهم، [وفي القبور دفنوهم].

وأمّا الذين ألقاهم في السّلاسل والأغلال، فعيّن لهم كرارط فالقوهم فيها وسارت بهم الخيل والبغال، وعيّن معهم حوانب وسارت معهم الرّجال، إلى أن بلغوا إلى باردو والقوهم في الزّندالة (77) هذا ما كان في رجال أهل الكاف، أولي البغي والخلاف. ولمّا جاء الليل وجلس الأمير حسين مع خواصه وأصحابه للمسامرة، وخاضوا في الحديث والمناظرة، حتى وصلوا إلى واقعة أهل الكاف وصار كل واحد من أصحابه ينفق ما في جيبه من المفاكهة والألطاف، والأمير حسين سامحه الله ساكت متفكرا

(76) باش شاطر : رئيس الجلادين.
(77) الزندالة : سجن باردو.
(78) أولي الأربعة : يعني بها الفئران.

إلى أن رفع راسه إليهم وقال لهم : هل توافقوني على ما يبالي خطر ؟ فقالوا له : سمعا وطاعة، [160] نحن تحت النّهي والأمر. قال لهم : مهما بقي هذان البرجان واقفان لازال ينالنا منهما الضرر، وأي ضرر. والذين من بعدنا إلى آخر الدهر. فقالوا له : يا سلطان أنت أوسع منّا نظر، وبملكك ورعيتك أخبر، فافعل ما يبالك خطر. فقال لهم : إنّي أريد أن أتسوّر هذين البرجين وأرفع منهما المدافع وأخليهما من الخزنة والخزين، واتركهما فارغين مسكنا لأولي الاربعة (78) ونزلا لأصحاب الجناحين. فلما قال هذا الكلام، وأتمّ هذا النّظام، قام كل منهم وارتفع الستار، وخلا المجلس، ورقد كل منهم يريد النّوم والنّعس، ولما طلع النّهار، وتجاوبت الأطيار وتراءت الأبصار، قام كلّ مصلّي، وإلى القرآن متلي، حتى قضوا ما عليهم، ثم التهوا بشؤونهم.

ولمّا قضى الباي حسين ما عليه من الفرض، [قام] ووقف على الأرض، وأذن في الدخول عليه للمماليك وباش حانبة قال لهم : اصعدوا إلى هذه القرية. واجمعوا أصحاب (79) المعرفة وكل بنّاي وصاحب هندسة واحضروا لهم المعاول والفؤوس، وآمرهم أن يهدموا عالي هذا البرج المنحوس، قد طالما وقع فيه من البوس، وكثيرا ما قطعت فيه الرؤوس، فأريحوا منه كل منجوس، ومقاطع، وارموا منه المدافع، واتركوه خاليا بلاقع، واقطعوا أمل من في السلطنة طامع، وممن هو في المملكة منازع، ولا يبقى له صاعد ولا طالع.

فامتثلوا أمر الباي حسين رحمه الله وقال لهم : اعزموا بهدمه وتوكّلوا على الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، اللّهمّ اتعب من أتعبنا، واشق من أشقانا، وبعد الراحة أشغلنا وألهانا إنّك سميع الدعاء، إنّك قريب مجيب.

(79) ص : صاحب.



محمد الرشيد باي بن حسين باي

ذكر توجيه الولد الأمجد، الباي محمد، مع محلّة التّرك وكاهية الباجية، إلى خلاص مجابي الرعية :

[161] ولما حضر وقت خلاص مجبى الرّعية، ورأى الباي حسين أنّه مشغول بهذه القضيّة، أمر ولده محمد وعيّن معه مسعود كاهية ياتيه من باجة ومن هو باقي عنده من شواش وصبايحية، بأن يجتمعوا على ولده ويسيرون معه، ثم بعث لآغة العسكر وقال له : آمر الشاوش أن ينذر بعد غد قوش، فامتثلوا الأمر وجهّزوا العسكر وجهز ولده محمد وأفرد له من وطقه طبّالة ونفارة وزكّارة وعلامات ورايات وعرضهم على عينه وأمرهم أن يدخلوا محلّة ولده، زاده على ماعنده، ورحلت محلّة التّرك من دارها الملاصقة وانفرزت وأتى محمد باي إلى والده ووصّاه بالرفق بالرّعيّة، وبالأحكام المرضية.

ولما طلع النّهار شدّوا على الإبل الأحمال، وتحزّمت الرّجال، ووقفت الصّفوف حتّى ركب الأمير حسين وركب ولده وسارا وشيّعه، وبفعل الخير أمره، وأمره أن يسير فسار ودخل العسكر وردّ السّلام وسبق واجتمعت عليه القوم وصار يطوي المراحل، ويقصّر المنازل إلى أن وصل إلى عيون التوامي وأقام فيها أياما حتى خلصت الرعية ممّا عليهم من الحال والرمية، ثم تقدّم إلى جبل الشيحية ونزل قريبا منه، وكان خلاّصهم وصاحبهم مسعود بوحلوفة شاوش. فلما سمعوا بالمحلّة نزلت وراوا الوطاق، أشاعوا النفاق، وصعدوا إلى أعالي جبلهم وركبوا فرسانهم واجتمعوا رجلهم واستعدّوا بعددهم ومكاحلهم. فلما سمع صاحبهم مسعود بوحلوفة خلاّصهم ركب فرسه وصعد إليهم ونادى عليهم حتى اجتمعوا ثم تكلّم معهم، وبالقول الرّفق خاطبهم، وقال لهم : هذا [167] جزاء الباي حسين منكم، وكلّ خلاّص يمهل عليكم ويرفق بكم ويدينكم، فلمّا رايتموه مشغولا عاملتموه بالعصيان، وبقي يحكّ لهم في الذّروة

والغارب، حتّى رجع إليه كلّ هارب، وقالوا للشاوش : إن أردت أن تخلّص ممّا علينا من المجبة فاشتري من أموالنا وما عليك رهبة، وخذ من البقر والغنم والمعز والبهم عوضا عمّا عندنا من الدراهم، وأمّا المال فليس عندنا أردت أو كرهت أو قاتلتنا. فقال لهم : أمهلوا عليّ حتى نتكلّم مع الباي محمد (80) ، الذي يأمرني به نصعد. ففارقهم ورجع، وبالباي محمد اجتمع، وتكلّم معه في خلاص أهل الجبل وقال : إن لم تساعد هذه الكفّار، فلا يخلص لك دينار، وأنا تكلّمت معهم وخوّفتهم بَطْشَك وما معك من عسكرك فانقادوا لي وسمعوا لي كلامي، وقال : إن أردت خلاصنا فعوض الدراهم نبيعوا لك سعينا حتى تخلص من مجبانا، وأمّا دفع الدّراهم فلا يكسبها غنينا وأحرى فقيرنا وأنت على ما تامر به سيادتك، وأنا ما قصّرت في نصيحتك، وخلاص مالك. فقال له : قم إلى صباح غد إن شاء الله نأمرك بما يريد الله.

فلما جنّ اللّيل وجلس مع من بعثه والده الأمير حسين سامحه الله معه إذ رآه استعجل في أمر ربّصه للمسامرة فأخبره بما تكلّم به الشاوش بوحلّوفة وما يكون عليه [العمل] فقال له : نعم الرأي خذ عوض الدراهم سعيا، وأنت ترى حال الرعية في هذا العام، وكثيرا ما يحصل من هذا اللئام، وقام محمّد باي إلى فرشه ونام، إلى أن أصبح الصباح، فأتى بوحلّوفة إلى الوطاق راجيا من الباي الصلاح، فأخذ الإذن ودخل. ويده قبّل وقال له : يا سيّدي ماذا تأمرني به وما يكون عليه [163] عملي فقال له الأمجد الأمير محمد : قد حكمت، وأمري إليك طلّعت، واعمل على ما فيه : اقبل منهم السّعي ولا درهم تخلّيه ولا تطوّل عليّ المقام، في هذه الأوخام، فسر بسلام.

(80) أ : حسين.

فخرج من عنده بوحلوفة شاوش صبايحية [الباجية وطلع إلى جبل الشيحية وبعث إلى باجة يأتوه بالسلاجمية (81) فلما وصلوا إليه ركب هو] ومن معه وركب من الجبل مشايخه وساروا يشترون السلاجمية من أهل الشيحية، وبوحلّوفة يقبل منهم حتى خلّص ممّا عليهم وباقي عليهم بقية فعوّضوه الدّخان رمية، فجمع ما قبله، وإلى المحلّة أنزله، ثم أتى بوحلّوفة للباي محمد وبالخلاص بشّره وقال له : ابعث هذا الشعير إلى تونس يبيعونه، وما له إلى دار الباشا يدفعونه، فقم سيادتك وانظر فيه عسى أن يعجبك منه شيء، تنحيه. فقام الباي محمد وركب مركوبه وركبت معه خدّامه، فاختار منه ما أحب، وبه أعجب، وساقوا الباقي إلى تونس، وأتته مع بوحلوفة مشايخ الشيحية، طالبين عوايدهم السّنوية، فأعطاهم الجبايب الحمر والشوب والسّورية. ولما لم يبق له درهم ولا دينار، أمر الشاوش أن ينادي بالإنذار : غدا إن شاء الله راحلين من هذه الدّار، فاجتمع العسكر وباتوا على ترحال، ولما طلع النهار رحلت المحلة وسارت، وركب الباي محمد رحمه الله والقوم به دارت، ودخل وسط العسكر ورد السّلام، ثم سبّق قدامه الرايات وورا ءه الأعلام، وسبّق مسعود كاهية ينظر محلا تحطّ فيه المحلّة فأعجبه محطا قريب الخندقة فولّى وشاور الباي محمد عليه فسبقه بالوطاق والأخبية وقال له : انزل فيه. فوصل إليه وقام الوطاق ودارت به الأخبية دور الفلك بالآفاق ونزل الباي ثم عرض العسكر وولّى إلى وطاقه [164] وبه استقر. ولمّا أصبح الله بخير الصّباح رحل ودخل الخنقة، وتم سايرا حتى نزل قريبا من نفزة. ولما سمعت بقدوم المحلة أولاد صولة هربوا إلى عرش وشتاتة، مانعين بالنّتافة (82) وأعلنت وشتاتة بالعصيان فبعث إليهم الباي ينذر عليهم مرة بعد مرة، فما ازدادوا إلاّ

(81) السلاجمية : السلجم ويجمع على سلاجم : الطويل من الخيل ومن النصال ومن الرجال، والجمل المسنّ الشديد.
(82) النتافة : القليل الحاصل.

نفرة. وحين علم بهروبهم إلى داخل جبلهم عيّن من كل خباء خمسة من العسكر وركب معهم مسعود كاهية ومن هو بجبلهم وأوعاره أخبر، وخرجوا من المحلّة وساروا ومع وشتاتة تناظروا، اطلقوا عليهم الغارة وشدّوا شيخ أولاد صولة عبد الله بن العالية وقطعوا رأسه ورموا لحمه إلى الكلب أكله، وتفرّقت وشتاتة وتركوا بعض سعيهم فلمّوه الصبايحية ومسعود كاهية ووصلوه إلى المحلّة، وأذنوا فيه الباي محمد : ما تفعلوا به فاخبرنا. فأمرهم أن يوصلوه إلى باجة فساقوه، وكثيرا منه غيبوه، وفي السّوق باعوه. وخلص بعض المجبا من عرش نفزة وقليل سعي من عرش ماكنة. ورجع الباي محمد يرحل وينزل حتى نزل بباردو باجة ووصلت محلة الترك، و[قدام] باردو نزلت، وأقام بباردو أياما لتنفيذ الأحكام، وفصل الخصام، والقضاء بالصواب بين العباد حتى عمرت البلاد، ورجع من كان هاربا، وفي النّفاق راغبا، ولمّا خلص مجبته، وكملت صيفيته بعث لآغة العسكر أن يامر الشاوش أن ينذر : غدا إن شاء الله الرّحيل، فقضى كلّ أحد حاجته وباتوا على تخميل.

ولما طلع النهار، ونطقت الأطيار، حملوا أثقالهم وعلى الإبل حطّوهم، وزعق النّفير وترنّمت الزرنا وضربت الطبول. واجتمعت الخيول، ووقفوا ينتظرون خروج الباي محمد [رحمه الله] من باردو مشّهرا في اللّباس فخرج راكبا مركوبه، دايرين به مماليكه وحوانبه كأنهم أعباس [83] [165] فضرب العسكر الصفّ ووقفوا فدخل الباي محمد وسطهم ورد السّلام ثم فارقهم وسبق القدام، وسار يطوي المراحل، وينزل المنازل، إلى أن دخل باردو ودخل العسكر إلى تونس سالمين غانيمين، والحمد لله ربّ العالمين.

(83) أي غاضبين حانقين.

هذه إحدى الرّوايتين، وأما الرّواية الثانية : لما خرج الباي حسين رحمه الله طالبا ابن أخيه ونزوله على جبل وسلات كما تقدّم ذكره، وحين عصوا وعاندوا قاتلهم الباي حسين وطلع إليهم العسكر لبورحال وصارت [عليه ذلك] الكسرة المشهورة كما تقدّم، ولو أرادوا الوسالتية ذلك اليوم وهم يطردون في] العسكر لأخذوا المحلّتين من غير نزاع [84] ولكن لما راوا العدد[85] والحوائج بينهم وقدامهم مرمية مطروحة [86] اشتغلوا [بجمع] السلب [والتهى كل واحد منهم بما نهب] ورجع البعض من العسكر إلى المحلّة والبعض هرب وتغيّب، وقلّ خاطر المحال، واحد لا يدري على أحد مما أحاط بهم من الأهوال. وتخوّف الباي حسين وقرا هزيمته وربما مسكوه ومسكوا أولاده وهمّ الباي محمد [رحمه الله] والباي علي صاحب الوقت وهو سنة سبع وسبعين ومماية وألف [1177] ومحمود ولده، فحين تحقّق هذا الخيال عنده، أمر بحضور مركوبه ولبس لامته وكذلك أولاده وأصحابه وخدّامه، وكان عنده شاوش صبايحية الباجيّة اسمه علوش من العواودة، رجل كبير تقدّمت له خطرات، ووقعت في أيام البايات، وصار مجرّبا للأمور، عارفا بتقلّب الأيّام والدهور. فلمّا جعل الباي حسين شبوره [87] في رجله وأراد أن يعلو على سرجه والنّاس كلّها على هي راقبون ركوب الباي فهو الباي حسين في تلك الحالة فكّر وخمم، وكان واقفا قعد وبعث لعلوش شاوش فأتاه وكان به عرج من ضرب الرّصاص فيما تقدّمت له من الفتنات والقتال مع البايات ووقف بين يدي الباي حسين [166] فأخبره بأنّه في هذه الساعة يريد أن يرجع إلى القيروان، وهو ومن معه من القومان، ويترك الأخبية واقفة ويسير تحت جناح اللّيل بمن معه من الخيل إلى مدينة القيروان فقال له : نقول ما عندي

(84) ص : مين.

(85) في الأصل : العدو والهرايج.

(86) ص : والحرايج قدامهم مطروحة.

(87) الشبور : البوق أو النفير وهنا ما توضع فيه الرجل للوثوب على السّرج.

من الكلام، وليس عليّ ملام ؟ قال له : أنت في أمن ما بدا لك قل، وبالخطاب عجّل. قال له : يا سيّدي أنت أسبق منّي في هذا الوجق وأكبر، وخدمت البايات وحضرت في كل مخطر، وجرّبت الأمر فهل رأيت أحدا من أول وهلة يفر، وبنفسه يغر، والعمل كلّه على الصّبر، والله يعطي لمن يشاء النّصر، تربّص ولا تعجّل، وانزع شبورك من رجلك وحط لامتك ولوطاقك ادخل، واحسب في نفسك كأنّك ما وقع شيء، وإن أكلتك النّار وكثروا لك من الكي والذي يقول لك غير هذا الكلام، ما هو إلاّ من أبناء اللئام، يريد تغيير حالك وتفريق جمعك وهتك سترك وتشتيت رجالك ونهب مالك فاصبر لها، ولعلّها بعد الاياس تنحل أقفالها.

ولازال الشاوش علّوش العوادي يهوّن الأمر على الباي حسين إلى أن دخل وطاقه بين العشائين وبعث لآغة العسكر أن يخرجوا للعسّة اثنان وثلاثة في التّرعة فقويت عسّتهم وقوي تنذيرهم إلى أن طلع النّهار، وزال عن الباي حسين الغيار، وركب هو وحوانبه وداروا بالمحال، وضيق [وسدّ القلال، ووكد على الرجال، ورجع إلى وطاقه وتعاطى أحكامه] ووسّع باله وبعث لأهل السّاحل أن يأتوه ففزعوا إليه ووصلوا، وقدّام الوطاق وقفوا، ثم دخلوا، فقال لهم : إنّي أريد أن أقصّ زيتون هذه الخوارج، فلا تكثروا عليّ من اللّجاج، فهذه الشواقر [88] فخذوها وقصّوا بها الزواتن واحرقوها والسردان من العسكر قدامكم وخلفكم. فنبّه على السردان فتحزّموا وسبقوا قدّام أهل السّاحل حتّى وصلوا إلى الزّيتون وصاروا يقصّونه، ثم بالنّار [167] يحرقونه، وأهل وسلات من فوق ينظرون، وعلى النّزول لا يقدرون، ومن السّردان لا يقربون، فأقاموا على قصّ الزيتون مدة إلى أن عيت أهل الساحل وصاروا يهربون فرقة بعد فرقة إلى أن وصل للباي

(88) الشاقور : نوع من الفؤوس.

حسين نفاق الكاف كما قدّمنا ورحل الباي حسين يريد قتال أهل النّفاق والهرجة، وخدموا قبل وصوله إلى المرجة.

فلمّا وصل إلى الكاف ونزل وأتاه طراد بن قيزان يخبر من انخذل، فبقتلهم عجّل، وسجنهم ببباردو طول، وأمر بهدم البرج المدعّم بالصّخر الجلمود، كأنّه من بنيان النمرود [89]، أو من نحت عاد وثمود [90]، فما عملت في صخره [المعاول] والفؤوس ولا شقّه ضرب الدبّوس [91]، وبقت الهدّامون له في تعب شديد، ما عليه من مزيد. ثم رحل الباي حسين رحمه الله عن قرية الكاف غير بعيد، فلما سمعت به أولاد عمّار نزل هذا الدّار، أتوه ووصلوا إليه رغبة فيما عنده، فأكرم نزلهم وضيّفهم وأعطاهم ورجعوا من عنده إلى نجعهم وأقاموا به. ففي بعض الأيام أتاهم الخبر أن يونس ولد علي باشا قادم إليكم وداخل عليكم فارتقبوا مجيئه حتى وصل إليهم ودخل نجعهم وكفروا بالله.

قال لي بعض من أعتمد على صدقه : لما كانت أولاد عمّار قريبا من المحلّة ولي ببعض في نجعهم معرفة وصحبة فتنكّرت في لباسي، وغطّيت راسي، وسرت حتى دخلت نجع أولاد عمّار ودرت في النجع حتى وجدت أصحابي ففرحوا بمجيئي إليهم وضيّفوني فأقمت عندهم يوما وفي اليوم الثّاني أنا جالس في البيت وإذا بأهل النّجع خاضوا واجتمت النّاس جماعة جماعة يتحدّثون، وإذا بصاحبي أتى إلى البيت فسألته عن اجتماع

(89) النمرود : شخص اسطوري بطل أساطير عربية وفارسية جعلت منه مؤسس مملكة بابليّة.

(90) عاد بن عوص : جد جاهلي قديم، كان في بابل ورحل إلى اليمن وكانت له ولبنيه من بعده حضارة. ويقال ان عادا قبيلتين، الأولى عاد إرم وقد بادت وأصبح إسمها رمزا للقدم، وعاد الأخيرة وهم بنو تميم. ثمود بن عابر بن ارم من بني سام بن نوح، كانت إقامته في بابل ورحل عنها بعشيرته إلى الحجر (بين المدينة والشام) ثم انتشروا بين الشام والحجاز وبقيت آثارهم في الحجر المعروفة بمدائن صالح إلى اليوم، وفيها بيوت منقورة في الصخور ومن المؤرخين من يرى أنّهم كانوا وبادوا قبل زمن موسى.

(91) الدبّوس : العصا الغليظة.

النّاس وحديثهم قال لي : يونس ولد علي باشا قدم إلى نجع (92) أولاد عمّار وها هو مجتمعين (93) عليه أجواد أولاد عمّار فإن شيت فقم معي [168] رتنكّر وغطّ راسك لئلا يعرفك أحد من المحلّة فقلت في نفسي : والله لابدّ أن أراه عيانا حتى إذا تحدّثت في الخباء أكون على بصيرة من خبري. فقمت معه ومشينا حتى وصلنا بيت أولاد عمار الذي فيه يونس، فدخلت البيت ووقفت مع من هو واقف ورأيته بعيني، وإذا به جالس والنّاس دايرون به وهم يتحدّثون. فلما حقّقته أشرت على صاحبي وخرجنا ومشينا حتى وصلت بيت صاحبي، فقلت في نفسي : ما بقي لي قعدة أخاف أن يسبقني أحد بالخبر. فقلت له : يا فلان شيّعني، وإلى قريب المحلّة وصّلني. فشيّعني، فلمّا قربت المحلّة رجع إلى أهله فمازلت ماشيا حتى وصلت إلى المحلة، ودخلت الخباء الذي أنا فيه وكسّرت أذني للنّاس (94) هل عندهم خبر بقدوم يونس، فلم اسمع في حقّه شيئا، فعلمت أنّ الخبر لم يسبقني فوقفت وناديت على بولكباش الذي في خباينا، ووقفت أنا وإيّاه وأسررت له وقلت له : إنّ يونس قدم إلى نجع أولاد عمّار وها هو نازل في بيوتهم. فلمّا قلت لبولكباش هذا الكلام تنكرني وقال : من أين لك هذا، ومن أتاك بهذا الخبر فأوقفني عليه حتى أسمع منه بأذني لأنّي أريد أن أخبر الآغة بحديثك وربما يكون كذبا فيعاقبني، فقلت له : أنا لي صاحب نازل بنجع أولاد عمّار وبعث لي أن ناتيه فتلحّفت في حرام وتنكّرت وذهبت إلى أن وصلت النّجع ودخلته وسألت عن صاحبي حتى دلّوني عليه فوجدته في بيته ففرح بي وضيفني وأقمت عنده يوما وحلف علي أن نقيم عنده يوما آخر فأقمت وإذا بيونس قدم ونزل في بيت أولاد عمّار، وشاشت النّاس وأنا أنظر إليهم وإذا بصاحبي دخل البيت فقلت له:

(92) ساقطة من ص.
(93) ص : مجتمعة.
(94) أي القيت السّمع.

ما شان الناس وما أصابهم ؟ قال لي : إنّ يونس قدم الساعة، بعثه أبوه علي باشا من جبل وسلات لأولاد عمّار ليجتمعوا عليه [169] وتكثر عليه النّاس ويحيّرون هذا البلاد، ويأخذون من قدروا عليه. فقلت لصاحبي: إن أردت أن تعمل عليّ جميلا وصّلني إلى البيت الذي هو فيه حتّى أراه بعيني، فإذا حدثت أحدا بهذا الخبر أكون صادقا في خبري. فقال لي : إن أحببت ذلك تغطي راسك بالحرام وقم نوصلك إلى البيت الذي هو فيه فقمت معه وسرنا إلى أن وصلنا البيت ودخلت البيت وإذا بجماعة جالسة دايرة ويونس في وسطهم وهم يتحدّثون، ورجال أخر واقفون، فوقفت مع من هو واقف حتى حقّقته ورجعت وشيعني صاحبي قريب من المحلّة وولى إلى بيته وأنا وصلت المحلّة وهذا قدومي من عندهم وأعلمك بخبرهم.

فلما رأى منّي الجدّ قام وسار إلى خباء آغة العسكر ودخل الخباء وأخبر الآغة بما حدثته به فلما سمع آغة ذلك العسكر من بولكباش هذا الخبر أرسل أحدا إلى وطاق محمد باي رحمه الله وقبّل يده وأخبره فقال له: أين الايلوضاش الذي أتى بهذا الخبر. فقال له : هو في خبايه : قال الرسول الآغة : ابعث إليه فإذا أتاك فارسله إلي فأنا قاعد في الخباء. وأتاني رسول الآغة وقال لي : قم إنّ الآغة يناديك فمشيت معه حتى وصلنا لخباء الآغة. فلمّا رآني قال لواحد من أصحابه : وصّله إلى وطاق محمّد باي. فمشيت أنا وإياه حتّى وصلنا الوطاق. فخبّرنا البوّاب فدخل عليه وأعلمه فأذن لي في الدّخول فدخلت حتى وصلته وقبّلت يده فقال لي : أخبرني بهذا الخبر الذي جيت به. فأخبرته بمجئ يونس ورأيته بعيني جالسا في بيت أولاد عمّار. فلمّا حقّق منّي هذا الخبر مدّ يده إلى شونه (95) وأعطاني سلطاني وقال لي : اذهب بسلام. هذا ما سمعته من هذا الرجل وهي تخالف الرواية الأولى، [والله] أعلم.

(95) أي : صدره.

ولما وصل محمد باي إلى باردو ودخلت [170] المحلة التي كانت معه في وطن باجة إلى تونس وارتاح العسكر وأخذ كلّ واحد راتبه، فلما أتى الخوجة إلى خوجة العسكر للمبيت عند الباي محمد [سامحه الله] أمره أن يكتب محلّة تخرج لأبيه لأنّه يترجّى في قدومها عليه ومنتظر إليها فلمّا رجع الخوجة إلى الديوان كتب محلّة أصحاب الطّريق وأعطى الكمانية (96) للاوضاباشية وخرجوا خباهم وأعطاهم الباي محمد مؤنتهم، ولمّا قضوا مآربهم وتمّت شؤونهم أمر الباي محمد برمي الكتّان ونصبت المحلّة وبالفسقية دارت وجروا حرجهم وعمّروا دارهم (97) وأخبيتهم واجتمع العسكر وخرج إلى المحلّة وصاروا ينظرون إلى خروج الباي محمد بن باردو وهو مترقّب إذن أبيه يأتيه في الرّحيل، فلمّا قدم الإذن عليه جهّز نفسه وعيّن من يسفر معه، قيل سافر معه في هذه المحلة الحاج سليمان كاهية لأنّه توحّش واشتاق الباي حسين لأنّه بينه وبين الباي حسين [مدة] أكثر من عام (98) وأكثر ما أداه إليه أن المهجرسة الذين بتونس بالغوا في فعلهم وقولهم وقلق من هؤلاء النّاس الحاج سليمان كاهية وخاف على نفسه من الباي حسين إذا لم يخبره، فما إطمان بأحد أن يرسل معه المكاتيب فخرج بنفسه وسافر إلى الأمير حسين [سامحه الله].

ولما كان يوم الرحيل خرج الباي محمد [سامحه الله] من باردو ودارت به الخيل وضربت الطّبول وزعق النّفير وضربت المدافع ودخل المحلّة ونزل، ومن الغد رحل، ولازال سايرا يقطع المنازل، ويطوي المراحل، وكان أبوه الباي حسين [رحمه الله] على ما قيل أنّه رحل من على قرية الكاف ونزل في فرنة حتى وصلت [إليه المحلة، وأقام كثيرا في دار فرنة، هذا ما قاله الناقل إلينا، والعهدة عليه، والخبر من حيث هو خبر] كما تقدم

(96) الكمانية : لعلّها الرواتب.
(97) زائدة في أ.
(98) أ : أكثر من مدّة عام.

يحتمل الصدق والتغير (99). وقال لي (100) بعض [الناقلين] إن الباي حسين سامحه الله وبرّد ثراه أنّه لما رحل من على قرية الكاف ورحل الباي محمد [رحمه الله] إلى وطن باجة رجع الباي حسين لتونس ثم لمّا سمع بأولاد عمار ويونس جاؤوا [171] إلى الكاف وتقاتلوا هم وأهل الكاف [فصدّوهم أهل الكاف عن] الدخول وغلبوهم ورجعوا خايبين، فعندها جهّز الباي حسين المحال وخرج من تونس يرحل وينزل حتى بلغ إلى فرنة وهي قريبة من الرّبع وقريبة من برقو (101).

وأمّا صاحب الرّواية الأولى قال : إنّه لم يرجع إلى تونس ولم يدخلها مدّة عامين حتى روّح علي باشا إلى الجزاير. وقد اختلفت الرّوايات والله أعلم بالصّحيح. ولمّا نزل الباي حسين دار فرنة ومكث بها مدّة كان من الخواص ابن حليلة كاهية زواوة وهو عنده في أعلى المنازل كما قدّمنا ذكره، وتغافل عنه الباي حسين [رحمه الله] مدّة كثيرة حتى بالغ في التهجريس والتجسيس على أمور الباي حسين وتبليغها لعلي باشا بجبل وسلات مع سيارته فلما لم يرجع، وبالغدر صدع قال النّاقل عن جابالله بوفردة، وكان جابالله بوفردة هذا قديما في الخدمة عند البايات من لدن مراد باي سامحه الله وكان هو السّبب في إخراج مراد باي من قصبة سوسة وهرب به إلى جبل وسلات كما هو مذكور في الكتب إن شيت فراجعه.

ثم لما مات مراد باي وتولّى ابراهيم الشريف صار عنده جابالله بوفردة في أعلى المراتب وولاّه الولايات، ثم مات ابراهيم الشريف وتولّى البلاد الباي حسين [سامحه الله] أعزّه وأكرمه اي جابالله بوفردة وولاّه كاهية بلد

(99) الصدق والتغير : ساقطتان من ص.
(100) لي : ساقطة من ص.
(101) أ و ص : برق والربع وبرقو قريتان في ولاية سليانة.

باجة مدّة طويلة [وكان رجل منهمكا متجاهرا لا يراقب الله، فأعيى أمره الباي حسين فعزله وربطه مدة طويلة] ثم اطلقه وتركه في زوايا الإهمال ونكبه الى ان جاءت خطرة وسلات فكرّر المجيء الى الباي حسين والتّقرب اليه، فلما اراد الباي حسين الخروج إلى قتال اهل وسلات فأمر له بخباء ومؤنة وما يكفيه وأمره أن يسير معه إلى جبل وسلات خوفا منه أن يهرب إلى الباشا علي كما هرب غيره وصار جابالله بوفردة ملازما لوطاق (102) الباي حسين يقف مع من هو واقف، ثم يرجع إلى خبايه تاركه في زوايا إهماله [172] حتّى نزل الباي حسين دار فرنة (103) وعول على سجن ابن حليله.

قال النّاقل عن جابالله بوفردة : كان خبائي الذي أنا فيه قريبا من خباء ابن حليلة مجاورا له وكثيرا ما يبعث لي باللّيل فأسامره، ولما كانت تلك الليلة بعد المغرب والعشاء أنا قاعد في خبائي وحدي ولي خديم واحد يقضي حاجتي، وأمّا خباء ابن حليلة وقيطونه وخدّامه وكثرة أتباعه وأحبابه كأنّه وطاق الباي حسين [في كثرة تباعه، وأذا بالفنار الكبير الذي يرفعوه قدام الباي حسين] خرج من باب الوطاق ووقف به الرّومي وأنا أنظر فتحيّرت في أمري [وخفت] وقعدت ووقفت وإذا بالباي حسين [سامحه الله] خرج من الوطاق على رجليه والمماليك قدّامه وخلفه وقصد النّاحية التي أنا فيها، فما شككت أنّه يريد غيري، ولا يخطر ببال أحد أنّه قاصد خباء ابن حليلة لأنّه عنده في أعلى منزلة. فلمّا قرب من الخباء الذي أنا فيه تحقّقت أنّه قاصدني فغبت على حسّي، وغاب عنّي حدسي، وصرت مستمطرا للقضاء. وإذا به الباي حسين عرّج وتعدّى خبائي ووصل

(102) الوطاق : الخيمة.
(103) فرنة : بولاية سليانة، معتمدية قعفور.

إلى خباء ابن حليلة، فعندها دهشت وقلت لخديمي : ايتيني بماء فأتى به فرششته على وجهي (104) ولم آبه (105) بالباي حسين وماذا يصنع إلاّ بعد مدّة، وإذا المملوك يجرى حتى وصل إليّ وقال لي : عجّل الباي حسين يناديك فوقفت وقفة حاير، بين يدي جاير، فمضيت معه حتى دخلت الخباء، فلمّا رأيته قبّلت يده وإذا بابن حليلة رجليه ممدودة وهم يسمرون في القيد في رجليه، ثم زادوه قطينة ثقيلة، وأمر الباي حسين برفع صناديقه وحوايجه إلي الوطاق، فلما رفعوا المماليك ما أمرهم الباي حسين (106) برفعه أمر [173] في تلك الساعة بكريطة وأمر الحوانب أن تركب الخيل فركبوا خيلهم وأتوه راكبين فجعلوا ابن حليلة في الكريطة ودارت بها الخيل، وساروا به في اللّيل يقصّون الثنيّة ميلا بعد ميل، حتّى وصلوه إلى باردو.

فلما فرغ الباي حسين من شان ابن حليلة التفت إليّ وقال لي : نقّل حوايجك إلى هذا القيطون والخباء قد أوليتك طريقة كاهية زواوة، والذي كنا نحسبه من أعدائنا حصل إلينا من أصدقائنا. وأمرني في تلك الساعة أن نجلس في القيطون على سرير ابن حليلة وفراشه، سبحان المعزّ، سبحان المذلّ «لا يسأل عما يفعل» (107) فامتثلت أمره ونقّلت أثقالي ومؤنتي في تلك الساعة، ونمت على سرير ابن حليلة ولكن لم ياخذني نوم من قوّة الدّهشة التي كنت فيها. ولمّا طلع النّهار جاءتني النّاس وباركوا لي في الطّريق، وجاءت أوجاق الباي وضربوا قدّام الخباء وأخذوا منّي عادتهم، وانتصب عندي الدّيوان بزواوة وشوّاشهم وجموعهم. هذا جزاء من يكفر بنعمة سيده ويغدر بمن أعلى المراتب يوله، جزاء وفاقا.

(104) ص : فعلي وجهي رششته.
(105) ص : ولم التهي.
(106) ساقطة من ص.
(107) قرآن : الأنبياء 23.

هذا خبر ابن حليلة الذي قدّمناه في أوّل هذه الأوراق، وأمّا مبارك الأوراسي كاهية الوجق التونسي فهو كما قدّمنا ذكره. ولما فطن الباي حسين به ووصله ما فعل زاده تقربًا منه ورفعه وأطلعه على أسراره الغامضة وهو لا يزداد إلاّ مكرا وخديعة وبثّا لأسرار الباي حسين للباشا علي رحم الله الجميع، وهو يحسبها نصيحة إلى أن أخذ عيال الباي حسين الطّلق في الوطق وكان مبارك الأوراسي جالسا فسمعها تطلق كعادة النّساء. فلمّا رجع إلى قيطونه وخباه أمر سيّاره الذي بينه وبين الباشا علي أن يصعد إلى جبل وسلات ويخبر [174] بما سمعه من طلق العيال، على ما قيل والله أعلم بالحال.

فلمّا خبّر الرّسول علي باشا ضحك وأخبر من لم يعرفه أنّه جاسوسه للباي حسين فلمّا سمع ذلك الجاسوس ما قاله الباشا علي بعث سيّاره إلى الباي حسين وأخبره بما بعثه مبارك الأوراسي وتحقّق عنده أنّه خاين، والجبل وسلات ضاعن، استشاط غيظا ثم رجع على نفسه وقال : هذا مما يسرّ به عدوّنا، ويزيد اطّلاعا على أمرنا، ثم إنّه لم يجعل في عينه ريبة ولا يظهر له مكيدة. ولما جلس معه مبارك الأوراسي في الوطاق واستخلى به ليظهره له أنّه لم يطلع على هذا الأمر أحدا من النّاس قال له الباي حسين : كن على ترحال، وافعل ما تفعله الرّجال، وسر إلى تونس بالعيال، لأنّي لم يطمين خاطري إلاّ بك.

ففرح مبارك الأوراسي بما سمعه ورجع إلى خبايه وقيطونه، وحمل حوايجه ولبس عدّته وركب مركوبه وأتى الباي حسين. فلمّا رآه أمر بالكرّوسة فحضرت وركب فيها العيال وسارت وشيّعه الباي حسين، قدر ميلين، وهو يقول له : ارتاح في دارك واجتمع بأولادك وعيالك ولا تمكث إلاّ قليلا عندهم ثم ارجع إلينا على عجل. فودّعه وسار وسارت معه الخيل، ودخل اللّيل، وتمّ سايرا إلى أن دخل باردو ودخلت الكروسة

ولازال واقفا حتى دخلت العيال إلى الدار ثم صعد إلى المحكمة والدّيوان فتقدّم وأعطى للباي محمد مكاتيبه وقبّل يده ووقف ينتظر الإذن ليسير إلى داره ويجتمع بأولاده وعياله، فتشاغل الباي محمد بقراءة المكاتيب ثمّ رفع راسه إليه وقال له : هذا فعل الحبيب بالحبيب، والذي يخدم مثلي (107م) ويقرّبه ويخصّصه ففي أمره لا يعيب ولا يخيب، امسكوا هذا الغدّار العاصي، قليل الخير النّاسي، [175] مبارك الأوراسي، لكن لا لوم عليك إنّما يتوجه اللوم علي من لبّسك الرزّة (108)، ورفعك وجعلك من أولي الشرف والعزّة، وأطلعك على ظاهر أمره وخافيه، وشرّفك على مكنون سرّه وناجيه، هل عندي أحد لهذا الخاين. فتقدّمت إليه المماليك بالقطاين وفي رجليه وضعوها وسمّروها وصفّدوها، ثمّ إنّ الباي محمد قال للمماليك : ارفعوه إلى البيت الفلاني وعليه اقفلوها. ففعلوا ما أمرهم به [وقيل] وفي ليلته رقبته كسّروها، وما جزاء الإحسان إلاّ الإحسان (109)، «إنّ الإنسان لظلوم كفّار» (110) «قتل الإنسان ما أكفره» (111). هذا ما بلغنا من خبر أولاد النّاس، ابن حليلة ومبارك الأوراسي.

(107م) أ : والذي يحب يخدم مثله.

(108) الرزة : نوع من العمائم الضخمة.

(109) من القرآن : الرحمان 30 : هل جزاء الإحسان الآ الإحسان.

(110) من القرآن : ابراهيم 34.

(111) من القرآن : عبس 17.

ذكر خطرة اكس، مع أولاد عمّار وبغيهم عليهم انعكس [112] :

لمّا وصل يونس إلى أولاد عمّار، طالبا من عمّه الباي حسين أخذ الثار، وبعد وصوله إلى أولاد عمار، بعث الباشا علي على خمسماية وسلاتي كلّهم شباب [مواتى] مستكملين العدّ والعدد، فإذا فزعوا للقتال لم يصبر لهم أحد وهرع إلى أولاد عمّار لما سمعوا بيونس عندهم كلّ طمّاع وسارق، وكلّ ذي بغي ومنافق، فاجتمع عند أولاد عمّار من كلّ قبيلة حتى ضاقت بهم الأرض، وقالوا أولاد عمّار : بهذه الجنود تنال من الباي حسين [رحمه الله] الغرض، فرحلوا بأولادهم وعيالهم [113] زملوا، وللقتال أقبلوا، وبخندقة اكس حطوا، وبنجعهم أحاطوا.

وأمّا الباي حسين فإنّه لمّا سمع بمجيئهم وحطّهم بخنقة إكس رحل من مكانه وداره فرنة ونزل قريبا مناظرا لهم، ولمّا تقابلوا هم والباي حسين، وجعلوا الرجالة [176] في كلّ كمين، فلما سمع الشيخ بو عزيز [ما استعزّت به أولاد عمّار بقدوم يونس إليهم، وما اجتمع عندهم من كلّ] الأجناس، وأخلاط النّاس، ركب من حينه وسارت معه أقاربه وعبيده حتى وصل إلى الباي حسين ودخل عليه الوطاق من غير سابقية بينهما ولا تلاق، ففرح به الباي حسين وأكرمه وأجلّه وعيّن له خباء وعظّمه وهوّن الأمر على الباي حسين وضمن له أخذ أولاد عمّار الملاعين، ولما سمع أولاد عمار بقدوم بو عزيز معاونا للباي حسين زادوا حنقا على حنق، وكثرت بينهم الدواير والحلق، حلفوا إن وقع بينهم قتالا خيلا ورجالا ونصرنا الله عليهم أوّل ما نقتل بو عزيز القادم إليهم. فلما سمع بو عزيز

(112) خنقة إكس : ممر جبلي في أرض الفراشيش قريب من موضع الحجر الأصفر. انظر التعليق رقم 2 ص 94 في النص المترجم.

(113) ص : بعيالهم وأولادهم.

بهذا المقال، بعث إلى من يليهم ممن يخافونه أن ابعدوا عن القتال، واتركوهم كالعيال. ولمّا كثرت الجيوش على أولاد عمّار وضيّقوا عليهم النّجع والدار، اجتمعوا فيما بينهم وتكلّموا وتشاوروا متى يكون القتال. فقد ضاقت علينا هذه التّلال، وغدا إن شاء الله نكمن لهم في الواد الرجال، وتصدم الخيل على المحال، فإذا رجعت الخيل وتبعوهم أخذوا ناحية الواد ويظهرون لهم أنّهم هاربين قدّامهم حتى يصلوا إلى الكمين قامت الرّجال في وجوههم، وبالرّصاص يضربونهم، حتى يطيح أكثرهم ويرجعوا منهزمين، فعندها ندفع على المحال دفعة واحدة فلا تبقي لهم باقية وناخذ المحال أخذة رابية، فهذا ما اتفقوا عليه وكان بو عزيز يدسّ الرّجال عندهم ويختلطوا بينهم وله عيون وجواسيس يأتونه بخبرهم. فلمّا سمعت الجواسيس هذا الكلام من أولاد عمار وما اتّفقوا عليه رجعوا إلى بو عزيز وأخبروه بما تكلّمت به أولاد عمّار من جعل الكمين في الواد وأكثرهم وسالتية صناديد لا يحملون العار، فركب بو عزيز فرسه وأتى إلى الباي حسين رحمه الله في صورة متنصّح وهو أفسد للشباب الفاخرة [من العرص بل أسنح] وأخبره خبر التريس (114) الذي يكمنون في الواد وبما عولت عليه أولاد عمار من الصّدمة على المحال، وباتت واقفة على ساق الرجال، الى أن طلع النهار، وفزعوا أولاد عمّار، خيلا ورجالا، فنهض الباي حسين راكبا فرسه دايرة به مماليكه وحوانبه إلى أن وصل محلة العسكر فنبّه عليهم ونذر أن لا تفارقوا التّرع ولا من يفزع وتقدّم من أولاد عمّار سلطان، وهجم على القومان، فترجع قدامه هاربة كأنّها «حمر مستنفرة فرّت من قسورة» (115). فلما رأت صبايحية الباجية هروب دريد وغيرهم من المخازنية دفعوا دفعة واحدة واختلطوا بقوم

(114) لعله ج التراس : أي العازب والشاب، والعبارة السّابقة وردت في ص ولكن غير مفهومة المعنى.

(115) تضمين للقرآن : المدثر 51-50 (كأنهم حمُرٌ...).

الحنانشة واقتتلوا قتالا شديدا. فلمّا ضامتهم الصّبايحية هربوا قدامهم نحو الكمين الذي فيه الرجالة فترجع قريبا من الواد الصبايحية، ولازالوا ذلك اليوم في القتال ولكن ظهرت على الصبايحية أولاد عمّار وشوطوا عليهم إلى أن عشت العشية وافترقت القومان.

ولما نزل الباي حسين في وطاقه أتاه بو عزيز يشكر في صبايحية الباجية ثمّ إنّه تحدّث مع الباي حسين وقال له : إن أردت أن ناخذوا أولاد عمّار فافعل ما أقوله لك، فابعث في هذه الساعة إلى عسكر الترك أن يختاروا خمسماية أو أكثر ويأتوننا فابعث معهم من يكمن بهم في الجبل وراء نجع أولاد عمّار ونوصيهم أن لا يحدثوا حدثا لئلا يفطنوا بهم فإذا طلع النّهار بادرناهم نحن بالقتال والحرب، ونأمر الفرسان قدّامهم تهرب ونبعث إلى العسكر [178] الذي في المحلة يلبسوا عددهم (116) ويصفّوا صفوفهم، فإذا أقبلت أولاد عمّار طالقين الغارة ولم يعلموا ما وراء النّجع من السّاقة فيخرج إليهم العسكر، وإليهم يظهر، فإذا رأوهم الذي في الكمين أطلقوا على النّجع الغارة فذلك السرية خلفهم وهذا العسكر قدّامهم والحنانشة لا تصبر لقتال العسكر، فاستصوب الأمير حسين رحمه الله تدبير بو عزيز وبعث لآغة العسكر أن يختار من العسكر قدر خمسماية ويأتوني في هاته الساعة. فلمّا وصل الخبر إلى الآغة دارت الشّواش على الأخبية وجمعوا خمسماية وأقبلوا إلى وطاق الباي حسين ووقفوا. فلما رآهم بو عزيز بعث معهم من يخبر موضع الكمين وأوصاه أن ياتي من تحت الجبل حتى يصل إلى المحلّ الفلاتي ظهرة النّجع ويجلسون فإذا طلع النّار وأقبلت إلينا أولاد عمّار، ورأوا البارود من العسكر بالنّار لمع، هجموا على النّجع من ورايهم وأطلقوا على فتيلة واحدة مكاحلهم. فتمّ هذا التّدبير وسار العسكر وقدامهم [الخبير] إلى أن

(116) كذا : أي عتادهم.

وصلوا حفرة الكمين، وركشوا [117]، وأولاد عمّار ومن معهم رقدوا ولم يفتشوا، لأجل أن يقضي الله أمرا كان مفعولا [118].

ولمّا طلع النّهار، هجمت على المحال أولاد عمّار، وتقدّم قدّامهم سلطان، وصار يقلّب الفرسان، ويرجع إلى المكان، ثم يدفع على القومان، فترجع قدامه كأنّها غنم في عقابها ذيبان. فلمّا رأى الباي حسين سامحه الله ما فعل هذا الكلب المكلوب، وخيله قدّامه هروب، بعث للعسكر أن يطلع على راس العرقوب [119]، وكان أصحاب الكمين على هي لما يأمرهم به حسين باي. فلمّا أطلق سلطان عنان فرسه نحو القوم هزقل له العسكر جيش عرمرم [179] فلما سمعوا أصحاب الكمين ثار من عندهم البارود، كأنّه رعود، وهجموا على النجع من ورائهم وتقدّم عسكر المحلة فرجع سلطان هاربا إلى نجعه فرأى النّار قد أحاطت به، والرّجال في وسطه، ولحقته الصبايحية وأصحاب بو عزيز وغيرهم من المخازنية. فما وسعه هو ويونس ومن معهم إلاّ الفرار، وركوب العار، وكشف الأستار، عن الأبكار، وتركوا نجعهم ومالهم وسرحهم وسعيهم، فالشّجاع من أهل أولاد عمّار من دخل بيته وركّب زوجته وراءه على فرسه ودخلوا خنقة اكس وصعدوا الجبل ويونس معهم وتفرّقت أولئك الأشتات، وتركوا النّساء والبنات، والذّي لحقته قوم حسين باي سامحه الله قتلته وراحوا أشتاتا وأشعابا، والوالد لا يدري على ولده، والأخ لا يدري على أخيه، وهملت ذلك الأغنام، والبقر والخيل والأنعام.

فلما خلت من أولاد عمّار الدّيار، وتوسّموا بالعار ودخول النّار، هجمت على ذلك الأنعام كلّ كبير وصغير وغلام، وصاروا يجمعون الغنم

(117) ركش : ربض في مكانه لا يتحرك.
(118) من القرآن : الأنفال 42 ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا. وفي أ: ولم يتعشّوا.
(119) العرقوب : الهضبة.

أو يأتون بها فتتلقّاهم المخازنية فيفكّونها، ومن جملة الغانمين قوم بوعزيز جمعوا من الغنم والمعيز، وأتوا بها على حدة فريز [120]. فلما رأتهم الصبايحية أطلقوا إليهم أعنّة الخيل، وسلبوها منهم إلاّ من دخل ظلام الليل، وأمّا البيوت والهدم [121] والأثاث فجمعتهم العالة حتى الإناث، ولا باقي إلاّ وجه اللّه، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» [122]، وسارت أولاد عمار ومعهم يونس لا عيال ولا مال ولا جمال، وولّى عليهم النّدم والغم، وقالوا : هذا جزاء من يكفر بالنّعم، ويدخل بين الأحبة ويفرّق بين العمّ وابن العم، وتمّوا سايرين، وعلى وجوههم هاملين، «وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين» [123].

(120) يبدو المعنى : الغنم وحدها والمعز وحده . ولم تترجم هذه العبارة إلى الفرنسية انظر ص 95. من الكتاب المترجم.
(121) الهدم : اللباس. وفي أ : الادام.
(122) قرآن : النمل 52.
(123) قرآن : يونس 10.

[181] ذكر نزول علي باشا من جبل وسلات وأحمد بن متيشة لقتال أهل القيروان والسّاحل وقصه لأم شويشة*

ذكر النّاقل أنّ الباي حسين سامحه الله لمّا نافقت أهل الكاف وأتاه الخبر فرحل عن جبل [أهل] وسلات كما تقدّم ذكره هرعت الأشتات إلى جبل وسلات، أولاد سعيد والمثاليث وعزاليك الأعراض، (124)، حتّى ضاق بهم جبل وسلات. واجتمعت على الباشا علي من كل فج عميق، وانضامت الوسالتية من الضيق، وكثرت الخيل في الجبل والأبغال والحمير، وليس للقادمين على مؤنة [ولا قمح ولا شعير، أوّل ما تكلمت أولاد مانس وكان الكثير منهم للباي حسين مؤانس، واطلع على] موانستهم الباشا علي وأحمد بن متيشة، لكن لم يواجههم بشيء خوفا على أمره أن يتلاشى، فعندها أمر علي باشا، سامحه الله بجمع القياطن وبيوت الشعر وجهز الباشا علي نفسه وكثرت أثقاله وخدامه واتباعه وسرّط من جاء من هذه الأجناس، فحدثته نفسه أنّه ملك أمر الناس.

ولما تم شغله جمع جموعه وتفقّد خيله [ورجله وعدده وعدته واحضر للرجوع إبله وأبغاله وخيله] ونزل من جبل وسلات بذلك الأشتات، وتحت الجبل حطّ وبات، ومن الغد رحل وتمّ سايرا إلى أن نزل قريبا من القيروان، وبعث إلى أهل القيروان الفرسان، وبيدهم مكاتيبه ينذر على أهل القيروان : أناشدكم الله ما لكم حاجة في العصيان، أطيعوني واتّبعوا أمري، واتركوا ضرري، قبل أن يكشف الغطا ويمنع العطا، فعندها لا يمنعكم مني سماء ولا وطاء، وتندمون على عصياني، حين يسلّط عليكم سلطاني، واشتروني [182] ما دمت رخيصا قبل أن نسلط

* ام شويشة : يعني شجر الزيتون.

(124) عزاليك : ج عزلوك، شاب ضعيف البنية، طويل القامة. والأعراض : مكان في ولاية قابس.

عليكم يونسا، فيحصركم في مدينتكم، وبالجوع والقحط يشتّتكم ويفنيكم، ويقتل رجالكم ويسبي نساءكم ويضيّع أولادكم [وينهب أموالكم] ويخلي بلادكم، ومن أنذر فقد أعذر، إنّما مثلكم كمثل قرية «يأتيها رزقها رغدا من كلّ مكان فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» (125). أطيعوني أو قاتلوني، وحاربوني أنا الباشا علي، صاحب القدر العليّ، أسلب الأموال عن كلّ ملي، ولا أترك له بيضا ولا صفرا ولا حليّ (126).

فلما وصلت الفرسان إلى القيروان، دخلوا المدينة بالأمان، وأعطوهم المكاتيب فاجتمعت أهل القيروان ونصبوا الديوان، وقرؤوا ما في الورق. فلما علموا ما فيها ضحك كلّ واحد منهم حتى شرق، وقالوا : رحم اللّه من قال :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها وحتى سامها كلّ مفلس

فبعد العساكر العثمانية، والسّلطنة الحسينية، الجيوش التونسية، نملّك علينا رجلا اجتمع معه كلّ رعبة، وما هذه إلاّ بلية [ومصايب عطبية]، ثمّ قالوا للفرسان : أنتم دخلتم بأمان، فارجعوا بسلام، فإذا وصلتم إلى هذا الباغي القاطع الذي بخير عمّه ناكر، فنحن مع العسكر وسلطاننا الحاضر، ومن بدّل لحية بلحية خسر الإثنين، وبماذا نبدّل الباي حسين، وأنت توعدتنا بالغيب ولا يعلم الغيب إلاّ اللّه، والأمر كلّه للّه، وفي الحديث الشريف إن للّه في خلقه كل يوم خمسا وستين [نظرة] يعزّ فيها من يشاء ويذلّ من يشاء (127).

(125) قرآن : النحل 112، وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها....
(126) لاحظ اللهجة الملحمية في هذا الكتاب.
(127) في سورة آل عمران الآية 26 : قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كل شيء قدير. ولم اعثر على هذا الحديث في كتب السنة.

ثم شيّعوا الخيل ورجعوا وجمعوا مقاتلتهم وفرّقوهم على سورهم وباتوا متهيين للقتال. هذا ما صدر من أهل القيروان وجاوبوا به علي باشا. ووصلت الفرسان لعلي باشا أخبروه باللّسان ما قالوه أهل القيروان، فقام وقعد، وضرب يدا على يد، وقال : هل [182] عندي أحد ؟ فتشاخرت قدامه [الأشتات، وتنادهت عنده الرعاة، وتقدّمت الحفاة والعراة، ومن الغد ركب الباشا علي وأحمد بن متيشة وجميع الرؤوس وتقدّمت الرّجلة، والكثير منهم ليس عنده مكحلة، ولا سكين، ماعدتّهم إلاّ الخشب أو قطعة من سكين]، وتقدّموا إلى سور المدينة، فرموهم بالمدافع فهربوا [إلى كمينة]، ولازالوا يدورون بالمدينة إلى وقت الظهيرة. فلما جاءوا رجعوا كمدا [وماتوا بالغبينة]، ورجع الباشا علي ومن يدعي أنّه راس، وأخذوا في الحديث والتّدبير وتعللوا بأنّه يوم نحس، وغدا إن شاء اللّه نصدم عليهم ونقتل منهم كلّ راس.

ولمّا أصبح اللّه بخير الصّباح، وأضاء نور الشّمس ولاح، هرع إلى مدينة القيروان كلّ طامع، فلمّا قربوا منهم رموهم بالمدافع، فرجعوا هاربين، وإلى القياطن وبيوت الشّعر قاصدين، فلمّا رآهم علي باشا هرابا قال : خيّب اللّه من كانت قومه أعرابا، ورجع عليه الهمّ والغمّ وأمر ذلك الأخلاط بالرحيل. ولما طلع النّهار وركب الباشا علي وركبت خواصه وخدّامه ورفعت أحماله ورحل من على القيروان وسار قاصدا إلى السّاحل وانفلتت ذلك الأجناس، على مكاسب النّاس، وتمّ سايرا إلى أن وصل تحت القلعة الكبيرة ونزل وأرسل إلى مشايخ القلعة الرّسل، فما أجابوه ولا أطاعوه وقالوا لرسله : نحن رعيّة العسكر العثماني، فمن تبع العسكر تبعناه ومن أطاع العسكر أطعناه، ونحن نعلم أنت سيّدنا، وعمّك سلطاننا، وحاكمنا، فنخاف إن أطعناك يأتينا بالعسكر ويأخذنا ويشتّتنا ويسلب الدراهم من أيدينا، وهذا ما تسمعه منا، فاذهب يا رسول إلى من بعثك، ولا تطل معنا كلاما.

فرجعت الرّسل من عندهم ووصلوا إلى الباشا علي وأخبروه بما قالت أهل السّاحل، وخصوصا أهل القلعة الكبيرة فقال : إنّي لم أرحل عليهم حتى لم نبق لهم بقيّة من زيتونهم. وأمر بجمع الفؤوس والشّواقر فجمعت، وبعث للرّجال فأتت، فأمرهم بقصّ أم شويشة (128) وحرق أصولها [المنبوتة]. فلمّا أصبحت ذلك الجموع أسرعت إلى قصّ الزيتون فزوعا [183] بعد فزوع. فلما رات أهل الساحل يقصّون أموالهم ويحرقون زيتونهم لم يجدوا لذلك صبرا، وخنقتهم العبرة، فخرجت رجالهم وتبعتهم نساؤهم ووقع بين الفريقين القتال، وماتت بعض الرّجال، ورجع كلّ منهم إلى مكانه. فاجتمعت أهل القرية الكبيرة وقالوا : ما لنا طاقة على هذا الجراد المنتشر، عجّلوا بمن تبعثوه إلى صاحب الأمر الباي حسين ياتينا ومعه العسكر، فيريحنا من هذا الضّرر، والمصاب الأغبر، فاتفقوا على إرسال الرّسل وزوّدوهم وقالوا لهم : أنتم رأيتم ما حلّ بنا مما لم يكن له حساب في علمنا. واعطوهم المكاتيب وشيّعوهم إلى مكان ليس فيه ريب. ولمّا طلع النهار هجمت جموعهم، ووقع القتال بينهم، وبعث الباشا علي إلى أهل السّاحل ينذر عليهم ويقول لهم : إنّي لست بقايم في بلادكم ولكن ارسلوا لي بعض مشايخكم نتكلّم معه فيما يصلح بنا وبكم، ومالي اربة في قتالكم ولا لي حاجة في قصّ زيتونكم فردّوا إليه رسوله بكلام غير صايب، وكثروا فيه من المعايب، فعندها أناخ عليهم وحصر سرحهم ولا عليه ممّن ياتي لنصرتهم، ولا فكّر فيمن معه الأخلاط وهزيمتهم، فإن راوها حلوة أكلوها، وإن رأوها مرّة من أيديهم رموها، وهربوا عليها وتركوها. وغاب عن ذهن الباشا علي أن هذه الجموع ليس هم بجمع من النجوع تشملهم كلمة واحدة ولا فرقة من الفرق الغير المتناهية، فإن قتل أحد منهم اجتمعوا عليه وقالوا : يا ويلنا قتل عمّنا وابن عمنا وأخونا ولا

(128) هي الزيتونة.

نظر الباشا علي في أمره وقال : هذه الأشتات من جميع الفرق، ولا جاءني إلاّ كلّ علق، أو سارق هاربا من الشنق. [184] أو كافر هرب من الحرق، أو مخازني هرب من الخنق، أو مهر الغرب ومهر الشرق، فبهذه الأجناس اطمان وفرح وشرق.

ولما وصلت سيارة أهل القلعة الكبيرة المحال، ووصلت إلى الوطاق فاستاذنوا في الدخول على الباي حسين فأذن لهم وقال لهم : من أين ؟ فلمّا رأى لباسهم علم أنّهم من أهل السّاحل وهذه قيافتهم، فاعطوه المكتوب ففكّه [وقراه]، وعلم ما فيه وإلى جنبه القاه. فقالوا له السّيارة : يا سلطان أدركنا من هذه الأوباش التي أحاطت بنا، وإن تغافلت عن نصرتنا فلا لك لوم على قومنا، ولا تردّ العيب منّا، وعجّل لنا بالمسير، وسبّق قدامنا الخبير، يبشّر قومنا بقدومك أنت وعسكرك.

فعندها أخذت الباي حسين الغيرة على الرعيّة، وعزّ عليه ما أصابهم من البليّة، وبعث الحوانب أن ياتوه بالإبل وحضّر الأبغال والخيل، وجهّز نفسه وترك خليفة في المحال، ولده. ولما جاءت الحوانب بالإبل، سبّق الإحسان للرّجل العسكري وبعث لآغة العسكر أن عيّن لي كلّ صبّي انقشاري (129) فنبّه الآغة على الخوجات أن يدوروا على الأخبية ويكتبوا أولضشات، فقاموا وكتبوا قدر الخمسماية أو أكثر، ووصل إلى الباي حسين الخبر فعيّن لكل اولضاش جمل يركب عليه العسكري ومعه ماء يومين أو ثلاثة، وكذلك من البشماط يرفع زاده، ونبّه على جميع الصبايحية ودريد ومخازنية أن يجهّزوا أرواحهم ويرفع وراء سروجهم مؤنتهم. فامتثلوا أمره وسمعوا قوله، وباتت القوم والعسكر على هي، ينتظرون متى يركب حسين باي. فلما بان الفجر ولاح، وبنوره لاح، انتبه

(129) اوانكشاري : جندي من المشاة في الجيش التركي وقد ألغى السلطان محمود الثاني الإنكشارية إثر تمردهم سنة 1826.

الباي حسين من نومه وتوضى ودخل في صلاته ونافلته وتلا عشرا [185] من القرآن، ولما فرغ الباي حسين قدّموا له مركوبه فركبه، وأقبلت من كل ناحية حوانبه وقومه وسار وسارت قدامه وخلفه ويمينه وشماله القومان وشدت الحوايا على البعاير (130)، وقفزت فوقها أبناء الحراير، وليس معه إلاّ عدّته ومأكوله ومشروبه. وامتد القطار من الإبل، وساروا النّهار وسهروا اللّيل حتى قال قايلهم : طاحت على الأقتاب (131) من كثرة النوم رؤوسنا، وعيت الإبل من كثرة السّير وضربنا.

ولازال الباي حسين يسير اللّيل والنّهار قيل ثلاثة أيّام وقيل أربعة وقيل خمسة، وفي اليوم الذي وصل إلى الساحل، وصل قبل طلوع الفجر فنزل العسكر من قوة التّعب والقى المكاحل، ونزل الباي حسين [رحمه الله] وأقبل على صلاته إلى أن حضرت صلاة الصبح فقام وصلّى من هو طالب الرّبح، وكان بينه وبين جيوش علي باشا كدية صغيرة، فأعمى الله منهم البصيرة، لأمر قدّره العزيز الحكيم، واللّيلة الميشومة لا ينبح فيها كلب، والله أعلم.

(130) الحوايا : كساء يحشى بهشيم النبات ويوضع حول سنام البعير. والحوية لا تكون إلاّ للإبل.
(131) الاقتاب : ج قتب، آكاف صغير على قدر سنام البعير وهو نوع من البرذعة.

ذكر هروب الباشا علي وتشتيت جمعه وقتل أحمد بن متيشة وقصّ راسه :

ولمّا توارت الوجوه تقدّم العسكر وركضت الفرسان، وتكلّم البارود من كل مكان، وهجم عليهم العسكر فالكثير من جيش الباشا علي ينظر، ثم يهرب لا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يسأل الوالد عن ولده، وقال غير هذا الناقل : أتى الخبر [إلى] الباي حسين رحمه الله وهو نازل بمرادة قريب من الزواريين (132) بأنّ علي باشا ومن معه نازل بالسّاحل وهو يقصّ في الزيتون فتعيّن معه ثلاثة عشر خباء من محلّة التّرك، وسرنا معه [186] ليلا ونهارا حتى وصلنا السّاحل وقربنا من المكان الذي نازل فيه علي باشا رحمه الله، ولم يعلم بقدومنا، وكان الوقت الذي وصلنا فيه قريبا من الفجر، فنزلنا من على الإبل وتلوّحنا على الأرض من كثرة التّعب، ولمّا رآنا الباي حسين نزلنا فنزل وأمر بالسّجادة ففرشت له وقام يصلّي، ثمّ لمّا طلع الفجر صلّى صلاته. فلمّا فرغ أخذ دلايل الخيرات فتقدّم له بعض الشواش وقال له : يا سيدي نصرك الله، دلايل الخيرات ملحوق له وليس هذا وقته. ثم اركب وتوكّل على الله واهجم على هذه الاخلاط فلا يكبرون في قلبك ولا يكثرون في عينك فقال وركب فرسه ونبّه علينا فقمنا قومة رجل واحد وكبّرنا وصدمنا عليهم على حين غفلة، فاجتمعت أولاد سعيد والسّواسي والمثاليث يقاتلون قتال من يريد النجاة بنفسه وتركوا أثقالهم وخيامهم وإبلهم وكلّ شيء سلبوه للمسلمين. ولمّا رأى الباشا علي رحمه الله ما بقي معه إلاّ هذه الثلاثة أجناس، سعيدي ومثلوثي وساسي دخل وسطهم واجتمعوا عليه وترك أثقاله وأحماله وكمنيته(؟) حتى من الشمع والحلاوات تركهم، وقبّلت به الذين معه القبلة وسار ولم يقف لأحد ولازال سايرا فإذا وصل منازل أحد هذه الثلاثة تركوه وذهبوا إلى أهلهم، ولم يبق

(132) الزوارين : من ولاية بنزرت، معتمدية أوتيك.

معه من ذلك إلاّ شتات، إلاّ من هو خايف من الممات، ولازال يسير ويجدّ السّير هو ومن معه، وسمعت بهروبه الهمامة فصاروا يتبعونه وكل أحد انفرد من القوم الذين معه أخذته الهمامة وإذا عيى فرس أو جمل وتأخّر صاحبه أخذوه الهمامة وهم في أثر الباشا لا يفارقونه حتّى قيل لما أعياه أمرهم رجع عليهم والذي لحقه منهم ضربه بحربة في يده وهو معهم كذلك إلى أن وصل إلى سيدي مهذّب [187] نفعنا الله به آمين (133).

وأمّا الباي حسين سامحه الله لما هزم الباشا علي رحمه الله وتفرّقت جموعه وغنمت مما تركه الباشا علي وقتلوا من وجدوه ومن لحقوه. فلمّا فرغوا ركب الباي حسين والعسكر والقوم وأخذوا جرّة (134) الباشا علي [الى] ان وصل الباي حسين إلى صفاقس ونزل عليها. فلمّا سمعوا به أهل صفاقس خرجوا لملاقاته وسلّموا عليه وهنّوه بالنّصر، ثمّ خرجت القصاع من البلد شيء كثير، وأكل جميع من هو مع الباي حسين حتى شبعوا وأكل باقي الناس وجاءته السيارة الذين أرسلهم قدّامه يأتوه بخبر الباشا، وأين وصل. فلمّا وصل الباشا علي وأحمد بن متيشة ومن معهم إلى سيدي مهذّب ورجعت السّيارة بخبره إلى الباي حسين [رحمه الله].

وأمّا الباشا علي لّما وصل إلى سيدي مهذّب نفعنا الله به أخذ يفتّي ما في الشيخ داخلا وخارجا، قيل إنّهم حفروا ما حول قبة الشيخ وأخرجوا خزين النّاس الذي في حرم الشّيخ، ولم يكبر الشّيخ عندهم ولا حارموه ولا من نهى عن نقض حرمة الشّيخ. ولّما جلس الباشا علي وأحمد بن متيشة وتكلّموا أين يذهبوا وإلى أين يسيروا فقال له أحمد بن متيشة : نقصد الحامة ونقيموا في برجها هذه الأيّام حتى نرى أمرنا، ونعيّن وجهتنا، ونبعث إلى أولاد عمّار يرسلوا إلينا يونس، فإذا جاءنا وتهنّينا منه

(133) آمين زائدة في أ.
(134) في أ : أخذوا خبر.

فعندها يفعل الله ما يريد. فقال له الباشا علي : ربّما إذا وصلنا إلى الحامة وقصدنا حصارها فلا يساعدنا بولكباش الذي هو نوبة فيه، ونخاف أن يحصل لنا ضرر منه. فقال له أحمد بن متيشة : بولكباش الذي هو آغة البرج اسمه سليمان الصبّاغ، وهو من خواصنا وأحبابنا، وأقرب الناس إلينا ولو لم نعلمه ريشة من جناحي، ما قصدنا هذه النواحي. فاتفقا على المسير إلى [188] الحامة. ومن الغد سار أحمد بن متيشة ومعه الباشا علي (135) ومن معهم إلى أن وصلوا إلى برج الحامة، فلمّا سمع بهم سليمان الصبّاغ نزل إليهم ووصل قدّام الباشا علي قبّل يده وجرت دموعه وتحزّن على كسرته ثم قال لأحمد بن متيشة : المطلوب من فضلك وأنا غرس إحسانك ابعث معي أحدا لياتي للباشا بضيافته ويقبلها من عبده ويعذرني لأنّي في هذا البرج، قليل الحرج.

فلمّا سمع منه أحمد بن متيشة هذا الكلام تلفّت إلى الباشا علي وقال له : انهض من هذا المقام، نصعد إلى البرج ونمكث فيه هذا الأيام. فقال له الباشا علي : اسبق أنت وانظر في أحوال هذا البرج هل يصلح لنا للمقام.

وكان سليمان الصبّاغ عنده عبد ما يعرف للرّجال تعداد، كأنّه من ذرّية سليك بن سليكة (136) أو من عقب عنترة بن شداد، فلما تقدّم سليمان الصبّاغ إلى البرج قبل أحمد بن متيشة لينزل للباشا ما عنده من الضّيافة ناداه واستخلى بعبده وقال له : إن أردت أن نعتقك والباي حسين

(135) زائدة في أ : ومعه الباشا علي.
(136) سليك بن السلكة من صعاليك العرب توفي نحو 17 قبل الهجرة كان أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها وعنترة بن شداد ولد سنة 525 م وتوفي سنة 615 م من فرسان العرب وهو من اغربتهم مع السّليك.

ببعض خدمه يزوّجك إذا رأيت أحمد بن متيشة صعد إلى البرج معه اثنين أو ثلاثة فلا تمهل ولا تصبر ولا ترهب واضربه ضربة واحدة يكون فيه روحه تالفة، فإذا رأيته أنا رأسه قد قطع غلقت الباب وضربت المدفع، فقام أحمد بن متيشة وقصد البرج.

وأمّا الباشا علي رحمه الله كان قد تعب التّعب الزّايد وكثر عليه النّوم فأوصى أن لا يصل إليه أحد إلاّ إذا قدم بن متيشة [أحمد وفرش سجادته (137) ورقد عليها]. ولما صعد أحمد بن متيشة إلى البرج قيل معه ثلاثة وقيل أربعة فعرضه سليمان الصبّاغ وقبّل يده وصار يحادثه ويشغله [189] حتى دخل البيت وقعد معه وأشار إلى الوصيف أن يأتي من خلفه ويضربه. وأكثر سليمان الصبّاغ من التوجّع حتّى شغل أحمد بن متيشة فأتاه الوصيف (138) من خلفه وضربه فطاح على وجهه [فبرك عليه سليمان الصبّاغ حتى قص الوصيف راسه وجعله في يده] وأعطاه لسيده سليمان الصبّاغ فأراه للحاضرين فقامت الضجّة في برج الحامة. فغلق باب البرج، فما راع الباشا علي إلاّ بالنّاس قدّامه هاربة حتّى وصلوه، وبهذا الخبر الموجع أخبروه، فما صدّق بنجاة نفسه، حتى ركب على ظهر فرسه، وسار على وجهه لا يدري أين يذهب وهرب عنه كثير من أصحابه، ولا بقي معه إلاّ فرسان قليلة وسار طالبا نجع فرحات. وسمعت بموت أحمد بن متيشة الهمامة فلحقوه وحصروه وأخذوا عبدا من عبيده راكبا على بغلة في حملها ملبوسة وقلعوا بعض أصحابه وأخذوا فرسه وسلبه وكثر طمعهم في الباشا علي حتى طمعوا أنّهم يقلعوه، وعن فرسه ينزلوه، ويأتوا به حيّا إلى عمّه الباي حسين رحمه الله.

(137) أ : وأما الباشا علي رحمه الله تعب فرش سجادته ورقد عليها.
(138) الوصيف : الأسود.

ولمّا علم منهم هذا أخذ زغايته (139) وولّى عليهم قيل قتل منهم اثنين ورجع وتفرّقوا قدامه. ثم سار وساروا في جرّته وقد أيس الباشا علي سامحه الله من الحياة إلى أن رأى قدّامه نزلة كبيرة ولم يسمها الناقل من أي الأعراش هي، فقصدها الباشا علي يركض هو ومن معه والهمامة في طلبه غاصّين في أخذه وأسره فدخل النّزلة وقصد البيت الكبيرة فيها فوصل البيت ودخلها. فقام له صاحب البيت وقال له : لا تخف قد وصلت إلى حد المنع. [وقام] ونادى على أولاده وأحبابه [190] وعشيرته ولبسوا سلاحهم وخرجوا للقوم الذين يطردون فيه ونهروهم وكادوا أن يقتتلوا بسبب الباشا معهم، وقالوا الهمامة لذلك الرجل صاحب البيت الذي دخلها الباشا : نحن ضامنون لك مالا كثيرا قدر ما ترضى من عند الباي حسين وخلّي بيننا وبين هذا الرجل علي باشا نبعثوا إلى عمّه حسين باي ياتينا أو يبعث إلينا قوما معهم المال ونعطوه ابن أخيه وتحصل لنا الرّاحة ويرفع عنا حسين باي جميع المطلب ونستغنوا غناء ليس وراءه فقر. فقال لهم صاحب البيت : هذا لا يكون أبدا إلاّ أن تجرّ الكلاب برجلي ويقتلوا أولادي قدّامي، وتفنى عشيرتي وخدّامي، فعندها اصنعوا ما أنتم صانعون.

فحاولوه على أن يأخذوا شطر المال ويأخذ هو شطر المال فأبى عليهم، فحاولوه على الدّفع فلم يقبل منهم. ولما رآهم تلككوا (140) عليه نادى في أولاده قيل خمسة وقيل ستّة فرسان سوى أبناء عمه وأظهاره وأنسابه وأبناء عشيرته فركبوا خيلهم وأخذوا سلاحهم ونذروا على الطّالبين للباشا علي أنّ هذا الرّجل هارب بالرّوح إلينا، ودخل نزلتنا وقصد بيتنا فإن نحن فيه سلمنا ولكم أعطينا، فهو إلى يوم القيامة عار علينا، فارجعوا عنّايا إخواننا.

(139) الزغاية : الحربة أو الرمح.
(140) تلكك عليه : أضجره وفي أ : تلددوا.

فرجعت القوم على بعضهم بعضا وساروا وتركوه، ولما ذهبت القوم دخل صاحب البيت إلى الباشا علي وهنّاه فقال له الباشا علي : يا شيخ فلان ما يحصل لي الهنا وترتاح نفسي وعلمت أنك في حياتي وخلاصي أن تقعد ونجعل راسي على فخذك ونرقد وياخذني النوم فعندها تعلم أن من هذه المحنة قد تخلّصت، [191] فهنّاه صاحب البيت فلم يتهنّا حتى قعد ونام على فخذه [فحضّر الغنم فذبحت وطيبوا الطّعام وفي القصاع حضرت] وأكثروا الحسّ والكلام، لأجل أن يفطن الباشا علي [من المنام]. فلمّا فاق من نومه داروا به أصحابه وقدّموا لهم الطّعام وأكلوا والحاج مصطفى بن متيشة راسه على ركبته، مشتغل بمصيبته، فكانوا ثلاثة رجال مات أخوه بوبكر في وسلات وقتل أبوه في برج الحامة وبقي الحاج مصطفى فريدا ويأتي إن شاء الله خنقه وموته.

فلمّا رآه الباشا علي على هذه الحالة قرّبه وصبّره ووعده : وأنا أبوك وأنت ابني ورابع ولدي ومصيبتي أنا في والدك أعظم من مصيبتك، وحلف عليه أن ياكل الطّعام، فامتثل أمره وأكل وأقام الباشا علي عند ذلك الرجل (141) في أكرم مقام. ومن كثرة ما عمله ذلك الرّجل معه من الخير وخلّصه من الموت يتلهّف الباشا علي ويقول لذلك الرجل : يا هل ترى إذا ملكت تونس بماذا نكافيك وما نعطيك، وأيّ شيء يسترني منك وعلى فعلك نجازيك، ولكن يا حاج مصطفى اكتب له تذكرة واكتب فيها اسمه واجعل فيها أمارة واعطها له ويستحفظ عليها، فإذا ملكت كرسي تونس ياتيني بها. فامتثل أمره الحاج مطصفى وكتب له ما نصّ عليه الباش علي وما قاله وطواها في كاغظ آخر، وللرجل مدها فخباها.

ولمّا أراد الباشا علي المسير قاصدا فرحات في نجعه رأى ذلك الرجل فرس الباشا في ظهرها دبر من السّرج قد ضامها وكانت عنده ثلاثة

(141) ص : عندك.

أفراس مراكيب مهجورة في البيت، فلما أراد الباشا علي الركوب حلف عليه ذلك الرّجل أن يختار من هذه الأفراس ما يعجبك، وإلى نجع فرحات يوصلك، لأنّ فرسك قد ضامها [192] الدّبر، وربما يطول بك المسير فيحصل لك الضرر. فامتنع الباشا علي من أخذها وهو يتعذّر وهو يقول : ياالله بها عجّل. فقام صاحب البيت وأخذ سرج الباشا علي وشدّه على فرسه. قبيل لونها شقراء صاحبة غرار، وركب الباشا وركبت معه أصحابه وركب ذلك الرّجل معه أولاده وأحبابه وفرسان نزلته، وداروا بالباشا علي يمينا وشمالا وخلفا وقدّاما، وساروا معه حيث طابت خواطره وحصل له أمنه، فعندها أذن لذلك الرجل في الرجوع إلى أهله وحلف عليه الباشا أن يرجع، فودّع الباشا علي وقبّل [يده وكذلك نزلت أولاده وودّعوا الباشا علي] وقبّلوا ركبته وسلّموا على الحاج مصطفى، ومن ذلك المكان افترقوا فقصد الباشا علي نجع فرحات ورجع الرّجل سالما من البليّات.

وأحببت أن أذكر تمام حكاية هذا الرّجل، وما كافاه به الباشا وله حصل : ذكر النّاقل أن من قوة تحذّرات الباشا علي وما يتخيّله أنّ الباشا علي لمّا ملك البلاد، وأطاعته العباد، وسمع ذلك الرّجل بدخول الباشا علي لتونس، هو وولده يونس، والحاج مصطفى خزنادار، وهو راس الأمار، غلب على ذلك الرجل الطّمع الموصل للمهلكات، ففكّر في المسير إلى تونس ثم اشتغل عن ذلك مدّة قليلة ثم عاوده الطّمع وفكّر في القدوم إلى علي باشا فجمع ولده وأخبرهم أنّه ساير إلى الباشا علي نوصّل له فرسه التي تركها عندي ونرفع معي فلانة زوجتي، فقال له أكبر أولاده : يا أبت مالك ولأمر لا تدري عاقبته ولا تعلم خيره وشرّه، فان كنت طامعا في مال من هذا السلطان فقدّر ما يعطيك وعليّ الضّمان، ونحن بحمد الله ماله علينا سلطان، ونحن في مكان، وهو في مكان، فارجع عن هذا الراي الغير الصايب، وأرحنا من المعاتب، فان خصّك بشيء [193] مما

تحبّه، فانا لك معطيه ولبيتك جالبه، واقعد في بيتك، واقبل على عبادتك، وأنت ما بقي لك إلاّ لقاء الله، وحسن الخاتمة تترجّاه. فقال له والده : إنّ نفسي على هذا المسير تنازعني كثير، وليس يصدّني عنه كبير ولا صغير، وأظنّ أنّ أجلي ساقني إلى قبري، بغير هذا المكان وحصري.

فشدّدوا عليه أولاده وحذّروه فلم يقبل منهم، فعلى قصده تركوه، وجهّز نفسه وركّب على جملها زوجته، ورفع هديّة للباشا علي ترفع عند الباشا منزلته. وركب وسار يقطع القفار، يرتاح باللّيل ويشقى بالنّهار، وتمّ سايرا إلى أن وصل باردو ودخل معه زوجته إلى أن وقف في البطحة وأخذ الإذن على الحاج مصطفى بن متيشة وهو إذ ذاك في عنفوان عزّه عند الباشا، فأمر الحاج مصطفى بعض خدامه أن يدخل عليه هذا الرّجل وياتيه به فخرج إليه الخديم، وأذنه بالتّقديم، فتقدّم قدامه وعلى الحاج مصطفى أدخله، فلمّا رآه من بعد عرفه، فلمّا وصل إليه الرّجل قام له وسلّم عليه وأكرمه وإلى جنبه أقعده، وجعل يسأله عن أولاده وأهله حتى ذكر له زوجته أمّ أولاده فقال له الرجل : قد قدمت معي وهي عند الرّجل تنتظر مجيئي اليها ورجوعي. فلمّا سمع منه الحاج مصطفى هذا الكلام أمر خدامه أن ياتوه بالهديّة، فإذا فرغوا منها يرفعوا ذلك المرأة إلى داره وبعث لقايد داره فأتاه فلمّا وقف بين يديه قال له : هذه المرأة ارفعها [142] إلى الدار وقل لهم يكرموها ويأخذوا بخاطرها كثيرا، ثم دخل إلى علي باشا فأخبره خبر الرّجل صاحبهم وأخبره بما أتى معه من الهديّة، فإن أذنتني أن أدخله عليه فقال له الباشا : آتني به. فرجع الحاج مصطفى إلى البيت ثم نادى على الرجل ودخلا [194] جميعا على الباشا، فلما وقف بين يديه وقبل رجليه بشبش به الباشا ثم قال له : يا شيخ فلان مازلت حيا. فقال له الرجل : ببركتك يا سيدي. فقال له الباشا : تموت

(142) ص : ارفع هذه المرأة. أي أوصلها.

الطاحون وأنت لم تمت. قال الحاج مصطفى : فلمّا سمعت هذا الكلام من الباشا ارتعدت فرايسي، وغبت عن حسّي، وقطعت بأن لا خير في هذا الرّجل وأيست من نفسي، وأني مأخوذ غدا أو أمس، ثم إنّ الباشا رجع عن نفسه وتكلّم مع الرجل وسأله عن حاله وأحوال أولاده وأخبر الرّجل بأنّه قدم معه زوجته ثم التفت إلى الحاج مصطفى وقال له : يكون عندك في البيت، ورد بالك منه حتى نلتهى به، فقام الحاج مصطفى وأقام الرجل ودخل البيت، وبعد إقامته ثمانية أيام أو عشرة أيام قلق الرجل وتكلّم مع الحاج مصطفى في الرّجوع إلى أهله : فإن كنتم مشتغلين في هذه المدّة إن شاء الله نرجع إليكم في زمان آخر، وفضلك ومروتك أن تأذن الباشا يسرّحني إلى ولدي وأهلي. فقام الحاج مصطفى ودخل على الباشا وأخبره بما قال ذلك الرجل. فقال له الباشا : ايتني به. فرجع إلى البيت وقام الرجل معه حتى وصلا الباشا فأذن للرجل في الجلوس فجلس ثم حادثه الباشا ولان له جانبه واعتذر له بأنّ هذا الفصل غير لاهي بك واعذرنا وأنت تسمع ما حلّ بنا من نفاق نصف المملكة علينا وإن شاء الله نلتهي بك ونكافيك على فعلك وعلى إحسانك نجازيك. فأجابه الرجل وقال له : هناؤك وراحتك أحبّ إليّ من حياتي ولكن المطلوب من سيّدي أنّك تأذن لي في السّفر إلى أهلي. فقال له الباشا : أقم عندنا هذه الأيام وإن شاء الله نشتغل بك ونجّهزك وترجع إلى أهلك بسلام [195] ثم غمز الحاج مصطفى [أن يقوم من عنده فقام الحاج مصطفى] وقام الرّجل وقد ندم ندامة الكسعي لا يعرف أين يذهب ولا يعي فصبر مدّة وهو يتقلب على الجمر، وهو لا يعلم حال زوجته ولا ياتي منها إليه خبر ثم تكلّم مع الحاج مصطفى وقال له : يا سيّدي أريد منك ومن فضلك وإحسانك، وطاطى على رجله وقبّلها وبكى وسالت دموعه على خدّه وشكى فرقّ له الحاج مصطفى فما أفاده إلاّ أن حوقل ونهض ودخل على الباشا وأخبره ببكاء الرجل وتضرّعه فبعث إليه مملوكا فأتى به وأذن له الباشا بالجلوس فجلس

وهو ساكت لم يرد جوابا. فلما رآه الباشا على هذه الحالة قال له : يا شيخ فلان أنت في مدّة قليلة قلقت ولا في باردو تنزّهت، وفي تونس تفرّجت وأنت إذا تسمع ما أحبّه إليك وأريد راحتك وأنت رجل كبير ما يصلح بك إلاّ الرّاحة والأكل والشّرب والعبادة في جامع الزّيتونة وأنا قد أعطيتك دارا وفراشا وخادما وفي كل شهر مؤنة. قال له الرجل وقد أيس من الخلاص، وقد علم أنّه حصل في يد القنّاص : يا سيّدي طير البحر ما يالف البرّ، وطير البرّ ما يالف البحر، وأنا رجل متربّي في السّحاري والقفار، ولا أعرف جامعا ولا من في الدار، أطال الله عمرك عرّفني ما الدّار هل هي خيمة أو بيت من الشّعر، ولكن يا سيدي علي باشا بالله عليك افعل لي ما أنت فاعله وأرحني من طول الانتظار وعواقبه، فإن كنت ساجني [فعجّل بي وإلى الزندالة ارفعني وإن أردت سراحي سرّحني] فقال له الباشا علي : حيث أنك اخترت السجن والزندالة فما علي ملامة. ارفعوه إلى الزندالة واخرجوا من دار الحاج مصطفى عياله. فرفعوه الحوانب، منطبقة عليه من كل جانب، وأدخلوه إلى الزندالة، وفاعل الخير هذا [196] ماله.

فلمّا رفعوه من قدّام الباشا الحوانب، بهت الحاج مصطفى وصار عن نفسه غايب، فنظر إليه الباشا علي وقال له : يا حاج مصطفى أظنّك قلت هذا الفعل ليس بصايب، ويخلّف العار والمعايب، وأنت لم تقرا للأمور عواقب، وأظنّك رجل غايب، أنت ترى ما حلّ بنا، ونصف المملكة منافق علينا، وأولاد حسين باي دايرين بنا، فهم دايرون بين بو عزيز وأولاد عمّار والنمامشة وجلاص والهمامة وربما يقلّ حالهم، وتهرب عليهم قومهم ورجالهم، كما جرى لي ولك [وأنت رأيت مانابك وما أصابك وبقينا هاربين وعلى الموت عاملين، حتى وصلنا إلى نزلة هذا الرجل ونحن من

الحياة آيسين ودخلنا بيت هذا الرجل، وقد حضر منا الأجل، فقام هذا الرجل دوننا وحمانا بأولاده ومنعنا بعشيرته]، ومن الجايز أن يحلّ بأولاد حسين باي ما حلّ بنا ويصلوا إلى نزلة هذا الرّجل ويدخلوا بيته فيحميهم كما حمانا، ويحبيهم كما أحيانا، فيزداد تعبنا وشقانا وكما جاز على المثل يجوز على المماثل، فأردت حبسه وحصره حتى ينفذ الله أمره والدّراهم تمسح مابه تلوثنا. فإذا خلا لنا الجو بضنا وصفرنا، وهذا الرجل سرّحنا، فقال له الحاج مصطفى : ما نحن إلاّ عبيدك وأنت وما يظهر لك.

وبقي ذلك الرجل محبوسا تاتيه زوجته إلى الزندالة، فتناديه فيقف لها عند الطاق فيتباكيا بدمع ليس منه ملالة، ويتوجّعا من جرح ليس فيه دمالة.

هذا ما ذكره الناقل وأنا في هذه الأوراق سطّرته ولم يزدني على ما نقلته، ولا ندري ما كان في هذا الرّجل وما صارت إليه عاقبته، إمّا في الزندالة حضرت منيّته، أو الباشا علي الله يسامحه، أطلق هذا الرجل وسرّحه، والأمر كلّه بيد الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ذكر قصّ راس أحمد بن متيشة ورفعه إلى كل قرية بعيدة أو قريبة ليرتدع به قلب كلّ من له عليه حسيفة [143]

اعلم أنّ هذا أحمد بن متيشة كانت [197] له جماعة مثل الزّين بن يزة وغيره دايما خارجين عن الطّاعة، ومهما قامت فتنة إلاّ وهم في أولّها، أو نفاق قبيلة هرعوا إليها، ودخلوها حتى تولّى حسين باي سامحه الله البلاد، وأطاعته العباد، فنصب لهذه الجماعة الأشراك، ولان لهم الأعراك، حتّى حصلوا في الشبّاك، وخلد سجن بعضهم لبس فيه فكاك.

وأمّا أحمد بن متيشة فجاء للباي حسين رحمه الله من ذنبه تايبا، وعلى نفسه عاتبا، فقبله الأمير حسين رحمه الله ووظّفه وأولاه خوجة زواوة، وظنّ الأمير حسين أنّه أقامه مقامه، وهذا الرّجل لم يخل من قلبه غشّ، وهو دايم يحرك بذنبه من له عشّ [144] حتّى وقع بين علي باشا وعمّه حسين باي ما وقع كما هو مذكور في أولّ هذه الأوراق، فأقام النّفاق، وركب ساق على ساق، فجازاه الله أولا بموت ولده بين أهل الشّقاق، وأخذه الله في برج الحامّة بضرب العنق، ولما قصّ راسه سليمان الصبّاغ هرعت إليه الفرسان من كل مكان وملّح الرّاس، وركبت الخيل فأعطاهم راس بن متيشة ودخلوا به اللّيل يذرعون الأرض بقوايم الخيل، ميلا بعد ميل، إلى أن وصلوا صفاقس، فوجدوا فيها الباي حسين حابس، فلما رأى ركض الفرسان، رجف منه الجنان، وأمر من عنده من الفرسان، أن ياتوه بما صار وما كان، فركضت الفرسان، وعرضوا ذلك القومان، فأخذوا منهم الخبر بقتل أحمد بن متيشة، وها هو راسه عندنا بعثه الصبّاغ سليمان فأوّل مبشر للباش حسين رحمه الله أغناه، ومن همّ العيلة

---

(143) الحسيفة : الغيظ.
(144) في أ : غش.

كفاه، وثاني مبشّر أعطاه ما أرضاه من المال، وكفاه نفقة العيال، ووصلته السيّارة بالرّاس وحطّوه بين يديه فعرفه وقال لهم : ارفعوه ودوروا به على المحلّة على النّاس، وخذوا الدّراهم على الرّاس، [198] فداروا به على كلّ خباء وياخذوا البشارة من كل بلوكباش أو اوضباشي أو رافع خباء حتى داروا به على دور المحلة ورجعوا إلى الوسيطة، فمن لم يعط شرها وفرحا يعطي غصيبة، ثمّ أمرهم الباي حسين أن يرفعوا الرّاس على رمح ويدخلوا مدينة صفاقس ويجعلوا قدّم الراس براح وينادي : هذا جزاءُ من أفسد الصّلح، وخان الملح، ودخل بين الثّياب والشبح. فدخلوا السيارة المدينة وفعلوا ما أمرتهم به السّلطنة، ورجعوا بمال كثير، من عند الغنّي والفقير، ثم أمرهم بالمسير إلى سوسة والمنستير، وإلى الساحل والعربان، ثم يدخلون به مدينة القيروان، فإذا فرغوا منها جهّزهم عامر باي إلى تونس فوصلوا إلى القيروان وأقاموا بها وجمعوا من النّاس الدّراهم والفلوس ساروا بالراس إلى تونس، ويوم وصول الراس، اهتزت من الأدنى إلى الراس وداروا به في الأسواق ثم على ديار الأكابر ثم رفعوه إلى باردو لكي تراه النّساء، ويعطون عليه الجزاء.

فعندها أيقن الباي حسين رحمه اللّه أنّه لم ينزل عن كرسيّه ولم يهتز به عرشه، ودعا لسليمان الصبّاغ بخير، وأعطاه من كلّ شيء كثير. وتجدّد للأمير حسين السّرج، وخافه كلّ صاحب صحراء وصاحب جبل ومرج، والتفت إلى مملكته وهزّ رمحه وجعل يده على خاصرته ووقف على ساق وقال : أين تذهب أهل النفاق، وأين تروح أصحاب الشّقاق، وطال ما اتبعوني، ولمالي خسّروني، وبرجالي فجعوني، كلاّ لا وزر، أين المفر ؟ يا من نافق وغدر ؟ ورجع إليه كلّ من كان هاربا، وفي البلاد راغبا، ولمّا خلا له الجوّ عيّن لكلّ عرش قواد وحوانب، وأعطاهم الدّفاتر والمكاتب، يخلصون عليه المال الذي رمى على الأعراش، وعلى كل من نافق وجاش،

وبعد فراغه مما خطّى به الرّعية، رجع قافلا [199] وقد طالت له الغيبية، قبل غاب عامين، وقيل أقل بل بنقص شهرين. ولمّا أراد القفول إلى تونس وكانت معه ثلاثة عشر خباء كما تقدّم من العسكر بعث للأوضباشية وقال لهم : إذا سرت ارجعوا أنتم إلى المحلّة.

ولما طلع النّهار وسار حملت الأوضباشية أحمالها وأخذوا ثنية المحلّة فقالت الإيولضاشات : ما لنا ولها. وأخذوا جُرّةَ الباي حسين وتركوا الأخبية وأثقالها، فردّوهم الأوضباشية [فلم يسمعوا كلامهم فتركوهم وقصدهم ولازالوا سايرين إلى أن وصلوا تونس شطر الليل فأقاموا على الأبواب وتكلّم من أيديهم البارود، واللّيل كلّه غير رقود، ولما حلّت الأبواب] دخلوا ديارهم وسلّموا على الأحباب وسمع بهم الأمير حسين وبقدومهم، فلم يعنّفهم وعذرهم وقال : قد طال سفرهم وأوحشتهم أولادهم وعيالهم وهذا حال الغايب. ففي الحين فرش لهم السفرة وأعطاهم الراتب.

وأمّا الباي حسين دخل إلى باردو وأعطى النذاير، للشيّخ سيدي عبد القادر، وأعطى للفقراء والمساكين، وتصدّق على من في الأحباس من المساجين، وزارته أحبابه وخافته حسّاده. وكان قد قرب خروج محلّة الصيف فعيّن للخروج بالمحلّة وزيره الأعظم قاسم بن سلطان، وكان عنده في مكان ومكانة وتخلّف عن السفر حسين باي، لما أصابه من التعب والعي، وقبل عند رجوعه إلى تونس لما جاءه الدولاتلي كعادته المعلومة أمره : إذا وصلت إلى دار الحكومة ابعث للحاج علي منتشالي بعض خدامك، ولا تبعث له أحدا من حوانبك فإذا حصل عندك في الدار فعجّل بخنقه فإذا مات فابعثه إلى أهله.

فلما طلع الدّولاتلي من باردو لم يبعث له في يومه، ومن بعد الغد أرسل له بعض خدامه أنّ الدّولاتلي يأمرك أن تقف عليه لأمر يريد أن يأمرك به، كان هذا الحاج علي منتشالي. [200] محسوب من أولاد

الدايات، وكان فاقدا إحدى كريمتيه وداره معلومة في تونس وله جماعة في هذه الفتنة يأتونه بأخبار الباي حسين رحمه الله والباشا علي سامحه الله وما جرى وما صار وكان له ابن آخر اسمه محمد المنتشالي صاحب خلق وخلق، كريم الأنفاس، متواضع للناس، فلمّا رأى عمّه تجتمع هذه الجماعة عليه ويأتونه بالأخبار، في اللّيل والنّهار، وكان هذا الرجل -أعني علي المنتشالي- صاحب شيبة ولحية كثيفة، وكان صاحب نفس أبية ولسان طويلة وسوء خلق، غير متواضع للخلق، وعنده ميل ظاهر إلى علي باشا سامحه الله، ويتمنّى توليته مملكة تونس ويهضم جناب المعظّم حسين باي رحمه الله، وإذا أتوه ذلك الجماعة بخبر هزيمة جيش حسين باي فيروا منه سرورا عظيما، وإذا جاءه أحد أخبره بهزيمة علي باشا رحمه الله وهروب جيشه يتألّم تألما أليما، فلمّا رأى عمّه هذه الحالة خاف سوء عاقبته، وكان الإثنان يسكنون في دار واحدة، ودريبة واحدة، والدّار معلومة يعرفها كلّ أحد، استخلى بعمّه وحذّره وقال له : مالنا ولأمر ليس هو من شاننا، وما لنا وللدخول في أمر لا يعنينا، ولا ينفعنا ولا يضرّنا، ونحن بفضل الله أولاد داي كأبناء عمّنا، انظر هل اشتغل بهذا الأمر من أبناء جنسك غيرنا، والمتولّي لتونس هو حاكمنا، وأنت يا عم سعيت الآن في قتلي وقتلك والله يعلم أنّي بريء من ذلك، ولو لم تكن فيك غفلة وحماقة ما كنت تطلع أحدا على ما في قلبك ويتكلّم به لسانك، وهؤلاء الجماعة الذين يأتونك بالأخبار، وأكثرهم من الفجّار، فإن راوا منك حسنة أخفوها، أو سيئة أشاعوها، وأنا بريئ مّما أنت فيه [201]، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وهذا التّنذير وقع لعمّه من ابن أخيه بعدما شاع الخبر وذاع، ولا بقي ينفع فيه ترقاع، ووصل الخبر إلى الحاج سليمان كاهية أنّ علي المنتشالي هو راس المهجرسين في هذه المدينة، فكتب الباي حسين رحمه الله وأعلمه

بمن في تونس من المهجرسين وسمّاهم له، منهم الرصّاع، وميندس والحاج محمد النقبي وراسهم الحاج علي المنتشالي، وغيرهم حتّى من النّساء، فكتم هذا الخبر الأمير حسين، لأنّه غير مشغول به وأخفاه في الكمين، إلى أن ذهب الباشا علي إلى الجزاير، وقصّ راس أحمد بن متيشة كما تقدّم ذكره، وصفت له البلاد، من العناد، رجع قافلا إلى تونس وارتاح وتفكّر أوجاعه. وظنّ الحاج علي المنتشالي أنّه لم يبلغ للباي حسين خبره من خسّة عقله وقعد مطمئنّا في داره فعاجله القضا، بما سبق في علم الله ومضى، فلمّا وصل إليه خديم الدّولاتلي وأخبره بما أوصاه به الدّولاتلي كما تقدّم وقف ولبس نعله وسار مع الخديم إلى أن وصل إلى محلة الدّولاتلي، فأخذ الإذن ودخل وسلّم على الدّولاتلي وجلس حتى حكم الدّولاتلي بين النّاس ورجع كلّ أحد إلى مكانه وبقي الحاج علي ينتظر من الدّولاتلي ما يأمره به، والدّولاتلي يتشاغل عنه وتارة يصفرّ وجهه وتارة يحمّر منه إلى أن جاء الشاوش وأمر الحاج علي المنتشالي بالقيام فقام وسار مع الشواش في وسط (145) الدّولاتلي فأدخله بيتا وكان الدّولاتلي أمر النّصارى قبل قدوم الحاج علي أن يجلسوا في البيت ومعهم القرنب وهو حبل رقيق من كتان، وأوصاهم إذا دخل عليكم القادم إليكم فعجّلوا بخنقه، فإذا مات فاتوني بخبره لنرسله إلى أهله، ولمّا حصل في البيت عاجلوه النصارى وأقعدوه وجعلوا القرنب في رقبته وخنقوه والعياذ بالله ومن مكره.

فلما برد خرجت النصارى [202] لعنهم الله، إلى الدّولاتلي وأخبروه فأمر بحمله إلى داره فما راعهم مساكين إلاّ بدخول سيّدهم ممدود بين أربعة أو اثنين فسبلوه (146) في بيته وقطعوا بالسّكين القرنب من عنقه وغسلوه وكفنوه وفي تربتهم دفنوه رحمه الله ورحم جميع من هو مظلوم.

(145) اي علويّ.
(146) سبلوه : مدّوه.

[ضرر اللسان أو خبر وفاة ابن السكيت :]

واعلم يا أخي أنّ المصيبة العظمى كلّها من اللّسان، قيل سأل اللسان الجوارح : هل أنتم بخير ؟ قالوا له : إذا سلمنا منك. وقال الشاعر :

فعثرة اللسان تبري رقبة الرجـل * وعثرة الرّجل تبرى على مهـل

اللّهم أجرنا من عثرة اللسان، واسترنا بسترك يا ذا الفضل والإحسان، إنّك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وعلى آله البشير النذير.

قيل إنّ أحد خلفاء العباسيّة رزقه اللّه أولادا وبلغوا من التعليم، فأمر أن ينظروا من هو أعلم من في بغداد، وكان في ذلك الزمان أعلم من في بغداد ابن السكيت (147)، ولا سمي بهذا الإسم إلاّ لكثرة سكوته، وكان كثيرا ما يتمثّل بهذا البيت السابق فأتوا به الخليفة العباسي فاستخبره فوجده غاية في كلّ علم فأعجبه واتخذه معلّما لأولاده. وكان هذا الخليفة العبّاسي يبغض الإمام علي رضي اللّه عنه وكرّم وجهه (148) ويستنقصه فدخل الخليفة العباسي يوما إلى المحلّ الذي فيه ابن السكيت يقري فيه الولدين ابني الخليفة. فلما رأى الخليفة دخل عليه البيت قام على قدميه وقبّل يديه وبقي واقفا حتى أمره الخليفة بالجلوس، فجلس على ركبته طارقا براسه إلى الأرض، مكتّفا يديه، ناظرا إلى الأرض بعينيه. فلمّا اطمان بالخليفة المجلس، سأل ابن السكيت عن ولديه وكيف حالهما وفهمهما وهل فيهما قابلية للتّعليم فأجابه ابن السكيت [203]

(147) ابن السكيت : يعقوب بن اسحاق أو يوسف، إمام في اللغة والأدب، تعلّم ببغداد واتّصل بالمتوكّل العباسي فعهد إليه بتأديب أولاده وجعله في عدد ندمائه ثم قتله في هذا الخبر، فأمر الأتراك فداسوا بطنه أو سلّوا لسانه وحمل إلى داره فمات. من كتبه : إصلاح المنطق، والألفاظ، وشروح عديدة لدواوين. توفيّ سنة 244 هـ.
(148) الترضيه والتكريم زائدان في أ.

وقال : واللّه يا أمير المؤمنين ما رأيت ولا سمعت بأفهم من هذين الولدين، ولقد كنت ألقي عليهم السّؤال فيجيبان عنه قبل تمام السّؤال اللّه حافظهما، اللّه يبارك لك فيهما، ومن أعين الحسّاد يسترهما.

فلما سمع الخليفة من ابن السّكيت هذه البشارة سرّ سرورا عظيما، وفرح فرحا فخيما، ووهب لابن السكيت مالا وعقارا وملبوسا جسيما، ثم أخذ يبسط مع ابن السكيت وقال له : يا إمام الوقت هل تحبّ ولدي أكثر أم الحسن والحسين أبناء فاطمة. فلمّا سمع ابن السكيت هذا الكلام من الخليفة العبّاسي دخلت عينه في راسه، واصفرّ وجهه وأزبدت شواربه وقام شعره ونظر إلى الخليفة نظرة منكرة ووقف وقفة مستعجلة وقال للخليفة : واللّه العظيم ورسوله الكريم، وحقّ زمزم والحطيم، إن [قنبر] (149) خادم الإمام علي بن أبي طالب أفضل عندي وأحب إلي منك ومن ولديك.

فاستشاط الخليفة غيظا، ولم تسعه سماء ولا أرضا، وأمر بخدّامه أن يمسكوه، ومن قفاه لسانه يسلّوه. ففعل به ما أمر الخليفة به فخرجت روحه، فمن رجليه جرّوه، وعلى مزبلة ألقوه، فسمعوا به أهله فأتوه، وإلى داره رفعوه، وغسلوه وكفّنوه، وفي قبره دفنوه.

انظر يا أخي عثرة اللسان أين وصّلت هذا الإنسان، وكان يتخلّص من الخليفة بجواب إحسان، ولا يقع في هذا الشنآن (150)، واللّه أعلم، وبغيبه أحكم.

(149) يروى أن خادم الإمام علي رضي اللّه عنه هو قنبر.
(150) من شنأه : ابغضه مع العداوة وسوء الخلق.

[خبـر محـمـد النـقبـي وسبب قتله :]

وأمّا قصة الحاج محمّد النقبي فإنّه كان من خواص الباي حسين وجلسايه ويسفر معه محلة صيفة ومحلة شتائية وكان رجلا طويلا ذو لحية طويلة، الغالب عليها الشّيب وكان له صوت حرش ومن دار قديمة موسومة بالقيادة، وأوايله كلّهم قوّاد من زمن محمد بن مراد، سامحه [204] الله أو من قبله، وكان على ما قيل -والله أعلم- أنّ جدّهم الأول وجد كنزا فيه مالا كثيرا، وحار جدّهم كيف يأكل هذا الكنز العظيم، فدبّر وفكّر أنّه يخدم البايات ويستلزم عندهم القيادات، ويكرم أصحاب الدولات، ففعل ما فيه فكره وكثرت أصحابه وخدامه وتبّاعه وأخذ ياكل من ذلك المال، ويعطي منه إلى الرجال، ومات وهو على هذه الحال، فخلفه ولده من بعده وسلك سنّة أبيه وهلمّ جرّا إلى أن ولد الحاج محمد النقبي، وأنا أعرفه كم من مرّة رأيته فاقتفى آثار آبايه وأجداده وتقرّب من الأمير حسين حتى صار من جلسايه وخواصه.

قيل سبب قتله أنّه بلغ للباي حسين أن كبيرة مامية زوجة الأمير علي باشا لمّا تغيبت في تونس هي وولديها محمد وسليمان رحمهما الله تعالى كما تقدّم، أول دار دخلت ومكثت بها دار الحاج محمد النقبي ومكثت بها مدّة طويلة، والباي حسين يفتّش عليها وهي في داره ولم يخبره بها ونقلها إلى دار أخرى لمّا خاف على نفسه واتخذ جانبا أبيض وجانبا أسود، فظاهره مع الأمير حسين وباطنه مع الأمير علي باشا سامحهما الله. وقيل جاء بعض الجواسيس من جبل وسلات لمّا دخله المرحوم علي باشا وأخبر ذلك الجاسوس الباي حسين أنّه قدمت هدية من مدينة تونس، ملابس وسروج وعدد[151] من عند الحاج محمد النقبي. فهذا كان سبب قتله وخنقه في باردو، ولا نعلم أنّه قتله الأمير حسين لما رجع قافلا إلى تونس

---
(151) أي عتاد حربي.

أو بعث قبل ذلك لولده الأمجد الباي محمد وهو غايب في المحلة والله أعلم أيّهما كان، وهذا ما في علمي كتبته، وبهذه الأوراق سطّرته.

قيل لمّا دخلت عليه النصارى ومعهم القرنب ليخنقوه به [205] استاذنهم أن يوخروه ساعة حتى يتوضى ويصلّي ركعتين فأجابوه إلى ذلك وأتوه بماء فقام وتوضى وصلى ركعتين، فلما فرغ من صلاته أخرج منقالة من شونه وكسّرها وألقاها في الابانده[152] وغطّسها وقيل كان في إصبعه خاتم فصّه ياقوت له قيمة من المال، فنزعه من اصبعه وكسّره وفي بيت الماء رماه، ثم تقدّمت إليه النّصارى وخنقوه، وعلى حصيرة تركوه. ولمّا قطعت منه الأنفاس نزعوا القيد من رجليه واستاذنوا الباي فيما يامر به فأمرهم أن يرفعوه في كريطة إلى داره، فوصلوه ميتا إلى داره واجتمعت أبناؤه وغسلوه وكفّنوه، وفي قبره دفنوه، رحمه الله كان مظلوما. [آمين].

ولما تحقّق عند الكبير والصغير، والرّفيع والحقير، أن الباشا علي قصد الجزاير كما ياتي عن قريب إن شاء الله مالت أصحاب الأمير حسين رحمه الله وخواصه إلى المتنسبين إلى الباشا علي سامحه الله واتخذوا عندهم يدا ويبعث لهم ولعيالهم الملابس والمؤنة سرّا [لأمر ما جدع قصير أنفه][153]، فإذا ملك البلاد علي باشا يجازوهم ويكافوهم وكما أعطوهم يعطوهم، والذي في علم الله وفي غيبه لم يطلع أحد والله أعلم.

---
(152) المرحاض كما ترجمت إلى الفرنسية.

(153) هو مثل يضرب لمن يحمل نفسه على مشقّة عظيمة لنوال بغيته.

[خبر الحاج محمد الرصّاع وصلته بالحفصيين]

ومن أكابر المهجرسين الحاج محمد الرصّاع، [أدخل نفسه في أمر ليس هو طريقه ولا وظيفه، وهذا الحاج محمد الرصّاع] أصله من بيت كبير، قيل جده الأول كان وزيرا عند أحمد أو محمد الحفصي الأخير، أحد أمراء تونس سابقا (154)، وكان للرصّاع ولدان ولحاكم تونس محمد الحفصي بنتان، فزوّج الأمير بنتيه من ولدي وزيره الرصّاع، فواحدة من البنات دخل بها زوجها والحاج محمد الرصّاع هذا المذكور من ذرّيتها. ولما ملكت الترك تونس وجدوا بنات الحفاصة موجودة في تونس فاجتمعت النساء ثيبات (155) وابكار وشكوا حالهم إلى حاكم الترك، وقالوا لهم : ان رجالنا قتلت، وأموالنا تفيّت وضاعت، وأخرجونا [206] من ديارنا، ولا ندري كيف يكون حالنا، فيا حاكم الوقت دبّر علينا.

فرق لحالهم حاكم التّرك وجعل لهم راتبا لكلّ واحدة من بنات الحفاصة الأحرار، يأخذونه من دار الباشا بعد أن تقام السّفرة ويفرغوا من راتب التّرك. وللنّساء أيضا عوايد من القمح يأخذونه والله أعلم كذلك الزيت لهم عوايد ياخذونها. وكتب لهم حاكم الترك وسجّل لهم إذا ماتت واحدة من بنات الحفاصة وتركت ذرية فهم يرثونها في مخلّفها من عادتها، وهي هذه العادة باقية إلى يومنا هذا وسنتنا هذه وهي سنة سبع وسبعين وماية وألف [1177].

(154) محمد الحفصي ابو عبد الله من أواخر الخلفاء الحفصيين الذين حكموا تونس. أنشأ المكتبة العبدلية المشهورة وتوفي سنة 932 هـ وأحمد الحفصي أبو العباس هو آخر خلفاء بني حفص استنجد بالإسبان ضد الأتراك. وحين أرسى الأسطول الإسباني بحلق الوادي انتقل إلى صقلية سنة 980 وأقام بها حتى مات وحمل جسده ودفن في تربة الشيخ الزليجي برحبة الغنم. وانظر ترجمة محمد الرصّاع في اطروحتنا «الحياة الادبية بتونس في العهد الحفصي».

(155) ففي الأصل اثياب. ثيبات : امرأة ثيبة : التي فارقت زوجها بموت أو طلاق، جاء في سورة التحريم : ثيبات وأبكارا.

وأمّا البنت الثانية فماتت قبل بناء الزّوج بها رحمها الله تعالى. ولما مات الرصّاع الأول وزير الحفصي وخلّف ولديه، ولما بلغوا سنّ التّعليم فدخلوا جامع الزّيتونة وتعلّموا حتى صاروا أيمة أعلاما، وبلغوا الغاية القصوى في العلم حتّى إنّ أحدهم تولّى خطابة جامع الزيتونة أكثر من أربعين سنة وإمامته ورزقهم الله ذرية كلهم علماء مشاهير قضاة ومفات وعدول، وآخر القضاة منهم في زمن الأمير حسين باي رحمه الله وزمن الباشا علي سامحه الله المرحوم سيدي حمودة الرصّاع.

وأمّا الحاج محمد الرصّاع ابن عم القاضي المذكور كان عدلا من مشاهير عدول مدينة تونس ووظّفه الأمير حسين شهادة غابة الزيتون بمدينة تونس وهي وظيفة لا يبلغها ويتوظّفها إلاّ أكابر العدول لما فيها من المنافع والمدخول، فلم يشكر الله الحاج محمد الرصّاع على هذه النعمة، وجلب لنفسه المقت والنقمة، واشتهر بأنّه من خواص أحباب علي باشا عند الخاص والعام. ولمّا دخل الأمير حسين باردو ورجع من سفره وارتاح [207] من عدوّه تغيّب الحاج محمّد المذكور في ديار أحبابه، ولم يظهر لصديقه ولا لعدوّه، قيل جاء رجل من أعيان تونس إلى الحاج سليمان كاهية وهو بدار الباشا فاستاذنه في الخلوة معه فخلى به وقال له : إن كانت لك حاجة بالحاج محمد الرصّاع فهو في الدّار الفلانية بزنقة كذا هو وابن عمّه فمغلطه الحاج سليمان كاهية وأمر أن يكتم خبره ويردّ منه باله، وإيّاك أن تردّ هذا الخبر لأحد غيري فرح بسلام.

ولما جنّ اللّيل وتسلطن الظّلام نادى الحاج سليمان كاهية إلى بعض خدّامه ومن يعتمد عليه في جهره وسرّه وقال له : يا فلان إذا ضربت النوبة فاذهب إلى الدّار الفلانية في الزنقة الفلانية وإيّاك أن يطّلع عليك أحد، أو تردّ هذا السرّ لوالد أو ولد، وتسوّر على سطحها واشرف على

وسط دارها ثم نادى بصوت خفي غير علي : يا من هو متغيّب في هذه الدار ففي هذه الساعة انتقل منها قبل أن يحلّ بك الدّمار. ولا تزد على هذه الكلمات، وارجع من حيث أتيت. ففعل الخديم ما أمر به مخدومه ونزل من على سطح الدار بعد ما قال هذه الكلمات، ولا يدري ذلك الخديم هذا الأمر ما عاقبته.

ولما سمع الحاج محمد الرصّاع هذا التنذير، تنكّر في قيافته ولباسه وكاد أن يطير وخرج من ذلك الدار قبل الانفجار، هو وابن عمّه سي عبد الوهاب وبدّلوا المنزل، وعلى الله التوكّل. فأمّا ابن عمه فمات في تغيّبه ولم يظهر له أثر، ولا تربة ولا قبر، وأمّا الحاج محمد الرصاع قيل تغيّب ثمانية سنين وقيل سبع وقيل أقل حتى قدم الأمير علي باشا وتولّى البلاد، يأتي إن شاء الله في محلّه وما قابله به الباشا، وكيف أمره تلاشى، جزاء [208] وفاقا.

[خبر ميندس الأندلسي :]

وأمّا ميندس الأندلسي فإنّه من بيت كبير، وعنده مال غزير، وصنعته أعزّ الصنايع، وهو في حانوته بين شاري وبايع، فما دخل نفسه في هذا المصاب العظيم، والبلاء الجسيم، وتغيّب كصاحبه إلى أن قدم الباشا علي فرفعه بقدر علي، ياتي خبره في محلّة إن شاء الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم (156).

(156) العلي العظيم : زائد في أ. وفي أ : خبر مينوس.

ذكر خدمة أهل جبل وسلات، وما دفعوا من المال إلى أن باعوا البنات، ونزلوا من جبل عزّهم، وقراهم منهم خلات (1)

اعلم أنّه لما كثرت عند الباشا الرّجال من كل قبيلة ضيقوا على أهل وسلات في المعيشة وكثرت عنده في الجبل الخبل، ومن عدم الشّعير عنده احتاج إلى الكيل، وضاق حاله وعلم من أولاد مانس خيانته وكانت محلّة الباي حسين نازلة بفرنة قريبة من برقو (2) خرج الباشا علي بمن اجتمع عنده وظنّ أنّ هذه الأشتات ينصرونه وأمر بضرب الطّبل وأن يتقدّم كلّ بطل في غياهب اللّيل، وتكلّم من أيديهم البارود، حتى ظنّ من كان في المحلّة أنّه رعود، وأكثر في قرية برقو خرج الباشا علي من تشعيل النار ظنّا منه فإذا راوها أهل المحلّة عولّوا على الفرار، ولم يقر لهم قرار، فركب الباي حسين رحمه الله وركبت معه مماليكه وحوانبه وخدامه وجعل يدور بالمحلّة ويقف الرّجال ممن يعتمد عليه عند كل فلّة من المحلّة، إلى أن لاح الفجران (3)، وانتبه القومان، وطلع من مشرقه الملوان، فنزل الباي حسين في وطاقه وقضى ما فاته من صلاته [209] وورد ورده ودوّر في يده سبحته.

وهذه الجملة عثرت عليها في بعض الطّيارات فعاودت ذكر الفتنة لما في هذه الطيارة من الاختصارات. قال من أملاها : ولما رجع الباشا علي من برقو إلى جبل وسلات ونزل الباي حسين سامحه الله في الوطاق وقضى ما عليه من الصلاة كما تقدّم وإذا برجل سيّار يستاذن في الدّخول

(1) في الأصل : خلت.

(2) معتمدية بولاية سليانة وفي النصّ ترد كلّ مرّة «برق» في الكتابة.

(3) الفجران : الفجر اثنان : الأول الكاذب وهو المستطيل ويبدو أسود معترضا ويقال له ذنب السّرحان، والثاني الصادق وهو المستطير ويبدوا وساطعا يملأ الأفق بيباضه وهو عمود الصبح ويطلع بعدما يغيب الأوّل وبطلوعه يدخل النّهار ويحرم على الصائم كلّ ما يفطر به.

عليه فأذن له وخلا به واستنطقه قال له : يا سيّدي ما فعل هذه الفعلة ولا شعّل هذه الجمرة إلاّ الحاج محمد النّقبي وسالم بن حليلة والحاج مبارك الأوراسي. ففي الحين أمر بتقبيدهم في الحديد، وركبّهم في اللّيل الجديد، وساروا بهم إلى تونس وحين وصولهم لمحمد باي سامحه الله قتلهم، وهذا مخالف لما تقدّم والله أعلم.

ثمّ إنّ علي باشا نزل من جبل وسلات، بمن معه من الجيش الشّتات، ووصل إلى القيروان، واقتتل مع عامر باي (4) وأهل القيروان، وجرح عامر باي في يده وهذه وبعث إلى أخيه من أمّه حسين باي رحمه الله السّيارة : أدركنا ولا تتراخى علينا وعجّل إلينا قبل الجسارة.

فلمّا وصل الخبر إلى الباي حسين رحل من وقته ونبّه على خيله ورجله كما تقدّم وجاء على خنقة أم الشلاليق ونزل القطرانية جبلا قريب من القيروان، وبعث الباشا [210] علي يونس بعسكر من الوسالتية إلى أولاد عمار وهم نازلون على عين شبر وتوجّهوا إلى قرية الكاف فأخذوها، ورجعوا إلى عرش ماجر ليأخذوه فبعثوا إلى الأمير حسين سامحه الله : أدركنا بمحلّة تحمينا وإلاّ أولاد عمّار يأخذونا، فعيّن لهم محلّة فيها مصطفى كرونة، وعمارة بن دالية. وقابلت المحلة أولاد عمار [نحو أربعة أيام، وهذا أيضا مخالف لما تقدّم فبعد الأربعة أيام هجموا على المحلّة أولاد عمّارو] أخذوها وقتلوا عمارة بن دالية. وبلغ الخبر إلى الباي حسين [فرحل من القطرانية ونزل الهوارب ثم رحل من الهوارب ونزل حلوفة ثم رحل ونزل كاف الراعي وكان قبل هذا غزا الباي حسين] على الشيخ بوعزيز بن نصر وأخذه في زيتون أولاد حميد. ولما جاء يونس إلى أولاد عمار وسمع بو عزيز بمجيء يونس إلى أولاد عمار، [ولم يقصد بو عزيز ولا أتاه إلى نجعه، لم تسعه أرض ولا سماء، وقال بو عزيز : علي باشا

(4) أخو الباي حسين.

بعث ولده يونس إلى أولاد عمّار] وأنا نسير إلى حسين باي ونصالح معه، أمّا كانوا هم وإلاّ كنت أنا، وبعث سيارته إلى حسين باي فوصلوه وأعطوه مكتوب بو عزيز بالتخديم فقراه. فلمّا علم ما فيه وكان في أشدّ ما يكون من الحيرة فعجّل إلى بو عزيز بالتّخديم [فخدمه ورحل إليه ووصل المحلة ودخل وطاق الباي حسين وسلم عليه وقال له : أناضامن لك أخذ أولاد عمار] إن شاء الله تعالى.

ثمّ الباي حسين سامحه الله تعالى بعث إلى مسعود كاهية وهو بباجة مقيم أن يقدم عليه هو ومن معه، فلمّا ورد الأمر على مسعود كاهية الباجية فركب من حينه وسار ولحقه نازل في فج التّمر، ولمّا قدم على الباي حسين مسعود كاهية ومعهم بو عزيز هجموا على أولاد عمار كما تقدّم ذكره وأخذهم على غار اكس، ثم لمّا علم الباشا علي بأخذ أولاد عمّار خرج من جبل وسلات وجعل محلّة مجتمع فيها من كلّ قبيلة وعسكر عظيم (5) من الوسالتية، ونزل بحاير الشيخ ونزل الأمير حسين الرّبع واقتتلوا على خنقة الزلقة وغلبت على قوم الباشا قوم الأمير حسين فعندها رحل الباشا ونزل الصخرة ثم رحل ونزل [من سراء ورتتان ورحل الأمير حسين من الربع ونزل] طوال الزّامل ورحل ونزل الزواريين ورحل الباشا سامحه الله من سراء ورتتان ونزل بوادي صراط مع أولاد عمّار ويونس ورحل [211] الباي حسين من الزّواريين ونزل فجّ التّمر واقتتل مع أولاد عمّار والباشا وكان النّصر لحسين باي وهرب الباشا ومن معه وغاروا على ابن شريفة أخذوه في عين رباو ثم رحل الباشا إلى السّاحل وأمر بقصّ الزيتون. بعث أهل الساحل لحسين باي كما تقدم، وهذا [كله] مخالف [لما تقدّم] والله أعلم. فلمّا بلغ الخبر إلى حسين بن علي سامحه

(5) عظيم : زائدة في أ.

الله وهو نازل بالزواريين (6) أمر بتسريط الخيل الصحّاح عليه وأمر بأصحاب ذلك الخيل الصّحاح بالمسير معه، وكتب ثلاثة عشر خباء من التّرك وأعطاهم الجمال، وسار الباي حسين من الزّواريين إلى السّاحل ليلا ونهارا كما تقدّم ذكره، حتّى أصبح على الباشا علي ومن معه وهو نازل على جمّال فأخذوه وتفرقت جموعه وتشتّت شمله وذهب على وجهه طالبا برج الحامة.

ونافقت جمال في يومها ومن الغد خدمت، وزاد الباي حسين رحمه الله إلى برج الجم ونافق برج الجم فقطع عليهم الباي حسين الماء ليلة فمن الغد خدم برج الجم ووصل الباشا علي وأحمد بن متيشة إلى برج الحامة وقصّ راس بن متيشة كما تقدّم ذكره سليمان الصبّاغ وبعثه إلى الباي حسين وهو نازل بصفاقس، وغرّب الباشا علي لما مات أحمد بن متيشة وما جرى له في طريقه.

ولما صفت لحسين باي المملكة، وارتاح [من هذه] الملحمة، رجع إلى تونس كما تقدّم وارتاح ذلك الصيفة واشتغل بأحوال تونس وأكابرها، هذا حبيب وهذا عدوّ والله أعلم.

---

(6) الزوارين : قرية تبعد عن الكاف بـ 25 كلم.

[رجوع إلى خبر وسلات :]

ولنرجع إلى ذكر خدمة جبل وسلات، فما شعروا إلاّ بقدوم بعض من كان عسكريا مع الباشا علي وما وصلوا إلى جبلهم حتى ايسوا من الحياة واجتمعت على القادمين أهل وسلات، وساروا يسألونهم عن أولادهم وإخوانهم، فتارة يقولون أحياء وتارة يقولون أموات، وأخبروهم بكسرة الباشا وتفريق جموعه وقالوا لأهليهم : هذا ما صار وما كان. وبعد ذلك تواترت عندهم الأخبار [212] بأنّ الباشا علي قصد نجع فرحات، فطاح ما بأيديهم (7) وندموا فلم ينفعهم النّدم، وصاروا في كلّ واد يهيمون (8) وعلى فعلهم نادمون، وأرسل الباي حسين سامحه الله إلى جلاص وأولاد عون أن يحصروهم وإذا نزلوا إليكم فخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد، حتّى لا يلتفت الوالد منهم إلى ولد. وسمعوا الوسالتية هذا الخبر، فما أفادهم إلاّ الحصر، ولقاهم الباي حسين وتركهم في زوايا الإهمال حتّى بلغت منهم القلوب الحناجر، وظنّوا أن ليس لهم ناصر، مدّة ستّة أشهر أو سبعة أشهر، وهم محصورون لا يدخلون ولا يخرجون، حتى ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم وأيسوا من رقابهم وأولادهم وأهليهم.

وجاء وقت خروج محلّة الشّتاء فجهّز الأمير حسين محاله وزاد عسكره وسار يقطع المراحل ويطوي المنازل إلى أن نزل شمّاس، ظهرة القيروان واتخذها دار إقامة وبعث أمره إلى أهل جبل وسلات أن اقدموا فلكم الأمان من الممات، ولا يلحقكم ضرر لا منّي ولا من العسكر. فلمّا ورد إليهم الأمر اجتمعوا وتشاوروا في القدوم إلى الباي حسين وقالوا ما هو فاعله بنا [وقد طال حصرنا وهلكت أموالنا وتشمّتت بنا] أعداؤنا. واتفقوا على النّزول من جبل وسلات ونزلت مقدار خمسماية أو

---

(7) سقط ما بأيديهم اي خابوا وخذلوا.

(8) تضمين لآية قرآنية : الشعراء : 225، ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون.

ستماية، ولازالوا سايرين إلى أن وصلوا شمّاسا (9) فوصل خبرهم إلى
الباي فخرج أمره المطاع ونادى في المحال : إنّي قد أمّنت الوسالتية، ولا
من يتعرّض لهم في ثنّية، فدخلوا المحال، طايحة منهم قلوب الرّجال، حتّى
وصلوا إلى وطاق الباي حسين سامحه الله واستاذنوا في الدخول فأذن لهم
وبين يديه أجلسهم واستنطقهم وقال لهم : إيه لكم الويل ! قد طال نفاقكم
على هذه المملكة، وكلّ حين تسعون في المهلكة، على سلطانكم خلف عن
سلف حكّم الله في [213] رقابكم السّيف، أما سمعتم من مشايخكم
العاجزين ماذا حلّ بهم حين نافقوا على مراد باي وكيف كانت له الكرّة
عليهم وصار يعدّد لهم نفاقهم وهم ساكتون لا يردون له جوابا، ولا سمع
منهم كلاما ولا خطابا. ثم قال لهم الباي حسين سامحه الله : إنّي أمّنتكم
وحقنت دما،كم ولكن لابد من خطيّة التّوبة، وقد جعلت عليكم ستّين ألفا
ريال.

فقاموا كلّهم على ضجّة واحدة وقالوا : هذا العدد ما لنا عليه
مقدرة، وقد فنت أموالنا في هذه الخطرة. قال لهم الباي حسين : الذي
تضربه يده لا يشتكي، وها هنا طيحت من الستين ألفا عشرة آلاف
وتدفعوا لي خمسين ألفا. فقالوا ما لنا على هذا العدد طاقة، وقد خرج
من أيدينا الخلخال والعلاقة (10)، وأنت محل العفو والرحمة، ومحطّ
الجود والكرم. فقال لهم : إنّي قد طيّحت عنكم عشرة آلاف فبقت أربعون
ألفا فعجّلوا بدفعها هذه الأيّام، فقوموا بسلام.

وأمر الحوانب أن يخرجوهم، فجرت لهم الحوانب وأقاموهم، وإلى
باب الوطاق رفعوهم ودفعوهم، فرجعوا من عند الباي حسين سامحه الله
كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وفي الحين أمر الباي حسين باش
كاتب قاسم بن سلطانة أن يقيد في الدفتر على الوسالتية أربعين ألفا ريال

(9) قرية بين قرنبالية وفندق الجديد.
(10) العلاقة : حلي من ذهب أو فضة يتدلّى من جانبي الرأس إلى الصدر أحيانا.

فقيدها في الدفتر ثم عيّن من حوانبه قوّادا وخلاّصة، وجعل خمسة من
القيّاد كلّ خمس بقايده وخلاّصته. وبعث للوسالتية فحضروا بين يديه
وأمرهم أنه جعل لكل خمس منكم قايدا وخلاّصة، فهذه قوّادكم
وخلاّصتكم فارجعوا معهم إلى جبلكم، وعجّلوا بخلاص مالكم، فلا يلومنّ
إلاّ نفسه من تراخى منكم.

فلمّا سمعوا منه هذا الكلام فما وسعهم إلاّ الامتثال، ورجعوا إلى
جبلهم لدفع المال، ولحقتهم القوّاد والخلاّصة، وصارت [214] الوسالتية في
أكبر غصاصة، يصبحون جياعا ويبيتون خماصة، وطلّعوا ما كان عندهم
مخزونا لغرايب الدهر، ويدفعون للقايد بالذلّ والقهر، حتى نفد ما عندهم
فرجعوا على بيع سرجهم ودوابهم، ثم وقفوا أيديهم وقالوا : ما عندنا
دفعناه وما بقي لنا إلاّ الولد فمن سامنا فيه [له]بعناه، فوقفت القوّاد
والخلاصة في أظهرهم، وجعلوا القيود في أرجلهم، وبالضّرب أضرّوهم
وغاية ما دفعوا مما خطّاهم به الباي حسين سامحه الله ثلاثين ألفا فزادوا
القواد في تعذيبهم فباعوا ما يلبسون، وما به يتغطّون، وما فيه يرقدون،
وأصحّ ما فيهم رؤوس فإذا راوا شماتة من أولاد مانس جاهروهم بالقول
ويقولون لهم : عسى الله أن يأتي بعلي باشا ويونس، ونذبحكم في
دياركم حتى لا يبقى منكم فاطن ولا ناعس، ونخرجكم من قراكم آخركم
تحت الجبل وأوّلكم في تونس، فبلغت هذه التهديدات للباي حسين رحمه
الله من أهل وسلات، فحنق عليهم واستشاط غيظا وقال : السّيف أنبا
من الكتابات (11)، فعلى عهد الله وميثاقه أن لا يبقى منهم أحد بالجبل
يصبح ويبات، وركّب إليهم الخيل وسارت، ووصلوا إلى جبل وسلات،
وعليهم الخيل غارت، وبلّغوا إليهم أمره بالخروج من الجبل، ومن عصى
فلا نعرف له إلاّ الحبل، فالخفيف كلّه جعل عياله وأولاده قدّامه لا زادا

(11) اشارة إلى بيت أبي تمام :
السيف أصدق إنباء من الكتب * في حدّه الحدّ بين الصّدق والكذب.

ولا راحلة ولا عنزا يسوقها للترغيد (12)، ولا سائمة سوى النساء، والأولاد والبنات حفاة عراة (13) وخرج من جبل عزّه ومسقط راسه لا يدري أين يتوجّه ولا أيّ بلد يقصده وأمّه فتتلقّاهم العربان، فهذا يسلبونه، وهذا عريان وهذا يفقد كسوته، وهذا مطمئن فتارة يمشي وتارة يقيم، فمن البوادي من يحنّ عليهم ويطعمهم وباقي غرارة مقطّعة يكسوهم، وهذا يضربهم ويطردهم، وفي الخلاء يبيتهم إلى أن وصلوا إلى باجة والكاف [215] وتاستور والأعراش مثل جبل عمدون، وغيره والسّاحل يقصدونه لخدمة الزيتون.

وأمّا الثقيل من أهل جبل وسلات، قد حار في أمره من كثرة العيال والأولاد والبنات، فما يخرج من جبل وسلات، ولا يصل أين قاصدا إلاّ على شرّ الحالات، وآجروا الأولاد [الصغار رعاتا وباعوا لمن سامهم ورغب في البنات]، ولا بقي في الجبل حارس، إلاّ أولاد مانس الغدارين (14).

ثمّ لمّا خلا الجبل من الرؤوس، وبقي البعصوص (15)، رمى عليهم الباي حسين في كلّ شهر رمية وجعل لهم قوّاد كلّ شهر لهم معهم عناد أو سكنوا بلد باجة وخدموا وتمعشوا ومن عطايهم الغرامة يتغششوا وكذلك في كلّ مكان عرّشوا مقيمون على الذلّ والقهر صابرون على نوايب الدهر سبع سنين من عام أربعين إلى سنة سبع وأربعين [1140-1147] إلى أن قدم علي باشا مع عسكر الجزايريين فخلّصهم ممّا كانوا فيه من البليّات، وردهم إلى مسكنهم جبل وسلات، هذا ما سمعناه كتبناه ورأيناه سطّرناه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

---

(12) الرغيدة : كسكسي أو محمّص باللبن ويطبخ بالملح والفلفل واللحم.
(13) في الأصل : حفات عرات.
(14) كلمة زائدة في أ.
(15) البعصوص أو البعبوص : الذيل، وفي ص : ثم لما خلا الجبل من الوسالتية.

[رجوع إلى خبر الباشا علي]

ولنرجع إلى تمام خبر الباشا علي والحاج مصطفى بن أحمد بن متيشة، لمّا ودعهم ذلك الرجل الذي قدمنا ذكره ورجع ذلك الرجل وأولاده وسار الباشا علي فيمن معه من الخيل يقطع الفيافي والقفار، ودموعه على خدّه منحدرة من الأشفار، وأكثر حرقته على ولده يونس تخلّف عند أولاد عمّار، وخبيره قدّامه ينزل به دارا بعد دار، قاصدا نجع فرحات إلى أن وصله [وسمع به فرحات فركب في خيله وعرضه وسار معه وإلى نجعه أدخله وجهز له خيمة بما تحتاجه] هو وأصحابه وخدامه وأعزه وأكرمه، وبالمسير معه إلى الجزاير وعده، ولمّا طلع المقام في نجع فرحات استثقل الباشا علي نفسه من كثرة ما ذبح له من الأغنام، فلمّا طاح اللّيل وجاء فرحات للمسامرة فبعد المضاحكة والمساهرة، تنفّس الباشا علي الصّعداء، وقال : يا هل ترى هل لهذا الكمد دواء، وقد حصلنا في هذا المكان لا مالا ولا ولد.

[216] فأجابه الشيخ فرحات : أنا مالك وأنا ولدك، أنا مفرّج كربتك، فقل نسمع وامر بما تشتهي نطع، وأنت بحمد الله ليس في مكان مضيع. فجازاه الباشا علي خيرا، وكثر في حقّه مدحا وشكرا، ثم قال له : تمام إحسانك معي ومعروفك وربما يشكر سعيك سرحني، وجهزني وإلى بلد الجزاير وصّلني، وبولدي يونس ألحقني. فقال له : أنا عبدك وخادمك إن شاء الله نرسل إليك ولدك. ومن ذلك الليلة عوّلوا على المسير، ولمّا قضى فرحات مآربه وفرغ من شؤونه فكّر في نفسه وقال : إن سرت على ثنية قسنطينة وقمت بها ليلة والحاكم حسين بن البنّار (16) صاحب حسين باي لا نأمنه على عليّ باشا ربّما يمسكه عنده ويتعلّل لنا بأمور فإذا

---

(16) هل هو حسين شاوش تولى الحكم سنة 1709 أم حسين دنقزلي تولى الحكم سنة 1710. وفي الصفحة الموالية : ورد : حسين بونبّار.

رجعت من عنده قتله، ولكن تبعد عن هذا الرجل الغدّار، وناخذ الأخبار، ونسير في الصّحراء والقفاير، إلى أن تصل إلى مدينة الجزاير.

فلمّا مالت نفسه إلى هذا الأمر أخبر الباشا علي وقال له : هذا الذي لي ظهر وأنت مخيّر فيما تختار. فسرّ الباشا بهذه المكيدة سرورا عظيما وباتوا على ترحال. ولمّا طلع النّهار ركبت على الخيل الرّجال، ورفعوا على الإبل وساروا بأشرح بال وقصدوا الجزاير من جهة الصحراء وتركوا خلفهم ثنية قسنطينة ولازالوا سايرين في ذلك الصحراء والقفار، يرتاحون في اللّيل ويتعبون في النهار، إلى أن وصلوا إلى مدينة الجزاير ودخلوها واجتمع فرحات بأصحابه بمدينة الجزاير فسألوه عن مجيئه وقدومه إلى الجزاير فأخبرهم بأمر علي باشا من أوله إلى آخره فخرج الخبر من وقته وشاع في الجزاير إلى أن وصل إلى داي الجزاير ابراهيم خوجة [17] فبعث من ثبت له الخبر وأمر بقدوم فرحات إليه ليستخبره. فلما [217] بلغ الرّسول إلى المكان الذي فيه فرحات والباشا علي أمر فرحات أن يذهب معه إلى داي الجزاير فقدم من حينه ومشى معه إلى دار السلطان، فسبق الخديم وأخبر الداي : هذا فرحات بن جرجارة واقف بالباب يستاذن في الدّخول فأذن له فدخل فسلّم عليه ويده قبّل، فأمره أن يخبره بأمر علي باشا، فمن أوله إلى آخره أخبره. فعندها أمر الدّاي بعض وكلايه أن يحضر دارا وما تحتاج إليه من فرش وحوايج وعرش فإذا انتهى يذهب إلى علي باشا ينتقله إليها.

ولمّا دخل الباشا علي الدّار واطمان به المجلس بعث للدّولاتلي تمام المعروف يا سيّدي أن تجمعني بولدي يونس وأنا قد خلّفته عند أولاد عمّار. ففي الحين كتب أمره المطاع وبعثه لحسين بونيار مع بعض الأتباع :

(17) ابراهيم خوجة : تولى الحكم من 1745 إلى 1748. انظر فهرس تاريخ الجزائر للميلي.

وصول أمرنا إليك ابعث إلى ولد علي باشا يونس وأبوه علي باشا أخبره أنّه تركه عند الحنانشة أولاد عمّار، فإذا وصل إليك [جهّزه و] ارسله إلى الجزاير من غير تراخ في هذا الأمر، ورد بالك من الولد أن يلحقه ضرر، وبعث الدّولاتلي للباشا علي وهنّاه وقال له : إن شاء الله نبلّغك ما تترجّاه وما تتمنّاه، ولكن نحن الآن في قتال النّصارى الذي غلبوا وهران وإذا نصرنا الله عليهم وفكينا وهران، ننصرك بالعسكر والقومان، ونرسلك إلى مدينة تونس، أنت وولدك يونس.

فلمّا وصل الخبر وهذا الوعد الذي وعده الدّولاتلي دعا له بطول العمر والنصر على الغير. ولمّا عمل فرحات على الرّجوع إلى نجعه أتى إلى الباشا وأخبره فاهتمّ الباشا بما يرجع به هذا الرجل من عنده وأخذ يدبّر في أسبابه فسمع به فرحات فدخل عليه وحلف له يمين بتات، أن لا نقبل من عندك ولا قيمة قيراط [18] وكيف نطمع فيك [218] وناخذ منك وأنت في حال الشّتات، وعسى الله يملّكك كرسي تونس وتقضي في حقنا ما فات، فشكره الباشا علي وزوّده وودّعه، ورجع فرحات إلى نجعه، ويأتي تمام خبره [في محلّه] إن شاء الله تعالى آمين.

(18) ص : نواة والقيراط هو ما يحسب به أصبع أو عنق سمكة، انظر ملحق القواميس العربية.

[خبـــر قتـــال وهـــران]

وربما إذا وصل الناظر في هذه الورقات إلى ذكر قتـال وهران [19] تشتاق نفسه إلى سبب ما أخذها ويتورّك [20] علينا كما توركنا على غيرنا إذا نظرنا في كتاب فوجدنا كاتبه ذكر المبتدا وترك الخبر فعدم علمنا يعز علينا.

اعلم أنّ وهران قرية على ساحل البحر قريبا من مستغانم في شطّ المسلمين وكان في قديم الزّمـان بناها سلطان مسلم وجعل مرستين [21] كبيرة وصغيرة، ولها رعية وأعراش كثيرة، يغرمون المجبى لصاحب وهران مثل بني عـامر وغيـرهم ولمّا ملكت التّرك الجزاير وتلمسان أطاعـتـهم وهران، ثم أخذتهـا النصـارى السـبنيـور الذين أخـذوا جزيرة الأندلس [وفكوها من أيدي سـلاطينهـا صار عـرض البحـر بين جزيرة الأندلس]، ووهران قـريبا فـجهّزوا لها عـمارة وفكّوها من أيدي المسلمين وعـمّروها وشحنوها بالأبراج والرّجال والمدافع.

قيل لهـا خمسـة أبرج دايرون بهـا سوى الألغام وخداعـات القتـال، وصاروا النّصـارى السبنيـور [22] في كل عـام يبعثـون لهـا من جـزيرة الأندلس المال والرّجـال والأحـراك الثّقـال، وتخلّدت في ملك النّصـارى أعواما كثيرة إلى أن تولّى كرسيّ مدينة الجزاير شعبان خوجة [23] وكان دولاتلي في سنة تسعين وألف [1090] أو ما يقرب منها، قيل إنّه [رجل]

(19) ص : ويهران.
(20) يتورك : يمكث، يجلس ، والورك : الفخذ.
(21) كذا ويعني مرساوين.
(22) ص : الصبنيور.
(23) شعبان خوجة : تولى الحكم سنة 1100 هـ إلى سنة 1106 هـ / 1689-1695 م، انظر ج 3 من تاريخ الجـزائر : ص 200، وفيـه ذكر للغارة الإسبانية هذه ضد الجزائر العاصمة لكن هنا أكثر تفصيلا.

من أولياء الله الصّالحين ويلغه ضرر النّصارى السّاكنين بوهران ويغزون راكبين على الخيل إلى أن يصلوا قريبا من تلمسان في رعيـة الجزاير ويأسرون المسلمين ويبعثوهم إلى بلاد النّصارى ويبيعوهم للنصارى فتكاثرت عليه أخبار ضرر النّصارى فعندها أمر برمي الوطاق [219] وبعث أوامره إلى كلّ بلد وإلى كلّ جبل سواء كان طايعا له أو عاصيا يستغيث بالمسلمين الجهاد الجهاد، يا من أنتم لله عباد، وبعث للقاصي والدّاني : أقـدموا للجهـاد وانصروني على هذا النّصراني. ولمّا رمى الوطاق ففي الحين فرش السّفرة وأعطى للعساكر البيضة والصفرة [24]، وجهّز نفسه وتجهّزت عساكره وأتته الأمداد من جميع الجبال، قيل بلغت أهل الجبال ميات الألوف سوى عسكر الجزاير ومن أتى لنصر الدّين ناغر، ثم خرج من الجزاير هو وأهل الله قادمون على القتال لأعداء الله إلى أن وصلت المحال والرّجال من الجبال طالبون القتال، ليبلغوا حسن المآل، لا يريدون زوجة ولا ذخيرة من المال، وورد ألف من حاملين القرآن من أهل الله [25] لقصد جهاد أعداء الله، طالبين من الله الجنّة والمغفرة.

ولمّا وصلت العساكر والقومان، إلى وهران، ارتاحت برهة من الزّمان، فعندها نصبت التّرك الدّيوان، ونادوا : يا أهل الإيمان، إن شاء الله غدا الجهاد في عبّاد الأوثان فباتت المومنون بين قايم أو راكع، أو ساجد أو خاشع رافعوان الأصوات بتلاوة القرآن والآيات الموعظات إلى أن لاح لهم الفجر فهرعوا إلى قواعد دينهم [ووضوئهم] وصلاتهم وقراءتهم وعلى الرّسول صلاتهم، ثم جدّدوا الوضوء وصلّوا على أنفسهم، ثم أخذوا عددهم وسلاحهم، وتقدّم العسكر قدّامهم بمدافعه ومحرقاته وكنبراته [26]

(24) البيضاء والصفراء : الدرهم والدينار، أي المال.
(25) ص : وورد ألف أو أقل يقال لهم الطلبة.
(26) من كنبر : حسب حساباته وأعد مخططاته.

وخداعاته، لأنّ أهل الغرب الأقصى لا يعرفون خداعات القتال ولا بما تقتل أو تحرق به الرّجال، فما عندهم إلاّ الضّرب بالسّكين أو الضّرب بالرّصاص من الكمين، أو الشكّ بالرّمح أو الخنجر للذّبح، ولا يعرفون مدفعا ولا يعلمون ملسعا.

وأمّا [220] العجم فهم أصحاب هذه المكايد العظيمة، والخداعات الجسيمة، يبلغوا أقصى مرادهم من البعد فإذا أحرقوا الالغام حسبها الغير أنّها الرّعد لا يعرفون قتال النّصارى إلاّ التّرك ولا يخافون إلاّ منهم عند القتال والعرك، ولمّا راوا نصارى وهران، تقدّم جنود أهل الإيمان، خرجوا كأنّهم جراد منتشر، أو كقيام الخلق للمحشر، وتقدّمت المدافع والمحرقات وترنّم بالقرآن أولو السّعود والآيات الباهرات، وزحفوا بعضا لبعض، ومن كثرة الدّخان انطبق السّماء على الأرض، وغابت الشّمس بضوئها وظلمت الأرض بكورها (27) ولازال بين الفريقين السّيف يعمل، والدّم ينزل، فأصحاب اليمين، تسقيهم من الكوثر الحور العين، وأصحاب الشّمال تسقيهم الحميم ملايكة الأغلال، فهذا وجهه بالنّور يخفق وهذا وجهه بالنّار أسود وانحرق إلى أن حضرت صلاة العصر فأخذ جيش النّصارى في الرّجوع والتّقهقر، ودخلوا مدينتهم وأغلقوا أبوابهم وعمّروا أبراجهم وشبروا (28) مدافعهم وفتحوا ألغامهم وعلى هذا كان قتالهم، وبهذا أمرهم به سلطانهم لمّا دخل جيشهم وكانوا خرجوا بالعدد.

فلمّا دخلوا عدّوا القتلى فوجدوها لم يحصها عدد، ولا يقف لها على حد، فارتجف فؤاد سلطانهم من كثرة قتلايهم وقال: إن خرجت [النصارى] إلى قتال المدر فلا يرجع إليّ أحد منهم ولا بقيت أقاتلهم إلاّ

(27) الكور: ماتقذفه المدافع.
(28) شبر: صوّب إلى، سدّد.

بالكور وبالنّار تحرقهم، وانخنس في بِقَفِه(29) كأنّه جربوع، أو مدفون في قبر ليس له رجوع.

وأما دولاتلي الجزاير، لمّا طلع النّهار أمر الخوجات بفقد الشكاير فعدّوا ما فقدوا قيل خمسماية من الترك [221] ما وجدوا ثم خرجت من عند الدّولاتلي الخيل تدور على أحزاب أهل الإيمان كم فقدتم من سار إلى الجنان؟ فحزب يقول: قتل منّا ألفان وحزب يقول قتل منّا مايتان. فجمعت الخوجات في الدّفاتر جميع من مات، فوجدوها آلافا وميات.

ولمّا وقع لسلطان النّصارى ما وقع، وعلم أنّ سوره قد انخدع، كاد قلبه أن ينصدع، فجمع رهبانه وأقاسيسه ووزراءه وكبراءه وزعّام (30) جنده ونصب لهم ديوانا. فلمّا اجتمعوا عنده قال لهم: ما هذا القتال، والتغافل عن النّزال، وهم لا يريدون منّا إلاّ قتلنا وأسرنا وأخذ المال، والذي تحلف به النّصارى لو كان عندي عسكر مثل عسكر التّرك لجعلت لكلّ واحد منهم راتبا كلّ يوم سلطاني ومؤنته عليّ كل يوم دجاجة مشوية، بالسّكر محشيّة، وأنا ما بقي تنفعني إلاّ الخروج من بلدكم أقصد الانبردور (31) الكبير يقتلني. فسكتوا ولم يردوا عليه جوابا، وطرقوا برؤوسهم إلى الأرض فما زادوه خطابا.

وكان بجنب حاكم وهران أكبر أقاسيسه والمشهور (32) عندهم بالقيام بدينه فتلفّت إلى الحاكم وقال له: يا قران (33) أريد منك أن تخلّي هذا الديوان، وأنا أتكلّم معك في هذا الشان. فأجابه بالسّمع والطّاعة، وأمر

(29) انخنس: تقوقع على نفسه. وبِقَفِه: مشكولة في الأصل بكسر الباء وفتح القاف وكسر الفاء: لعلها تعني بقعته أو كهفه.
(30) أي زعماء جنده.
(31) يعني الأنبرور.
(32) ص: الشمعون.
(33) القران: كلمة يلقب بها الأتراك ملوك فرنسا. انظر ملحق القواميس العربية ج 2، ص 347.

النّاس بالقيام في تلك السّاعة، وجلس القسيس هو والقرانُ ليس معهم أحد، لا والد ولا ولد، وأمر خدّامه أن لا يتركوا يدخل أحد ولو كان رئيس الجند، ثم التفت إلى بعضهم بعضا وقال له القسّيس : يا قران لا أتكلّم معك إلاّ بشروط نشرطها عليك، أمّا الأول أنّك لا تخبر أحدا بما وقع بيننا، والثّاني لا تتهمني بشيء خارج عن ديننا، والثّالث أنك تعمل بما أقوله لك لأجل أن يكون فيه صلاحنا، فأخذ عليه العهود أنّه يوفي له بالعقود، ثم قال له [222] : اسمع مني ما أقول لك وألقيه في بالك، إنّ المسلمين لمّا بعث الله إليهم رسولهم وأنزل عليه كتابه بفرائض دينهم ممّا أخبرهم الله به في كتابه، قال لهم : أنتم إذا آمنتم إيمان صدق ووفّيتم بالحقّ إذا قاتلتم أعداءكم لأجل إعلاء كلمتي وتوحيدي فالماية منكم تغلب ألفا، وإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مايتين وأنتم الغالبون والغالبون، ولأعدايكم قاهرون، مادمتم على إعلاء كلمتي وتوحيدي تقاتلون ثم إذا انتقل من بينكم وترك الحاكم فيكم سنّته وكتابكم فبانتقاله من بينكم يحصل لكم ضعف في إيمانكم، فإذا قاتلتم أعداءكم فأنتم قد نقص إيمانكم وأنا عالم بضعفكم فالماية منكم تغلب مائتين والألف منكم يغلب ألفين وأنتم الأعلون القاهرون، وعلى جميع من في الأرض تظهرون، وأموالهم وبلادهم وأولادهم وأزواجهم تملكون، وأنتم يا مومنين دايما غالبون أو يروا أنّا ننقص الأرض من أطرافها وأنتم لها وارثون.

فلمّا بشّرهم بهذه البشارة ربّهم وفي كتابه أنزله على لسان نبيّهم ووقفت المهاجرون الأولون وقاتلت ملوك الأرض لأجل إعلاء كلمة الله ولربّهم موحّدون، لا مالا ولا دارا ولا زوجة يريدون، إلاّ ابتغاء مرضاة الله وللآخرة طالبون، وفي الجنّة راغبون، وعلى ربّهم متوكّلون، أبغض ما عندهم الركون إلى الدّنيا وهم لها كارهون، قد نصرهم الله بالرّعب في قلوب أعدائهم مسيرة شهر، وهزموا جنود كسرى وقيصر، فهم دائما

غالبون، ولأعدائهم قاهرون، ثمّ انتقلت أكابر أصحاب نبيّهم الذين ملكوا البلاد، وقهروا العباد، أخلف الله بعدهم رجالا اختارهم وكشف لهم الحجب وبالالهام خصّصهم، وللدّنيا [223] أبغضهم، وفي الآخرة أرغبهم، وفي الدّرجات أرقاهم وكان صنف منهم لما أراده سمّاهم فمنهم من سمّاه الغوث ومنهم من سمّاه القطب ومنهم من جعلهم أوتادا، ومنهم من جعلهم عبّادا، ومنهم من جعلهم نجباء، ومنهم من جعلهم نقباء، ومنهم من جعلهم أيمّة.

قيل لما انتقل سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم من دار الدّنيا إلى المقام الأسنى، اشتكت الأرض إلى خالقها وتضرّعت وقالت : يا مولاي وخالقي إنّ أحبابك عنّي انتقلت، ومجالس ذكرك قد خلت. فقال لها الاله سبحانه [وتعالى] : وعزّتي وجلالي لأخلفنّهم كعددهم مابة ألف وأربعة وعشرين ألفا من رجالي فأولهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أزيد في أمّتي محدّثون فعمر منهم أو كما قال صلّى الله عليه وسلّم، وثانيه الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ ابني هذا سيّد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين أو كما قال صلّى الله عليه وسلّم (34) ، والذي [ليس] في قلبه ريب ولا شك أنّ الولاية باقية في ذرّية فاطمة وعليّ رضي الله عنهما ليس فيهما إلى يوم القيامة ترك، فإذا خرج جندهم لقتال عدوّهم فأولئك الرّجال لابدّ أن يخرج معهم بعضهم ليكون على أيديهم نصرهم ومراعون لحفظهم من عدوّهم. وأمّا يا قران غيرهم من الأمم السالفة والخالفة إنّما قتالهم لأجل دنياهم وحفظ ملكهم وجميع أموالهم، لا يعتقدون نشرا ولا حشرا، ولا حسابا ولا عقابا ولا

(34) جاء في صحيح مسلم (باب فضائل الصحابة) الحديث التّالي : وقد كان يكون في الأمم قبلكم مُحَدّثون فإن يكن في أمّتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم. اما عن الحسن فقد جاء في الحديث : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. رواه الترمذي وابن حنبل.

جنّة ولا نارا، أعزّ ما عندهم الأملاك والأولاد والعيال، وأرفع وأشرف ما عندهم المال، لا يريدون القتال، ولا يتعصّبون على النّزال، فهؤلاء الأمم المذكورة دايما مغلوبون ومن بلادهم خارجون [224] مقهورون منهورون مادامت هذه الرجال الذي ذكرت لك في أوّل جندهم مقدمون، وفي وسطهم قاطنون، وفي آخر جيش الإسلام حافظون، ولكن يا قران ويا أمير الزمان، ويا خليفة السّلطان [أنا أعلم أنك ترميني بالبهتان وتقول : هذا القسيس حصل له الخرفان] (35) فما لكلامه صحّة ولا تبيان، غدا إن شاء الله آمر بمن تعرفه ومجرّبه انّه عندك حاذق ولكّ ما يخبرك به فهو فيه صادق، احضره بين يديك وامره بأمرك واعزم عليه أن لا يخبر أحدا خبرك، فإذا سمع كلامك وامتثل لأمرك فامره أن يلبس لباس عسكر الجزاير ويخرج من البلد متنكرًا غير ظاهر، ويدخل في وسط العساكر، ولا يكلّم أحدا إلاّ إذا ناداه وكلّمه ويحفظ ما به امره ويرجع إليه ويخبرك بما قال له الرّجل وأوصاه وحدّثه، فعندها أعمل على كلامهم، وسلّم لهم في بلادهم، واترك قتالهم، وأوص صاحبك أن يحفظ عددهم وكم هم وملابسهم وزيّهم وعددهم، فهم غالبون عدوّهم بنصر ربّهم وبأنفاس نبيّهم، وإن لم يكلّمه أحد ولم يخبره أنت خرجت من البلد فارجع إلى من بعثك ولا تعد، فاعلم أنّهم مغلوبون غير منصورين، فيثقل عليهم مقامهم فيرحلون وإلى بلادهم يرجعون، وفي وهران يسلّمون، وفي قتال بعضهم بعضا يلتهون، وبالمنافسة يشتغلون، فعندها وهران خالدة تالدة لك يا عبّاد الصّلبان، ويا مؤثرون على عبادة الربّ طاعة الأوثان وهذا ما تسمعه من كبار القسيسين والرّهبان، وعليكم السّلام.

وقام القسيس وسار إلى محلّه وتعبّده في كنيسته، فلما قام القسيس من عند القِران، نظر في أصحابه ومن نبعث لهذا الشان، فميّزهم

(35) الخرفان : من خرف : يهذي.

واحدا بعد واحد، وسردهم عليه بالعدد حتى [225] صمّم فكره وعزم على واحد، فناداه وقرّبه وبالذهب أرغبه، وأمره : غدا عند الفجر أقدم إليّ لتقض لي حاجة وما تسمع فارادده عليّ، فسر إلى دارك اللّيلة واسهر وأقدم إليّ عند الفجر، فما صدق ذلك الخديم بطلوع النّهار، وقدم على رئيس الأمار، فأدخله بيته وأحضر له كسوة ولباسا كلباس بعض النّاس من عسكر التّرك وأمره أن يخرج من البلد ويدخل المحال، وينغمس بين الرجال، ولا يتكلّم مع أحد إلاّ إذا ناداه أو كلّمه فيسمع خطابه ولا يردّ عليه جوابه، فامتثل ذلك الخديم أمره ولو كان فيه قتله، وأعطاه ذلك الكسوة وألبسه وخرج قدّامه وباب البلد له فتحه فخرج وهو آيس من نفسه ورجوعه إلى داره وعياله وأولاده، فستره اللّه ودخل المحال، وانخنس بين الرّجال، إلى أن ناداه بعض الأطفال، فوقف ويادره الطّفل بالمقال : مالك وهذا الحال، كأنّك على رأسك دلاّل، ارجع إلى من بعثك واخبره بخبرك، إنّنا سبعة رجال قايمون بأمر هذه المحال، أوّلنا الخوجة شعبان، وآخرنا راكب الحصان فإن أردت نصيحتنا وترك قتالنا فسلّم في بلدنا وعليكم السلام.

وأخذ ذلك الطّفل الصّغير بيد الرجل وقال له : لا تخف ولا تخجل ما دمت في حملتي وأنا هذه حالتي، ما أخاف عليك إلاّ إذا كشفك أصحاب الأحوال، مالي معهم قدرة ولا فكّ ولا نزال، فعجّل بخطاك قبل أن يسمع بك أو يراك. فأخذت الرجل الرعدة وخنقته العبرة وتعلّق بذلك الطفل، خوفا من القتل، فجعله قدّامه وهو يلتفت يسراه ويمينه إلى أن أخرجه من العساكر [226] والجنود راجف القلب كأنّه قام من تحت اللّحود، فما صدق أن وصل البلد ودخل على الملحد النّصراني فأخبره وحدّثه وسارّه بالحديث الذي قال له الطّفل وما به أوصاه، فهزّ رأسه وقال : لدين النّصارى وما يسوى زبل حمارة، وكلّ ما نعبده باطل، ونجعل للّه ولدا كلام حايل، أما

حضر ابن الله ونصر دينه ؟ هذا طفل صغير قايم بأمر هذه الجنود وحده والله لولا ملكي وأهلي ومالي وولدي لأسلمت، وفي هذا الدين دخلت، ثمّ أمر خديمه بالانصراف وكان قدمت إليهم مراكب مشحونة بالأموال والرّجال وآلات القتال، فلمّا فرغت المراكب ملاها بذخايره وأمواله وكلّ ما يعزّ عليه، وبقي في نفسه بازا على قفاز. هذا ما كان من قران وهران عابد الصّلبان.

وأما شعبان خوجة وجنوده وأهل الله وعبيده، طال عليهم القتال، وملّت الرّجال، وكاد أن يشتّت من في المحال. فلما رأى ذلك الدولاتلي جمع ديوانا ونبّه أن يحضر الدّيوان كلّ من جاء للجهاد، في رضى ربّ العباد، فاجتمع أهل الجبال والطلبة، ومن له في الجبال رغبة، قام الدولاتلي قايما على قدميه وقال : يا أهل الإيمان، وحزب الرّحمان، قد علمتم ما صنعت عبّاد الصلبان، قد تحصّنوا بمدينتهم وأبراجهم، ولا بقي واحد يخرج للقتال منهم، ولكن يا أسيادي ويا إخواني أنا نعلم أن ليس لكم قدرة على من في الأبراج من الأعلاج، ونحن أعلم بحربهم وقتالهم ولا تعرفوا إلاّ أن نطلع إليهم ونصدم عليهم وعلى الله الاتكال، ولكن بارك الله فيكم اكفونا يا إخواننا من يخرج من المدينة ودوروا بها من كل ناحية ونحن إن شاء الله نكفوكم أمر الأبراج. فامتثلوا أمره [227] وسمعوا قوله، وافترق الديوان، وفي تلك السّاعة أمر المعلّمين النّجّارة فحضرت، وبعث إلى تلمسان للأخشاب فأحضرت، وحضرت بيديه عند المعلمين وفصّل لهم في الكاغظ أمر السّلالم والمردبانات (36)، واشتغلوا فيها المعلّمون وفي أقرب وقت حضرت سبعة من السلالم على قدر حيوط الأبراج، واتّفق شعبان خوجة هو وأصحابه على الطّلوع إلى البرج الكبير المطلّ على المدينة والمشرف على الأبراج الأخر فإذا ملكوه كان أمر المدينة

(36) في أ : المردفانات : هل يعني المدارج ؟

والأبراج [هيّنا ولما قرب وقت الصّدمة على البرج أكثر من خيل غارة ليدورون حول المدينة والأبراج] ربما يبعثون أحدا فيعلم أمر السّلام، وإن الترك عازمون على الصّدمة على الأبراج فينذرهم فما تتمّ حيلة، فركبت الخيل وقطعت السّايح والرّايح إلى أن جاءت ليلة الجمعة وصلّى الدّولاتلي صلاة العشاء فخرج وكبّر وقال : بسم الله، ولبس عدّته وتقدّم وتبعته أصحابه قيل خمسماية وقيل سبعماية، ورفعت المسلمون السلالم قدام الدولاتلي، جلّ الله إذا نفذ حكم الله، ولا غالب إلاّ الله ولازال الدّولاتلي والعسكر سايرون إلى أن وصلوا البرج الكبير، قيل هو برج المرسى وقيل غيره، وكانت النّصارى مطمينين من جهة المسلمين فشربوا الخمر حتى سكروا وفي مضاجعهم رقدوا، وهذا من اللّطف الالهي أعمى الله بصيرتهم وبصر اليقظان والسّاهي، وأول طالع في الدّرج الدّولاتلي، ونصبوا السّلالم السّبعة، وتقدّموا السبّعة رجال الدّولاتلي وأصحابه السّتة، وطلعوا في الدرج ولم يفطن بهم أحد حتّى وقفوا على حايط البرج، ونزلوا في وسطه وتمكّنوا من نواصي أعداء الله وقال العسكر على كلمة واحدة : الله الله (37)، وأوقعوا السّيف في حزب الشيطان وعبادة الصّلبان أعداء الله والذي يطلب الأمان من النّصاري أمّنوه، والذي قاتل قتلوه، وتملّكوا على البرج بما [228] فيه من خزاين باردو ومدافع عظام وآلات الحروب.

ولمّا طلع الفجر جعل سنجقه على حايط البرج، وتكلّم على المدينة من عنده المدفع، فحطت الكورة في وسط المدينة وكذلك تكلّم المدفع على الأبراج فداخت الأعلاج، وقالوا : هذا الدّاء ما فيه علاج، وأيقنوا بفكّ وهران من أيديهم وأبراجها لأنّ الحامي للمدينة والأبراج ملكوه، فما أفادهم إلاّ التّسليم في البلاد، وركبوا في السّفاين المعدّة لهم العيال والمال

(37) أ : الله أكبر الله أكبر.

والأولاد، وركبوا البحر وساروا إلى بلادهم وقدموا على سلطانهم فأخبروه بحالهم قيل قتل عشرة من أكابرهم وأمرايهم وقيل أكثر والله أعلم.

ولما خلت وهران وأبراجها من عبّاد الصلبان، دخلها أهل الإيمان وأخذوا ما تركوا عباد الأوثان [ولما صفت للدولاتلي البلاد شكر ربّ العباد، وأمر من في طاعته أن يرحلوا إليها ويسكنوها بالأهل والعيال والأولاد، ومن سبق إلى دار وحازها فالدولاتلي له ملكها، ثم إنّ الدّولاتلي أخذ في تدبير الأبراج وعيّن لكل برج عسكرا وملأ الأبراج] من آلة القتال وكثير المال وجميع ما يحتاجه العسكر مدة معلومة وقدّوا قوانين البلد وولّاها قايدا ومشايخ وبايا وأمير خلاص ووصّى بالرعية وأن لا يكلفوهم فوق الطّاقة من الغرامة والرمية، ثم التفت إلى المجاهدين وأحضرهم وشكرهم عن صنيعهم وأمر بصنادق المال فأعطاهم حتّى أرضاهم، أمر بالبقشيش للعسكر وكتب البشاير، وسارت بها البشارة إلى المغرب الأقصى بلاد المولى اسماعيل [38] وكتب إلى الجزاير كرسيه وبلاد حكمه وكتب إلى وجق تونس ووجق طرابلس. فلما سمعت المسلمون فرحت فرحا عظيما وجمعت من عند المؤمنين البشارة مالا جسيما ثم رجعت أهل الجبال إلى بلادها ورحلت الطلبة إلى محالها ومساكنها، ثم رحل الدّولاتلي ومعه عسكره قاصدا بلاده يرحل وينزل على الله متوكّل، مؤيدا من الله منصورا، مظفرًا محبورا، يرحل ويقيم لأجل راحة التّعبان والفقير العديم [229] إلى أن وصل إلى مدينة الجزاير، ومن الغد كان يوما مشهودا، ومن كثرة تسريح المدافع بالبارود يظنّها السّامع رعودا،

(38) اسماعيل بن محمد الشريف بن علي الشريف المراكشي الحسني، من أعظم ملوك المغرب، ولد سنة 1056 وبويع سنة 1082 وتوفي سنة 1139. جعل مدينة مكناسة قاعدة لدولته، دام له الملك 57 سنة. دوّخ بلاد المغرب حتى بلغ تخوم السودان، من الكتب عن سيرته : «روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف» لمحمد الصغير اليفرني أنظر : الأعلام للزّركلي : ج 1 ص 324-325.

واستقبله أهل المدينة كبير وصغير، شريف وحقير، فنزل إليهم الدولاتلي وسلّم عليهم ومشى على رجليه في وسطهم يقرؤون قدّامه وخلفه ويمينه وشماله القرآن إلى أن وصل الدّولاتلي إلى دار السلطان. فلما جلس على كرسيّه أمر إلى ذلك النّاس بالإحسان خصوصا حفّاظ القرآن، والمساكين من أهل الإيمان. ولما سهرت اللّيل الطويل، وزدت الزّيت في القنديل، أحببت أن أذكر تمام دولة هذا الدولاتلي الخوجة شعبان.

[إتمام خبر الدولاتلي شعبان خوجة]

ولمّا حلّ في داره دار السّلطان، وارتاح برهة من الزّمان، وذلك في حدود ماية [وواحد] وألف [1101] وقع بينه وبين محمّد باي بن مراد باي ما قضى الله وأراد من المكالمة والمعاندة وتردّدت السيّارة بينهم فلم يقع اتفاق بينهم، فلمّا حضر وقت رمي الوطاق، في الرّبيع بعث لوكيل الوطاق، وقال له : إذا أقمت الوطاق على دريكه فقبّل إلى مملكة تونس بابه، فامتثل أمره وسمع قوله. ولمّا قام وطاقه فتح إلى تونس بابه فتحيّر العسكر من هذا المخطر فما أفادهم إلاّ الصّبر، ورمى ماية خباء وذلك عادتهم إن كانوا خارجين للفتن والقتال، وأمر بفتح الخزاين وأعطى للعسكر المال، وكان عنده محمد بن شكر [39] هرب من محمد باي أمير تونس أراد قتله فهرب إلى مدينة الجزاير ومكث بها إلى أن وقع بين شعبان خوجة ومحمد باي بن مراد ما وقع، ورمى الداي الكتان، فبعث إلى محمد بن شكر وأعطاه ما أرضاه من الإحسان، [230] ووعده أنّنا إذا كسّرنا محمد باي وأخذنا بلاده فأنت بايه وأميره وحاكمه. فتقدّم وباس يديه وقبّل ركبته. وأمّا الدولاتلي فإنّه جهّز محاله وفقد عسكره وكتبه، ومن الغد أمر بالرّحيل وأخذ الطّريق. فهذا ما كان من شعبان خوجة.

[إتمام خبر محمد بن مراد باي]

وأمّا محمد باي لمّا وردت عليه الأخبار، بورود الدولاتلي طالبا منك الثار، فقام وشخر ونخر وفتح خزاينه وأعطى للعسكر راتبه ثمّ بعث أوامره إلى جميع رعيّته وتحت حكمه وسلطانه أن يقدموا عليه من كلّ

(39) محمد بن شكر : ثار على محمد باي بن مراد وهو صهره واستعان بالجزائريين فأمدّوه بجيش نزل قرب الكاف سنة 1105 هـ / 1684 م وخرج إليهم محمد باي في عساكره فهزموه واستولوا على ذخائره ثم لحقوه وخيّموا بالملاسين وكانوا يشنون الغارات على العاصمة. وفرّ محمد باي إلى داخل البلاد وجمع جيشا قاتل به ابن شكر وحزبه وهزمهم سنة 1106 هـ.

ناحية أشتاتا، همامة وجلاصا وبربر وعرب وعسكر زواوة وحمالة وجمالة وقبايل وأهل الساحل، وجهز سبعا من المحال وكلّ محلة جعل لها حاكما ورئيسا من جنس التي فيها، وجعل كلّ محلّة منفردة عن الأخرى وخرج من باردو وسار إلى أن وصل الكاف، ولم يقدر أن يتعدى ممّا به من الخوف والإرجاف.

وأمّا الدّولاتلي شعبان خوجة [لازال يرحل ويقيم إلى أن خرج من عمالته وسمع بمحمد باي أنّه نازل على قصبة الكاف حاجز بينه وبين بلاده مانع له من الدخول في ملكه فإذا دخل الداي وتعدّى صراط [40] منعه وقاتله وإلى بلاده ردّه، ولما وصل شعبان خوجة] إلى بحيرة الكاف نزلت محاله، ودخل عسكره وارتاح أيّاما ولم يخرج أحد من عسكره، كأنّ محالهم خالية من الرّجال. وأمّا السّبعة محال فلما قابلتهم محلّة الجزاير كثر فيهم الخوف والهرج، وكثر الركض على الخيل بالسّرج، فهذا مقيم وهذا راحل، وهذا على الفرار عامل، إلى ليلة من الليالي أمر الدّولاتلي بجمع ديوان بعد المغرب فنهضت الرؤوس والاضاباشية من أخبيتها، واجتمعت عند الدولاتلي رؤوسها، وتشاوروا فيما بينهم : غدا إن شاء الله نصدمهم ونقتلهم ونفرقهم، وناخذوا محالهم ولمّا طلع النّهار وأضاءت الأفق والأقطار، قام عسكر الجزاير وتقدّموا إلى خباء الدولاتلي، فلمّا اجتمعوا عنده قام ولبس عدّته وقام في وسطه ابباش قفطانه، وقفل سباطه، ودخل وسط [231] عسكره وداروا به وتقدّموا لا يزيدون قدما على قدم، ولا وقع بينهم ندم، وقصدوا السّبعة محال، وهربوا من قدّامه الرّجال، ولا تركوا في أخبيتهم إلاّ وكيل حرجهم وطباخهم، فلمّا رات قومان محمد باي الفرسان، أن محال الجزاير خالية من القومان، هرعوا إليها وقصدوها ودخلوها، وأخبيتها قطعوها، فالتفت العسكر إلى محلته

(40) واد سراط : يقع في ولاية الكاف معتمدية تاجروين.

فرآها في يد أعدايه، فوقفوا وأخبروا الدولاتلي بما كان فالتفت إلى محلته وقال لهم : مالكم ولهذا الكلام ؟ أنتم مثل هؤلاء ليام، كما قدّمنا في أوّل هذه الورقات في ضرب أمثال هذين العسكرين.

وقال الدّولاتلي : أنتم ماخرجتم من محلّتكم، وتريدون الرّجوع إليها، هذه محلّتكم قدّامكم انصروها وادخلوها، وأموالها حوزوها. وتقدّم على رجليه في وسط عسكره لا يقف أحد لقتاله إلى أن وصل المحلة الأولى فهرب من كان فيها فدخلها وحازها، ومن ورايه تركها، ثم قصد الثانية فأهلها بالهروب عاجلوه، ولم يقدروا أن يقفوا ويقاتلوه، فدخلها وحازها ومن ورايه تركها، وكذلك الباقي من المحال السّبعة، فما وقف له أحد في ترعة. ولمّا رأى محمّد باي أخذ محاله، وفرار رجاله، وحوز عسكره ركّض فرسه وتبعه خدّامه وأمّ ثنية تونس قدّامه. ولازال يسير اللّيل، ويركض الخيل، إلى أن دخل باردو تونس، فانخنس فيه كأنّه يربوع في نفقه [41]، وأمر بالدّخول إلى تونس عياله، وحمل من باردو أثقاله، ورفع إلى تونس خزاينه وأمواله، وصار مترقّبا لقدوم الدّولاتلي حاكم الجزاير إلى تونس.

وأمّا شعبان خوجة فبعد أخذه لذلك المحال، فرّق على عسكره المال، وأمر بالرّحيل الرّجال فقامت الأثقال على الجمال والأبغال، جادا في السير في النّهار واللّيل القصير إلى أن وصل إلى حريرية بلد تونس ونزلها واتخذها دارا [232] وحفر أبيارها مدّة خمسة أشهر فلما لم يرد عليه من تونس خبر بعث خيله ورجله إلى غار الملح وأخذوه ومن وجدوه ولحقوه في البحر أغرقوه، وأخذوا ما أرادوا من غار الملح ورجعوا إلى محالّهم.

(41) اليربوع : جنس حيوان من رتبة القواضم ويدعى جربوع.

ولما سمع محمد باي بأخذ قرية غار الملح وهدف عليه خبر ثان أن الدّولاتلي وعسكره رحلا من الحريرية قاصدا حرم المنوبية، ويقاتل تونس من قبلتها، ومن الجلاّز يدخلها، وياخذها فخاف على نفسه محمّد باي بن مراد من الأسر أو القتل، فلما جنّ عليه اللّيل ركب وركّب معه بعض أحبابه ولم يخبر أحد بفراره، ومن تونس خروجه. وخرج من تونس وقد سلّم في ملكه وجدّ في السيّر، وأخذ ثنية القيروان فوصلها ودخلها ثم خلّف ابنته تراكي أمانة عند أهلها، وخرج من القيروان وقصد نجع [42] دريد ودخله واجتمعوا عليه وهربوا به يرحلون لا يقيمون إلى أن وصلوا الصحراء. فأقاموا بسواحلها، ولما طلع النّهار وشاع الخبر في تونس وظهر أنّ محمد باي هرب ومن ملكه فرّ فعندها حلوا أبواب المدينة وساروا إلى شعبان خوجة فبايعوه فأمرهم بأن محمد بن شكر هو بيّهم وحاكمهم، وإليه مرجع أمرهم، فأتوا الأكابر ورؤوس العسكر إلى محمد بن شكر وبايعوه وقبّلوا يده وإلى تونس إلى دار محمد باي أدخلوه.

وأمّا شعبان خوجة فلم يطلع من محاله ولا فارق عسكره، ما خرج من وطاقه فياتوه رؤوس الدّيوان، وأكابر الزّمان، فيباتون عنده فيجلّهم ويكرمهم، وبالعجايب يخبرهم، إلى أن انجرّ حديث ديوان تونس، وكيف هو مونس، فقال لرؤوس الديوان : كنت أسمع بالديوان من قديم الزمان وأتمنّى رؤيته، والآن لمّا منّ اللّه عليّ وفتح علينا لابد أن أركب من هنا وأدخل تونس إلى أن تصل الدّيوان [233] وندخله ونتفرج فيه فأجابوه بالسمع والطاعة، وقالو له : هذا ليس في شناعة، «ادخلوها بسلام آمنين» [43]، وعلى اللّه متوكّلين.

(42) النجع : وردت هذه الكلمة المرات الكثيرة وتعني : مساكن الخيام مجتمعة ويسمّى الدّوار.
(43) قرآن : الحجر : 46.

ولمّا طلع النّهار، ركبت رؤوس الدّيوان ورجعوا إلى الدّيار، ثم اجتمعوا بالدّيوان، وفرشوه من كلّ الألوان، حتّى صار كأنّه بستان، وفرشوا بالحرير أبناكه، ولمّا رجعوا إلى الدولاتلي عزموا عليه، وأكبّوا على رجليه، وباتوا عنده. فعند الصّباح ركب وركبت حوانبه وخواصّه وخدّامه، وسارت الشّواش قدامه والخوجات وراءه ودخل المدينة وقصد الدّيوان. فلمّا وصله، نزل ودخله، وكانوا قد هيّوا له كرسيا ملوكيا في صدر الديوان، فتقدّمت الشّواش قدامه حتى وصل إلى الكرسي وجلس عليه ووقف الدّعاجية (44) ورفعوا أصواتهم وتقدّمت الخوجات وتلوا من القرآن [أحزابا وآيات] وفرغوا من دعايهم، وهو يتأمّل في هذا الدّيوان، لأنّ فيه سرّ ظاهر البرهان، ولما طاب الطعام أحضرت الموايد وفرشت السفرة وجلس الدولاتلي في صدرها وجلس معه أكابر المدينة وخواصها. ولما فرغ من أكل الطّعام وغسل يديه، وقعدوا بين يديه، يسألهم عن القوانين والمرتّبات، واللّباس والقيافات (45)، فيجيبوه عن كل ما هو عنه يسأل فقال لهم : والله أنّي آتي بشيء من المثل، أنتم خنفوس على ساقية من عسل.

هكذا من الثّقات بلغنا، وفي هذه الورقات كتبنا. فطاطوا بروؤسهم إلى الأرض كأنّما على رؤوسهم الطّير، فلمّا رآهم من هذا الكلام خجلوا، غالطهم وقال لهم : أمّا الباي فقد وليّناه، وزمام تونس ملّكناه، وأنتم الآن بين يدي حاضرون فاختاروا رجلا عاقلا شجاعا بطلا يكون بينكم دايا فاستمعوا [234] له وأطيعوا، وبالجواب اسرعوا، لأنّي لست بهذه البلاد قايم، وعلى الرّجوع إلى تختي وملكي ساير وعازم، فاتفقوا كلّهم على

(44) يبدو أن الدوعاجي صاحب خطة وهي الدعاء للباي أو الذين يدعون إلى القيام بعمل ما.
(45) القيافة : تتبع الأثر.

كلمة واحدة أن يولوا أمر تونس محمود طاطار (46)، راس الظالمين والفجّار، الظّلوم الغشوم خالي الدّيار، وميتّم الصّغار، فبين يديه أحضره وفي أمر الدّباية كلّمه، وأمر بالقفطان أن يلبسوه له، فلمّا سمع هذا الكلام من الدولاتلي شعبان قام قايما على قدميه ثم جلس على ركبتيه وقبّل يديه وحطّ راسه على ركبتيه وقال له : يا داي الزمان، ومقدّم الشّجعان، ومالك زمام الفرسان، ومفرّق القومان، أنا بين يديك فافعل بي ما أنت فاعله واقطع راسي، وخمد أنفاسي، وأرحمني مما فيه باسي، كيف أدخل في أمر لا نقدر عليه، وصاحب الملك محمد باي راجع إليه، وأنت إذا سمع بك رحلت، وإلى بلادك قصدت، فما بيني وبينه إلاّ أن يسير ليله ونهاره وتجتمع عليه جنوده ويصل إلى الحريرية، ويصلني ويحصرني، وتهرب إليه الرّجال ويقاتلني، ثم ياخذني ويقتلني، وليس لي دافع ولا دون الله فأقلْ، يا سيدي، من هذا البلاء عثرتي، وارحم عبرتي، فما أنا أهل لذلك، ولا أنت بفضلك تعرضني للمهالك. فقال له الدولاتلي الخوجة شعبان : وحقّ الرّحمان، وفضل القرآن، وشرف ولد عدنان، إذا قدم عليّ كتابك أو رسولك في ليل أو نهار لأرحل إليك ولو كنت وحدي ولا يسير أحد معي من عسكري وجندي، والله رقيب على ما عندي، إلاّ أن تكون أنت في أمرك قصّرت، ومن قوّة خوفك أخرت. ثمّ أمر بنهرة (47) : اخلعوا عليه القفطان. فألبسوه له وهو غضبان، خايفا من عواقب الزّمان، وطرُوّ الحدثان، وضربت بين يديه النّوبة، [235] وأجلسوه في الدّربية، ثم دخل القصبة، واجتمعت عليه الاختيارات زاعمون أنهم له عصبة، واستفتح في الأحكام، وبدا بقتل الأعلام، وأخذ أموال الأيتام.

(46) محمود طاطار : داي تونس، وصار مثلا على الظلم، كان يقال في عهد ابن أبي الضياف : «هنا حكم طاطار في القصبة» أخباره في : اتحاف أهل الزمان : ج 2، ط 2 ص 83-80 (واسمه هنا محمد طاطار)، وانظر الخلاصة النقية : ص 100.
(47) نهرة : توبيخ، تعنيف، تأنيب، تبكيت ويعني هنا بصوت مرتفع صارخ.

ثم رحل شعبان خوجة قافلا إلى بلاده بجنده وعسكره إلى أن وصل إلى تخت ملكه واستبرى من طاطار وأفعاله، والباي محمد بن شكر كأنّه حمار مربوط برثة حبل (48) في وتده لا يبدي ولا يعيد، ولا ينفع ولا يفيد، إلاّ الظّالم الطاطار وجوره فإذا قتل عالما سقطه في بيره وأخفى أثره ولم يعلم به أهله، وهرب الخايف وتغيّب إلى أن حضر وقت خروج المحلّة إلى الجريد فجهّز محمد بن شكر نفسه وأعطى الرّاتب عسكره وجمع جموعه وجنده. ولما تمّ أمره رحل من تونس يقطع المراحل، ويطوي المنازل، قدّامه الفرسان، إلى أن وصل مدينة القيروان، فحطّ بها محلته وبعث القواد لخلاص مجبته، وخرجوا إليه أهل القيروان وبايعوه، وبالضّيافة بجلوه وأكرموه، وعلى عادة البايات أتبعوه، ولكن قلوبهم إلى محمد باي مايلة وأخباره إلى آذانهم واصلة وسامعة، وكان من قدر الله الذي أمره بالكاف والنون، يقول للشّيء كن فيكون، لمّا خرج محمد باي من القيروان ترك بها ابنته تراكي وعند أهل القيروان خلفها وأودعها، فمن بلادة محمد بن شكر الباي لما سمع بها وأبوها في القيروان أودعها، فمن حينه بعث إليها وأمرهم أن ياتوه بها، ومن وسط جماعة القيروان إلى المحلّة يخرجونها.

فلمّا أبلغوهم الوصاية قالوا لهم : لا حبّا ولا كرامة، ونخروا وشخروا، وقدّموا رجلا والأخرى أخّروا، وكثر [236] الكلام الوحش (49) فيما به أمروا، واجتمعت أهل المدينة كلهم كبيرهم وصغيرهم وأرادوا قتل الحواتب، فولى عليهم حليمهم وقال : ما ذنب هؤلاء، ولكن طردوهم وأخرجوهم وغلقوا أبواب المدينة وجاهروا بنفاقهم. وفي تلك الساعة

(48) رثة حبل : حبل بال، رث.
(49) في الأصل : الكلام والوحش فيما به امدوا.

أحضرت السّيارة وكتبوا لهم كتابا إلى محمد باي بن مراد : العزم العزم، ولو تسير وحدك إلى أن تصل إلينا ونفاقنا قد شعشع وانبرم.

وأمّا محمد بن شكر بعث إلى أهل القيروان بالأمان، ونكافيكم بالإحسان، فردّوا جوابه وبالكلام الفحش قابلوه واسمعوه حتى قيل إنّهم واقفون على سور المدينة وهو واقف قريبا منهم ليسمع كلامهم فقال له بعض السفهاء : يا فرطاس. فلما سمعه عرى راسه لتراه الناس، وقال : أحقا أنا فرطاس. فضحكوا من قوله جميع النّاس. ولما بلغ الخبر، إلى محمد باي بن مراد استبشر، ورحل من ساعته وكلّ من سمع به اتّبعه حتى كثر جمعه وجنده ولازال سايرا إلى أن وصل إلى القيروان فسمعوا به فلبسوا سلاحهم وخرجوا إليه.

وأمّا محلة ابن شكر التّي فيها العسكر، الغالب عليهم الغدر، والحيلة والمكر، ولما وصل محمد باي بن مراد أمر أهل القيروان أن يقدموا على المحلة من قدامها وهو ومن معه من خلفها، وزحفوا وتقرّبوا وخرج العسكر من المحلّة يريدون القتال، فدارت بهم من كلّ ناحية الرّجال، فكانت مكاحلهم في صدور أعدايهم، فانفتلوا وردّوها إلى خلفهم، فلما راى محمد باي بن شكر أنّ العسكر قد غدر، فما أفاده إلاّ أن فرّ، هو وبعض أحبابه وترك الشّيء على حاله، ما انتطح فيها عنزان وخلت منه المحال. وقصد الخسران. ودخل محمد باي وطاقه وجلس في مجلسه وأخذ ماله وملابسه، قيل مكث في البياية عامين.

ولمّا وصل الخبر إلى [237] محمود طاطار بعث في ساعته وكتب لسبّاره وأرغبه في ماله ووعده إن رجع إليه عن قريب فيعطيه من المال الكثير جايزته، وكذلك جهز في البحر فرقاطة (50) وأرسلها إلى الجزاير

(50) فرقاطة : حراقة، سفينة ذات مرام للنيران ترمى بها العدو.

تجري في البحر كأنّها خطافة، وبقي مترقّبا النّصرة من الدولاتلي شعبان ذي الغيرة.

وأمّا محمّد باي بن مراد أعطى البقشيش إلى العسكر وزادهم في الرّاتب طاراقي (51) أو أكثر وأغمر الإحسان، لجميع القومان، ثم رحل وتوكّل على الرحمان [قدّامه الفرسان]، إلى أن وصل إلى مدينة تونس ودخلها، ووصل داره ونزلها، وأما طاطار غلق باب القصبة واجتمع عليه من أبناء عمّه وصاروا معه عصبة فبعث إليه محمد باي بالأمان فأبى وعاند وعوّل على الله، عسى الله أن ياتيه بالخوجة شعبان، وياخذ من محمد باي ثاره، وعلى عسكر تونس الغدارين ينصره. فلمّا انقطع رجاء محمد باي بن مراد رجع إلى الحزم وأمر بحفر لغم، قيل بدا حفره من زندالة القرامد (52) حتى وصل إلى تحت سور القصبة من قبالة التوتة، وملاه بالبارود وأحكموا الصنّاع صنعته، ولما تمّوا شغله أتوا محمد باي وبأمره أخبروه فبعث الشوّاش إلى العسكر : غدا إن شاء الله بالعزم، نطلقوا اللّغم، ويرحم الله من يموت فيه من الأمم، ومحمود طاطار ليس له علم بهذا اللّغم.

فلما طلع النّهار، واجتمع العسكر وبالقصبة دار، فلمّا رآهم طاطار، في أمره حار، وقال : ما لهؤلاء الفجّار، عسكرهم بالقصبة دار، فما تمّ كلامه حتّى قام البارود، وارتفعت ذلك البنود، وعلا الغبار، حتى أعمى الأبصار، وصدم من ناحية الهدم الذي طاح العسكر، ودخلوا القصبة وملكوها وتمكّنوا على طاطار، رئيس الفجّار، فقطّعوه وطبخوا لحمه وأكلوه، وصفت لمحمد باي بن مراد البلاد، وأطاعته العباد، ولما ارتاح من هذا [238] الأمر العظيم والمخطر الجسيم، فرق المال على الفقير واليتيم،

(51) طاراقي : درجات.

(52) بنهج القرامد قرب نهج زرقون. والزندالة : السجن.

ثم خلا بنفسه وفكّر في أمره وقال : إن طاطار لا بدّ له من البعوث إلى الخوجة شعبان، وكان قد حلف له بإيمان لوازم إذا وصل إليه كتابه أو رسوله ياتي إليه على حقد وعزم، فاستخبر بعض أحباب طاطار فأخبره ببعوث السيّار، فعندها قال : ما ينفعني مع هذا الرّجل إلاّ أن نجهّز له هديّة عظيمة، ذات قدر وقيمة، ونرسلها في البحر مع أفاضل الرّجال وأكابر الأولياء صاحب القدر فحرك في الهديّة (53) حتّى حضرت، وأمر بمركب فجهّزت وبعث إلى شيخ الوقت سيدي علي عزوز (54) نفعنا اللّه به في الدّارين آمين، فوصل إليه وتذلّل بين يديه، وقبّل راسه ورجليه، وقال له : أغثني يا سيّدي ومن باس هذا الرجل اعتقني، وأنا عبدك وخادمك ومنسوب عليك، فأجاب الشيخ سيدي علي عزوز إلى ماطلبه، وما فيه رغب، ففرح محمد باي فرحا عظيما، واستبشر سرورا جسيما، وعيّن معه العلماء، وأكابر المدينة فامتثلوا أمره وسمعوا قوله ورجعوا إلى ديارهم آخذين أسباب السفر مطيعين لمحمد باي فيما به أمر، وجرّوا إلى المركب [ما تحتاج من أسبابها ووصلوا الهديّة إليها وقامت المركب] على مخطاف واحد، ولما طلع النّهار أقبل الولي الصالح، ومن في ولايته نافح، وركب السّفينة، وركبت معه تلامذته وفقراؤه وكذلك العلماء. ولمّا استكملوا حلّوا القلاع، وعلى اللّه توكّلوا وجرت السفينة في البحر العجاج، المتراكم الأمواج، وداخله مفقود وخارجه مولود سايرين في حفظ اللّه كل منهم محروز بعناية الشيّخ الولي الصالح صاحب المناقب الفاخرة والإشارات الظاهرة سيدي أبي الحسن علي عزوز، اللّهم انفعنا به في الدارين آمين، ليالي وأيام، ليس فيها راحة ولا مقام.

(53) أي اشتغل في إعدادها.

(54) انظر حياته ومناقبه في ذيل بشائر أهل الإيمان : ص 302-287 والحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي : ص 299-298. ولد في فاس وارتحل إلى تونس ونزل زغوان لبث علمه الباطني وكان له أتباع ومبعاد.

[خبر الوليّ سيدي علي عزوز]

ومن عادة الشيخ سيدي علي عزوز قايما في زاويته أو مسافرا في برّه لابدّ له إذا أتى يوم الجمعة من حضرة الذكر عشية [239] هو وتلامذته وطلبته، فإذا وقف الشيخ وذكر ودار في الحلقة حتى ياخذه الحال، فتحضره الرّجال، ويكتبون ما يسمعون منه من المقال، وكان ما يقوله في الحال، أو في المآل، فالجماعة مسافرون في المركب مترقّبون من الرّيح الطّيب أن يهب، وكان ذلك اليوم يوم جمعة والشيخ من صبيحة هذا اليوم وهو يوم الجمعة متغيّرة أحواله إلى العشية وحضرت التّلامذة وداروا بالشّيخ على عادتهم المعلومة ثم قاموا إلى حضرة الذكر، وذكروا الله فقام الشّيخ سيدي عزّوز في وسط الحلقة ودار حتى أخذه حاله فأسرعت إليه أصحابه بالدّواة (55) والكاغظ ووقفوا يكتبون ما يقوله. فلما غاب عن حسّه، وصار لم يعرف يومه من أمسه، قال الشّيخ : يا بني اكتبوا، والله لا رجعت إلى مدينة تونس حتى أصلّي صلاة الجنازة وأنا فرحان، على الخوجة شعبان، وأحضر لدفنه ومغيبه في قبره.

فكتبوا الرّجال ما سمعوا من الشّيخ من المقال، ثم رجع إليه عقله وغاب عنه حاله وتمّوا سايرين إلى أن كشفوا مرصت (56) الجزاير فحصلوها ودخلوها ورمت في المرسى (57) المخطاف، وأمنت مما تخاف، وقدمت على السفينة الفلايك وأخذوا ما عندها من الخبر وأنّهم من مدينة تونس وقدموا بهديّة للدّولاتلي فرجعت الفلايك إلى أن وصلوا البرّ ونزلوا وطلعوا إلى دار السّلطان، يخبرون الخوجة شعبان، بقدوم المركب من مدينة تونس بهدية من عند محمد باي بن مراد. فلمّا أخبروا الدولاتلي بهذا

(55) في الأصل : الدوات.
(56) أي مرسى.
(57) في الأصل : المرسا.

الخبر، قام وقعد وشخر ونخر (58)، وقال لبعض حوانبه : سر إلى من أتى في هذه السّفينة واخبرهم أن لا ينزل أحد منهم ويرجعوا إلى بلادهم، وإلاّ في البحر غرّقتهم، وإن كان عندهم ما يقضونه في المدينة ينزلون، ولحوايجهم يقضون، ثم على عجل إلى سفينتهم يطلعون. [240] ويحلّوا أشرعتهم ويسافرون.

فلمّا وصل الرّجل إلى المرسى ركب الفلوكة ووصل إلى السفينة فرسًى وطلع إليهم وأخبرهم بما أمره به الدّولاتلي أن يسافروا إلى بلدهم ولا يقبل هديّتهم. فلما سمعت الرّسل، حديث المرسل، سقط ما بأيديهم وحارت أفكار جميع النّاس، فأخبروا الشّيخ سيدي علي عزوز فقال : ما عليكم باس، انزلوا واقضوا ما خصّكم وارجعوا إلى سفينتكم وارجعوا إلى بلادكم وهذا ما عند شعبان خوجة ولا يسد بير إلاّ صومعة، فنزل من هو مخصوص في الماكول أو المشروب فباعوا واشتروا وفي يومهم قضوا حوايجهم وطلعوا إلى مركبهم وحلّوا شراعهم وسافروا مقدار ماية ميل ثم باتت عليهم الرّيح الشّماليّة، لاذاهبة ولا آتية، ووقفت السفينة في مكانها وطووا أقلعتها إلى أن تهبّ الرّيح اللايقة بسيرهم. ولمّا نزلوا إلى الجزاير وقضوا حوايجهم ورجعوا وحلّوا قلاعهم وسافروا بهتت أصحاب الشّيخ سيدي علي عزّوز نفعنا الله به آمين، ولما قال الشّيخ فيه فكّرت، وعلى الشيخ تنكّرت، وقالوا : يالله العجب ما كتبنا شيئا عن الشيخ ورأينا فيه كذب، ما هذا إلاّ عجب، ولا قدر أحد أن يبدوه بخطاب، ليسمع من الشيخ الجواب، فإذا رآهم الشيخ في هذا الحديث يخوضون فيتلو قوله تعالى : «صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون» (59)، فإذا سمعت الجماعة من الشّيخ هذه الآيات ازدادوا حيرات والله علاّم الغيوب.

(58) يعنى أنه غضب وهاج.
(59) قرآن : البقرة 171.

وكان من قدر الله الواحد القهّار، مكوّر الليل على النّهار، العزيز الغفّار، فيما مضى في الأزل، إلى أن ياتي وقته فيحلّ وينزل، أنّ الدّولاتلي شعبان خوجة لمّا وصله خبر محمود طاطار وأنّه محصور في القصبة في غاية ما يكون [241] من الأكدار والأغيار، كأنّه فار محصور في غار، ولم يجد سبيلا إلى الفرار، لا في ليل ولا في نهار، ولو أمكنت له أجنحة لطار، مما لحقه من العسكر الغدّار، مما لحقه (60) من البايات القتل والنّفي والعار.

فلمّا سمع الدولاتلي الخوجة شعبان هذا الخبر، قدم رجلا وأخر أخرى، ولم يطق صبرا، ولا أخّر له أمرا، وانفتح صدره وضاق، وأمر في الحين برمي الوطاق وأمر الشّوّاش أن يدوروا في المدينة والأسواق : يا عسكر اسمعوا هذا الأمر وجهّزوا أرواحكم واقبضوا راتبكم فقد لحقني العار بين الأوجاق إلى يوم التّلاق، وأنا شعبان خوجة قايم حي يغلبني ابن مراد محمد باي، أمّا هو أو أنا، حتى يحضر أجل أحدنا، [والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين وقاهر الظّالمين والحمد لله ربّ العالمين] وفي تلك السّاعة أمر برمي الوطاق بابه مفتوح إلى تونس، ليزيل عن محمود طاطار النّحوس، فامتثلوا أمره وسمعوا قوله وأقيم الوطاق، وشعشع الخبر بين الجزاير وتونس بالنفاق، وكانت له محلّة من العسكر غايبة مدّة خمسة أو ستة أشهر، فقدمت يوم أقيم الوطاق ونزلت عشية غدا تدخل المدينة، فلمّا سمع بقدومها ففي الحين بعث إلى عسكرها ومن فيها أن لا يدخل البلد أحد منكم ولا يجتمع بأهل وولد، لأننا مسافرون على جناح طاير إلى نصرة محمود طاطار لأنّه أخذ علينا الأيمان الموكدة والعهود الموثقة : ما دمت حيّا لا تصيبك نقمة ولا تلحقك من غيرنا نكبة، وأنتم بحمد الله عسكرنا وفيكم داير أمرنا ونهينا فاسمعوا قولي وأطيعوني،

(60) ص : المتحمل من.

وعلى ما عولت عليه اسعفوني، فلمّا جاءت الشّوّاش إلى المحلّة عشيّة بهذا الخبر، اجتمع العسكر وقالوا للشواش : ردّوا على الدولاتلي الخبر : غدا ندخل المدينة ونجتمع بالأهل والولد ونرتاح أيّاما حتى يزول ما بنا من [242] الضّرر من هذا السّفر، لأنّنا مسافرون مدة ستّة أشهر [لا نعرف أهلنا في خير ولا شرّ، فإذا حصلت لنا الرّاحة] خرجنا لأمرك المطاع، وما علينا إلاّ الاتّباع.

فرجعت الشّوّاش وأخبروا الدولاتلي بما قاله العسكر فغضب ونهر على الشّوّاش وقال لهم : هم أولوا الأمر أنا أولي الأمر ؟ ارجعوا إليهم واكّدوا عليهم لا يدخل المدينة أحد منهم وإلاّ فهم أدرى بأنفسهم وما يحلّ بهم لأجل عصيانهم فاعزموا يا شواش إليهم وردّوهم عن أمرهم. فخرجت الشّوّاش إلى المحلّة واخبروا العسكر بما أمرهم به شعبان خوجة فنبّهوا الشّوّاش على العسكر فاجتمع وبهذا الخبر سمع، فقالوا على كلمة واحدة : لا سمعا ولا طاعة ولا حبّا ولا كرامة، نحن عصيناه وغدا إن شاء الله نصدموا عليه ونقاتلوه، ومن الدّولاتلية نعزلوه (61)، ووقفوا وصفّقوا بأيديهم : كش كش، وهذه كلمة يقولوها عند عصيان صاحب الأمر والمتولّي عليهم، فما أفاد الشّوّاش إلاّ ركض خيلهم والسّبق إلى مدينتهم وطلوعهم إلى دولاتليهم شعبان خوجة يخبرونه بخبرهم فأخبروه فقال : اغلقوا أبواب المدينة، نبّهوا على العسكر أن لا يرقد أحد منهم اللّيلة ويدوروا من داخل المدينة.

وأمّا المحلّة وما فيها من العسكر فلما رجعت الشّوّاش من عندهم بهذا الأمر الخطر نصبوا بينهم ديوانا فيمن يولونه عليهم دولاتلي، فاجتمعت كلمتهم على رجل لم يبلغني اسمه ولم يسمه لي النّاقل فبايعوه، وعلى الكرسي حطّوه، والقفطان ألبسوه، واتّفقوا على كلمة

(61) ص : وغدا إن عشنا صدمنا عليه وقاتلناه ومن الدولاتلية عزلناه.

واحدة على الدّولاتلي شعبان خوجة أنّهم عزلوه، أبدا لم يطيعوه، ولو قتلوا على جريدة واحدة، وتمت المبايعة [لذلك الرجل] وبكت عليه النّايحة، ولم ينام العسكر ليلته إلى أن طلع النهار، وتواترت عند الدولاتلي الأخبار، أنّهم عزلوك [243] وولّوا عليهم فلان الاختيار، فما وسع شعبان خوجة إلاّ أن أمر من عنده من العسكر أن يقاتلوهم من فوق الأسوار ويرموهم بالمدافع، وصار عن نفسه يمانع. ولما راوا من في المحلّة من العسكر أنّ هذا الضرر، بينهم ظهر واشتهر، ووصلت إلى المحلّة كورة المدفع والرصاص بين الأخبية نزل [ووقع] قابلوهم لصنيعهم وقاتلوهم بجدّهم واجتهادهم، حتى طاحت بينهم الرّقاب، وحصلت العداوة بين الأحباب، ومات جمع بين الفريقين، وصاح بينهم غراب البين، إلى أين إلى أين، إلى أن أظلم النّهار فأكثر من في المدينة الكلام، ووقع بينهم الخصام التام [العام]، وقالوا : يا ويلنا وأعظم ويلنا قد شمتت بنا أعداؤنا لمّا راوا من فعلنا وقتالنا لأولادنا وآبائنا وإخواننا وأحبابنا حتّى تخلى مدينة الجزاير، فيسمع عدو الدّين فياتي إلينا غاير، طالبا منا الدين الغابر. فاجمعوا يا من في المدينة أمركم، وتشاوروا فيما بينكم، واخرجوا غدا عند الصّباح كبيركم وصغيركم ووليّكم وصالحكم وأيمّتكم وقضاتكم وشهودكم وشريفكم وحقيركم وغنيّكم وفقيركم وضعيفكم إلى أولادكم وإخوانكم وآبايكم وانصبوا بينكم ديوانا شاملا وتشاوروا فيما يصلح أمركم، ويجمع كلمتكم. وأكّدوا على بعضهم بعضا أن لا يغيب أحد منهم.

ولما طلع النّهار هرعت الناس من كلّ مكان، شيوخ وشبّان، وبعثوا إلى المشايخ والولاة والأيمة والقضاة [62]. فلمّا اجتمعوا كلّهم فتحوا أبواب المدينة وخرج أولهم وآخرهم[63] من غير اختيار شعبان خوجة

(62) ص : الولات... والقضات.
(63) أ : آخرهم وأولهم.

دولاتلهم وقصدوا المحلّة، فلمّا رآهم العسكر التي في المحلّة وقفوا على أرجلهم وعمّروا مكاحلهم ولبسوا سلاحهم، فلما رآهم القادمون [244] إليهم قالوا لهم : العافية العافية. وأخبرني النّاقل قال : أنا واقف عند باب المدينة لمّا خرجت النّاس إلى المحلّة وإذا برجل شايب لابس برنوصا أخضر راكبا على حصان وهو يفحص فيه ويركض في وسط الناس، يمنى ويسرى يضحك ويضحك منه النّاس، وهو كورغلي [64] [ليس بعجمي ولا عربي]، ووصلت النّاس إلى المحلة واجتمعت الأحباب وسلّم الوالد على الولد والأخ على الأخ، ولمّا فرغوا من السّلام نصبوا ديوانا ثم تلاوموا فيما بينهم وتشاوروا فيما يجمع شملهم ويرفع ضررهم، وكثر الكلام، وارتفع الخصام، فكلّ منهم يقولون : نحن على الحق، وطال أمر الديوان فقال من بينهم ذلك الرّجل اللابس البرنوص الأخضر راكب الحصان فقال : اسمعوا منّي يا إخواني وأطيعوني، فيما أقوله لكم اتبعوني، فأجابوه بالاتباعة، والسّمع والطّاعة، على كلمة واحدة. فقال : اعطوني عهد الله وميثاقه أن لا تعصوني فيما أقوله وأفعله، فتمّموا له ما عليهم اشترط فقال : إنّي قلت وحكمت أن تقتلوا الدّولاتلي شعبان خوجة وتقتلوا أنتم يا عسكر من وليتم، ثم إذا قتلنا هذين الرجلين وعليهم صلّينا، وفي قبورهم دفنّا، فاختاروا رجلا من بينكم، وولّوه أمركم، وارتاحوا من هذه المحنة [فكأنّما نشطهم من عقال، وفرغ القيل والقال]، وارتضوا بهذا الحال، وافترق الدّيوان ورجع كلّ أحد إلى مكانه، ولمّا وصلوا المدينة اجتمعت الأضاباشية [65] والشّواش وطلعوا إلى دار السلطان وأقاموا الخوجة شعبان وأدخلوه إلى بيت وحطّوا في رجليه القيد وكذلك فعلوا من في المحلة بدولاتلهم.

(64) ص : قورغلي : هو ابن التّركي المتزوّج بعربية.
(65) ص : الاياباشية.

ولمّا علم شعبان خوجة أنّه قد حصل في الشّرك، ولا بقي منه ينفك، حدّثهم بحديث الإفك، وقال للحاضرين : ويلكم، وأكثر ويلكم، أمثلي يقتل اتركوني في مكان وولوا غيري حتى أدبّر أمركم وأقاتل عدوّكم ومهما اختلفت آراؤكم جمعتها بينكم، فأجابوه وقالوا [245] له : لقد قضى الله بما هو مقدر، ولا بقي ينفع حذر، ولا هروب من القدر. وكانوا لمّا افترقوا من المحلّة على هذا المقدّر المخطر، جعلوا بينهم أمارة وإشارة يكون خنق الرجلين معا في ساعة واحدة، وأدخلوا على هذا الدولاتلي الجديد الرّجال وخنقوه وعلى الحصيرة أخرجوه وطرحوه، وإلى النّاس أظهروه، فعند ذلك دخلت الرّجال على شعبان خوجة وخنقوه [فلما برد] في حصيرته أخرجوه وطرحوه وإلى الناس أظهروه، رحم الله أرواح الجميع آمين. وداخت المدينة بأهلها وزلزلت أقطارها وأشعلت نارها ودخل من في المحلة المدينة، وحصلت هذه الغبينة (66).

(66) الغبينة : معناها الفصيح : الخديعة، وهنا تعني المصيبة والقهر.

رجـع إلـى خبـر السفـينـة

كانت واقفة بسكّانها، في مكانها، ثم تلى تختلف عليها الرّياح فتمشي أمامها وترجع شمالها إلى أن وقع ما وقع على الدّولاتلي شعبان خوجة وحضر أجله وخنقوه وإلى الميضة رفعوه ليغسلوه ويكفنوه وإلى قبره يواروه. فأقبلت ريح من البحر وهبّت على السّفينة فحلوا قلاعها وساعدوا الريح وعصفها، فما أفاد رايس السفينة إلاّ اتباعها فألقتها الرّيح في مرسى الجزاير، فأسرعت إليهم الفلايك وأخبروهم بقتل شعبان خوجة العابر، فنزل الشّيخ سيدي علي عزّوز نفعنا الله به آمين، ونزلت معه تلامذته وطلابه وأصحابه [قد غلب عليهم الخجل لما وسوس لهم الشيطان] في قلوبهم وصدورهم [حل وانفتل]، فكاشف عليهم الشيخ سيدي علي عزوز نفعنا الله به آمين]. فضحك وقال لهم : «صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون» (67)، فأكبّوا على رجليه يقبّلونها، ويديه على رؤوسهم يمسحونها، ولمّا وصل البرّ ودخل المدينة وجماعتها معه قصد بهم الشيّخ الميضة كأنّه من سابق يعرفها فدخلها فوجد جماعة يغسلون في المرحوم شعبان خوجة فغسل معهم الشيّخ سيدي علي عزّوز وكفّنوه في نعشه رفعوه إلى [246] أن وصّلوه إلى قبره فحطّوه فصلّى عليه الشّيخ سيدي علي عزّوز مع من صلّى عليه ثم ألقوه في قبره ودفنوه وبالتّراب غطوه، ولما فرغوا قروا عنده الفاتحة وافترقت النّاس ودخل الشيّخ ومن معه إلى بعض الزّوايا والجوامع ونزل فيه واجتمعت عليه تلامذته وهرعت إليه أهل الجزاير، أكابر وأصاغر، بالطّعام الفاخر، والخير المتكاثر، وشاع خبره في أهل المدينة أنّه ما كان سبب قتل الدّولاتلي إلاّ الشيّخ سيدي علي عزوز لأنّه لم يقبل هديته وإلى بلاده ردّه خايبا، فكثر الاعتقاد في الشيّخ سيدي علي عزوز وجعلوا ياتونه ويزورونه ويتبرّكون به فيدعو لهم ويكتب لهم

(67) قرآن : البقرة 171.

الرّقيات والحروز فيرسلون إليه الوعايد، ويبعثون إليه بالأطعمة الموايد إلى يوم أن نصب العسكر الديوان، في دار السّلطان، وتشاوروا فيما بينهم فيما يولوه أمرهم فاتّفقوا على كلمة واحدة على رجل واحد لم يسمه لي النّاقل فكتبته في هذه الورقات، وإن علمت أيّها الناظر والمتأمل في هذه الورقات وكنت عالما باسمه ونسبه فبالله عليك فألحقه في طرّة هذه الورقات.

فاحضروا ذلك الرجل وبايعوه، وعلى التّخت أجلسوه، والقفطان ألبسوه، وباركوا له فيما أولوه، وبالعدل والرفق بالرعية أكّدوا عليه ووصّوه، ونزلوا من عنده، وضربت النّوبة بين يديه ووقفت الخدّام على راسه مستمعون لأمره ونهيه، [وتفرّد بحكمه] وفرغ من شؤونه فعند ذلك سمع بواقعة الشيخ سيدي علي عزّوز [وما كان سبب قتله إلاّ دعاؤه عليه وطرده، وبالقتل هدّده، فبعث إلى الشيخ سيدي علي عزّوز] والجماعة العلماء الذين معه فطلعوا إليه وبالملك هنوه ودعوا له بخير ثمّ بالهديّة أخبروه فأمر بإخراجها من السّفينة ووصلوها إلى دار السّلطان [247] ففي الحين أحضروها وإلى البيت أدخلوها وقدام الدولاتلي حلّوها وكشفوها ثم أمر بتخميلها وأقبل عليهم وفرح بهم وضيّفهم وأكرم نزلهم، وعلا في مدينة الجزاير شانهم وشاع بين الناس خبرهم إلى أن طلب الشيّخ سيدي علي عزّوز الرّجوع إلى مدينة تونس، وأخذ الإذن من الدّولاتلي فجهّز هدية لمحمّد باي معهم وأعطاهم وأتحفهم وبالخير أغمرهم، وأمر بكتب أوامر الصلح بينه وبين محمد باي. ولّما ختموها طووها، وإليهم أعطوها، وأرسل الدّولاتلي للسّفينة كل ما تحتاجه. ولّما تمّ فيها أمره طلب الدولاتلي من الشيّخ الدّعاء الصّالح، وأن يهديه الله للأمر الذي فيه للمسلمين المصالح والمرابح، وودّعه وبات الشيّخ سيدي علي عزّوز على سفره.

ولّما طلع النّهار، اجتمعت عنده الكبار والصّغار، وجعلوا يتبرّكون به ويقبّلون يده وهو يدعو للنّاس عامة وخاصة، وحضرت أصحابه وداروا به واستفتحوا في ذكر الأحزاب والبردة (68) على صوت رجل واحد إلى أن وصلوا إلى المرسة فاحضرت الفلايك وركب الشيخ سيدي علي عزّوز وتلامذته ومن معه من العلماء وخدّامه إلى أن وصلوا المركب، فطلع الشّيخ ومن معه مغرّب، ولّما طلع إلى السّفينة وكلّ من أراد السّفر إلى تونس رفع الرّايس مخاطفها وحلّ قلاعها وتوكّل على الله وتلا الشيّخ سيدي علي عزوز: «بسم الله مجراها ومرساها إن ربّي لغفور رحيم» (69)، وسافرت المركب بريح موافقة طيبة هينة مرضية إلى أن وصلت مرسى حلق الوادي ورست، وفي البحر مخاطفها ألقت، ونزلت الركّاب بحوايجهم والتّجار ببضايعهم، ووصل الخبر بقدوم الشيّخ ومن معه إلى محمد باي بن مراد، فبعث للشيّخ مركوبه وكذلك [248] للعلماء، أرسل إليهم خواصه واستقبلوا الشيخ ومن معه وهنّوهم بالسلامة، وهرعت إليهم أهل تونس جماعة بعد جماعة، وسلّموا على الشيّخ سيدي علي عزّوز ومن معه، وقد شاعت بين الناس كرامته وعلا شانه وشرق نوره، اللّهم اجعلنا ممّن يحبه.

ولّما وصلوا إلى منازلهم واجتمعوا بأهلهم وأولادهم أرسل محمد باي بن مراد إلى كلّ واحد من العلماء هديّة فاخرة، وخيرات متكاثرة، وتحقّق عنده أن له في الملك قدما راسخة والله أعلم بغيبه وأحكم.

---

(68) البردة: قصيدة كعب بن زهير في مدح الرّسول عليه الصلاة والسّلام التي أوّلها:
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيمّ إثرها لم يفد مكبول.

(69) قرآن: هود 41.

[خبر مدينة وهران :]

ولنرجع إلى كلامه الأوّل والدّايم : هو اللّه تعالى عزيز لا يذل، ملكه لا يتغيّر ولا يتبدّل :

ومكث هذا الدّولاتلي في الملك ما شاء اللّه، وسار إلى عفو اللّه، وتولّى غيره بعده ما شاء اللّه، ثم سار إلى عفو اللّه إلى أن تولّى الدولاتلي المرحوم كور عبدي [70] بمدينة الجزاير في حدود عشرين أو ما يقرب في دولة المرحوم حسين باي، وصارا كأنّهما إخوة وعلى كلمة واحدة ووجق واحد [ووهران في أيدي المسلمين من أيّام شعبان خوجة خرجت المقدّم الذكر إلى دولة كور عبيدي وكانت مدّة تصرّف دولاتلي الجزاير في] وهران، وما هو ملحوق بها يزيد على الأربعين سنة إلى أن قدّر اللّه بردّها لنصارة الصبنيور المالكين لجزيرة الأندلس، وكانت وهران قريبة لجزيرة الأندلس، ولمّا فكّها شعبان خوجة فكّها من أيديهم وسكتوا عنها عن هذه المدّة، ثم جهّزوا له عمارة مشحونة بالمال والرّجال، وآلة الحرب والأثقال. وكان المتصرّف فيها الباي أبو الشلاغم قيل له أربعة شلاغم اثنان واقفان الصعدا [71] واثنان مصوبّان على لحيته، وكان رجلا ظلوما غشوما، ومن أغرب ما سمعت وحدّثت به أنّه لمّا أراد اللّه بقرب أخذها وردّها للنصارى وكان يوم سوقها ياتي رجل ويدور بين النّاس ويبرّح برفيع صوته ويقول : من يشتري منّي وهران، [249] بخبزة مدة من الزّمان. ولا يردّ النّاس بالهم لما يقول فلما ردّتها النصارى تفكّروا قوله وعلموا صدقه. ولمّا ملكها وجق الجزاير ما عمّروا إلاّ البرج [الكبير]، قيل هو برج المرسى، وجعلوا فيه

(70) كور عبدي : كان يلقب بالكرد أي بالأعور، جلس على أريكة عرش الجزائر يوم السبت 20 جمادى الثانية 1136 هـ / 15 مارس 1724 م. قضى على الفوضى في بلاده، التجأ علي باشا باي في عهده إلى الجزائر فاعتقله في دار الباشوات حسب اتفاقية سابقة بين كور عبدي وحسين باي، وبقي في السجن خمس سنوات ونيف إلى عهد الداي ابراهيم خليفة بابا عبدي. انظر تاريخ الجزاير العام : ج 3، ص 220 وما بعدها.

(71) أي لفوق.

ذخاير كثيرة وخمسماية أو ستماية عسكرا ملازمين محافظين لذلك البرج، ما يستحقّون في شيء ولو طال حصارهم مدة كثيرة.

وأمّا باقي الأبراج جعلوا فيها نوبة قليلة ومؤنتهم تاتي إليهم كلّ يوم من البلد، والبلد قرية صغيرة وطال الزمان وارتخف الحال، وماتت الرجال، فبعد الأربعين أو ثلاث وأربعين وماية وألف [1140 أو 1143] وكان هذا أبو الشلاغم قد ناسب أحد مشايخ الأعراش وأخذ ابنته له أو لولده ما فطن الباي أبو شلاغم ومن معه، إلاّ والعمارة قادمة إلى المرسى وتحقّق عنده أنّ عمارة النّصارى الصبنيور قدمت لأخذها، وكان عنده طرف من تجهيز النصّارى العمارة وهم يعمّرون فيها لأجل أخذ وهران، فبعث إلى كور عبدي وأخبره وأكّد عليه أن يرسل إليه عسكرا كثيرا يمنعون معه البلد والأبراج من النصارى، فاشتغل عنه لأمر قدّره اللّه، ولا غالب إلاّ اللّه، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، فما قدر أبو الشلاغم أن يفعل شيئا، وخاف على نفسه من أسره وأخذ خزاينه وأسر عياله وأولاده. فلما رأى العمارة من بعد قاصدة البلد بعث إلى أنسابه أن يأتوه بالإبل الكثيرة، وكانوا أصحاب إبل فقدموا إليه بالرّجال والجمال والأحمال، وأخرج كل ما عنده وما يعزّ عليه، ورفع عياله وأولاده، وتبعه خدامه وأحبابه، فلما رات سكان البلد [أنّ] حاكمها سلّم في البلد، وتركها خرج وهرب كل من هو ساكن في البلد، فمنهم راكب، ومنهم راجل، وخرجوا من البلد كل [250] منهم أخذ إلى جهة هاجع، ولا بقي إلاّ البرج الذي فيه العسكر فغلقوا بابه ورفعوا صقالته [72]، ووقفوا ينتظرون حايرين في أمرهم وما يكون [منهم] وكيف خلاصهم أو أسرهم. ووصلت العمارة إلى المرسى فتكلّم عليها المدفع من البرج فتأخّرت عن رمية المدفع وبعدت إلى أن صارت لا يلحقها الكور. ورست، ومخاطيفها في البحر القت، وقلوعها طوت، وكان عرش بني عامر قريبا من البلد، وكانوا قبل ذلك يتمنّون ردّها

(72) الصقالة : السلّم القصير.

للنصارى ويعاونون النصارى على أخذ وهران، فلمّا سمعوا بقدوم
النّصارى وحطّهم المرسى هرعوا إليهم حتّى وصلوهم وأخبروهم أنّ الباي
أبو الشلاغم هرب وتركها وخرج من المدينة كلّ من فيها وهي خالية ليس
فيها أحد، فلمّا أخبروا النّصارى بهذا الخبر، نزلوا إلى البرّ، وأقاموا
ثلاثة أيام لم يقدر أحد من النصارى أن يقرب البلد ولا يدخل إليها منهم
أحد، وبعد الثلاثة أيام أمروا حكّام النّصارى عسكرهم أن يقدموا بني
عامر قدّامهم ويدخلون البلد خلفهم فتقدمت بنو عامر ودخلوا البلد
أمامهم، ثم دخلها عسكرهم فداروا في البلد هل يجدون أحدا، فما راوا
أحدا فرجعوا وأخبروا حكامهم [بيقين الخبر فنزلوا وهبطوا ما معهم
ودخلوا البلد وحازوها] وطلعوا إلى الأربعة أبراج وفركسوها (73)،
وبعسكرهم عمّروها، ثمّ لمّا قضوا مآربهم وتحقّق عندهم أنّ البلد والأبراج
حصلت في ملكهم بعثوا إلى العسكر الذي في البرج الكبير وتكلّموا
معهم، والأمان على أنفسهم أعطوهم، ولمّا بلغ الخبر إلى العسكر تشاوروا
فيما بينهم، وتحقّقوا حصرهم وغلبتهم وأنّ النصرة بعيدة عنهم فبعثوا إلى
النّصارى إن أمّنتمونا على أرقابنا وسلاحنا وما هو منسوب [251] إلينا
من البرج نزلنا، ولكم سلّمنا وخرجنا.

فلما وصل خبرهم إلى قبطان النصارى بعث إليهم أمانه صحبة
قسيسه وفي يده كتابه إلى أن بلغ البرج، فلمّا رأى العسكر العلج تقدّموا
إليه وتكلّموا معه فحلف لهم بصليبه وهو معلّق في عنقه أنّكم آمنون من
القران (74)، ومكره وخدعه وأنا واقف معكم وقاعد في وسطكم فإن
رابكم شيء فبادروني بقتلكم، وأنا رهن عندكم، إلى أن تخرجوا
حوايجكم، وشيء لا يبقى لكم فروحوا بأمان. فما صدّق العسكر بمقاله
وتحقّقوا صدق قوله فأخذوا ما يعزّ عليهم وما هو محتاجون إليه ونزلوا
ومن البرج خرجوا واستقبلوا ثنية تلمسان وتوكّلوا على الرّحمان، ولازالوا

(73) بحثوها.
(74) مشكولة في ص.

سايرين إلى أن وصلوا إلى تلمسان، ودخلوها وهم أذلّ من اليهود لفعلتهم
التي فعلوها وندموا حيث لا ينفعهم الندم، فالكثير من عسكر البرج من
كثرة العار والتوبيخ ما يقدر أن يتكلّم، وتفرّقوا في البلاد، وفارقوا
العيال والأولاد، وبلغ الخبر على جناح طاير، في مدة قريبة وصل إلى
الجزاير، وتكلّموا به الأكابر والأصاغر، وبلغ [طرف] منه إلى كور عبدي
دولاتلي الجزاير، فصار كأنّه حاير، ولم يقدم عليه من الباي أبو الشلاغم
مخبر ولا بعض الرّسل إلى يوم من الأيام، قدم إليه سيّار على الأقدام،
فأخذ الإذن ودخل، ورمى إليه كتابا ففي فكّه عجل، فلما قراه لوحه (75)
من يده وألقاه وعض إصبعه فأدماه، ممّا أصابه ودهاه، وقال للرّسول :
أخذت النصارى وهران. قال له : نعم. قال له : أخذوها [ولم ينتطح فيها
عنزان، قال له : نعم، ولا تقاتل فيها فارسان ؟ قال له الدولاتلي :
أخذوها] الصبنيور، ولم يهدم منها برج ولا سور. قال له السيّار : نعم
أخذوا النصارى البرج بالأمان، ولم يصتكّ فيها فرسان ؟ قال له السيّار :
نعم ولا تحارن فيها بغلان ؟ قال له الدولاتلي : أخذت النصارى وهران،
قال له السيار : [252] نعم، هذا ما قدره الرحمان.

ورجع من عنده وتركه على حاله، فلما أفاق الدولاتلي كور عبدي من
دهشته قال : ايتوني بالحاج محمد ولدي، ففي الحين حضر بين يديه،
ودموع الدولاتلي نازلة على خديه، فلما رأى والده على هذه الحالة قال
له: يا والدي هوّن على نفسك، ولا تهلكنا بفقدك وهذا ما قدّره ربّك،
والشّماتة ابن الشّماتة الباي أبو الشلاغم وعسكرك وأنت منهم بعيد
الدّار، وأخذ البلد مما جرت به الأقدار، فأمرني بأمرك وعجّل لي بخطابك،

(75) في الأصل : لوح ذلك الكتاب.

واكتب لأهل الجبال أوامرك، وجهز [76] لي محلّة بعد محلّة بعسكرك، وأنا متقدّم ونسير في جنود الخيل [اكتب إلى بياتك يجهّزوا لي أصحاب الخيل] ويسيروا معي. فكتب له الأوامر إلى من هو غايب وحاضر، وسار الحاج محمد من مدينة الجزاير، في خيل قليلة ومهما وصل إلى عرش أو باي أعطاه أمر والده فإذا قراه جهّز أصحاب الخيل ولحقت بالحاج محمد ما وصل إلى تلمسان تبعته الألوف الكثيرة، ولمّا خرج الباي محمد من عند أبيه أمر الدّولاتلي كور عبدي برمي محلّتين كل محلة دورها ماية خباء، وفتح خزاين الأموال، وفرّق على العسكر والرّجال، وفتح خزاين العتد، فجهّز بالعتد كلّ أحد. وفي مدّة قريبة رحلت المحال كثيرها رافعة على الأبغال، تسوق فيها الرجال، إلى أن وصلت تلمسان، وفيها اجتمعت العساكر والقومان، ورحلوا طالبين وهران، ونزلوا بعيدا من رمية المدفع فما شعر بهم نصارى وهران ولا أحد منهم على المحال تطلع، وأقامت العساكر والجنود أيّاما وأشهر ما خرج إليهم أحد من النّصارى حتّى حسبوهم أنّهم رقود فإذا قرب أحد من المسلمين الأبراج أو البلد رموهم بمحرقات النار وصوت البارود من المدافع كالرّعد [253] فتبعد النّاس خوفا من الحرق، وتدخل المحال فما أحد ينطق، وطال المقام أشهر، وكثير من النّاس ولّى وفر.

قيل إنّ أهل المحال كثر بينهم الكلام، في طول هذا المقام، وإذا بجاسوس من البلد، أخذ الإذن على الحاج محمد، ودخل وساره بكلام طويل ثم خرج ولم يعلم أحد له ما قال. ولمّا غاب عن عينه أمر الحاج محمد بحضور الشّاوش فحضروا بين يديه فقال لهم : نبّهوا على العسكر والرجّالة ودوروا على أهل الإيمان والقومان أن يجّهزوا أرواحهم ويفقدوا عتدهم ويلبسوا سلاحهم وأخبروهم أن عبّاد الأوثان والسّاجدين للصّلبان،

(76) ص : وهجر.

نصارة وهران غدا خارجين إليكم صادمين عليكم لا يتخلّف منكم إنسان، أين أهل الإيمان ؟ أين عبّاد الديّان، أين أصحاب القرآن، أين محبين [77] محمد صلّى الله عليه وسلّم سيد ولد عدنان، أين محبّين أبي بكر وعمر وعثمان، أين محبين علي وفاطمة والحسنان، حتى كلّ من فيه رايحة إيمان، قلبه خشع، وعينه دمع، لما سمع، فامتثلت المسلمون أمره وعملوا بقوله وأحضرت الطوبجية خيلهم [وفتحت خزاين المحرقات، وفقدوا مدافعهم وشحّموا عجلهم وربطوا بها خيلهم] وأبغالهم وانفرد المسلمون كلّ أحد منهم بنفسه وغسل جسده وباتوا في ركوعهم وسجودهم يدعوا الله أن لا يكلهم لغيره وينصرهم على الشيطان وحزبه «ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون»[78] «ألا إنّ حزب الله هم المفلحون»[79] إلى أن بان الفجر، وتكلّم الطّير، فقامت المسلمون لوضويهم وصلاتهم، ولما فرغوا من فرضهم صلّوا على أرواحهم صلاة الجنازة ووقفت المسلمون على ساق، وتقدّمت أهل الحقّ والمصداق، ما يريدون إلاّ التّلاق، بربّهم الخلاّق، ينتظرون خروج أهل الشّقاق، وعبّاد الأوثان الفسّاق، فما شعرت المسلمون إلاّ بفتح أبواب المدينة، يا للّه العجب أين كانت هذه الأشتات الحرينة ؟ كأنّهم جراد انتشر على [254] الأرض، أو قامت الخلايق للعرض، عساكر وجنود، وأصحاب رايات وبنود، قراناتهم راكبون الكراريس دايرين بهم الناس، ومقدّمون قدامهم الحراس الأنجاس. وأمّا عسكرهم كلّهم على رجليه، معلّق راية في عنقه مصوّبة على صدره فإذا قابلت الشّمس لمعت ولبصر قاصد صاحبها خطفت، وعن القتال شغلت، فهذا اعتقادهم فلعنة الله عليهم.

ولمّا قربوا من العسكر وأهل الإيمان، جنود الصلبان، وقف العسكر صفين قدر ميلين، وأمّا فرسان الخيل داروا حلقة بالحاج محمد قدر ميل

(77) كذا والصواب : محبّو... محبّو...
(78) قرآن : المجادلة 19.
(79) قرآن : المجادلة 22.

وتقدّمت عبّاد الرحمان، وقابلتهم عبّاد الأوثان، «والتفت الساق بالساق، إلى ربّك يومئذ المساق» (80) وصرخت المدافع بالكور والبارود، ما يظنّ السامع لها إلاّ أنّها رعود، ولمّا رأوا المسلمين مادّين الصّفوف عاندوهم في فعلهم ألوف بعد ألوف، وصار التّرجمان بين العسكرين الرصاص والكور، فمن وصله طاح إلى الأرض ودمه يفور، وتلك القرانات في الكرارس قاعدة وحرّاسهم بها دايرة. قيل عدد الكرارس مايـة أو ما يقرب من المايـة.

وأمّا صفوف المسلمين الخيل فيهم داخلة خارجة رؤوسهم بريش النعام المسبوغة معلمة، لا يلوي أحد على أحد، ولا يدري والد على ولد (81)، وتصارخت الفرسان، وصدموا على أهل الأوثان، فردّوهم بحرق النيران، واشتعل الحرب ووصل إلى السماء دخانها، وتقدّمت شجعانها وتأخر جبانها، وطال بين الفريقين القتال، إلى بعد الزّوال، ولم تتزحزح النّصارى من كثرة الرّجال، والمسلمون ليس لهم على بال، فقلقت جنود الإسلام من صبر عبادة الأصنام وإذا بهذا الراكب ركابه إلى فوق مشمّر، على أكتافه جلد [نسر]، ثم خرج من بين الفرسان راكب على فرس أو حصان أشقر، محجل أغر، نادى [255] برفيع صوته : أين يرجعون يا أهل الشّيطان وحزبه الحقوني وانصروني يا أهل الله وحزبه. فركضت في جرّته الخيل، وبطل [القال] والقيل، وصدموا على نصارة وهران، عساكر وقومان، ودخل ذلك الفارس وسطهم وتبعته الفرسان وصرخ العسكر بقوله : الله الله، ودخلوا على النّصارى بضرب البالة، فخرقوا مياتهم وألوفهم، وقطعوا صفوفهم، فالزعيم من النصارى والشجاع منهم انهزم وهرب إلى مدينتهم وغلقوا أبوابهم وتركوا عسكرهم وقراناتهم فأحاط بهم العسكر

(80) قرآن : القيامة 29.
(81) متداخلة في أ : واعتمدنا نسخة ص في إيرادها.

والفرسان، من كلّ جهة ومكان، قيل قتلوا من القرانات الرّاكبين في الكرارس البايات أكثر من خمس وثلاثين قران، كلّ واحد منهم له شان، وبعضهم حيًّا مسكوه وأسروه يريدون منه المال فلم يقتلوه فتركوا مدافعهم وخزاينهم وأموالهم فما حضر وقت العصر حتى لم يبق من النّصارى لا فارس ولا راجل ورجعوا خايبين إلى مدينتهم، ورجعت المسلمون وجمعت الأسلاب، وسلمت الأحباب على الأحباب، وفرحوا بنصر الله المبين، فارحين مستبشرين، وبالدّعاء إلى مولاهم الأكف مادّين، وبوجوههم إلى ربّهم خاضعين، وبرسولهم صلى الله عليه وسلّم متوسّلين.

ولمّا فرغوا من جمع الغنيمة فقدوا من مات منهم فرجعوا إلى موضع الخطرة وفتشوا على إخوانهم من المسلمين فمن وجدوه وجهه منوّرا مستبشرا، وجهه لم يسود راقدا على قفاه أيقنوا أنّه مسلم فيحفرون له ويقبرونه بلباسه وسلاحه، [ومن وجدوه وجهه محرقا بالنّار راقدا أسود مكبّ على وجهه ممتد علموا أنّه من النّصارى أخذوا سلبه وسلاحه] فإذا عرّوه دارت به الكلاب وأكلوه، ورجعت المسلمون إلى محالهم، يتحدّثون بأحوالهم، وإذا بالمنادي ينادي من عند الحاج محمد : يا أهل الله ويا حزب الرّحمان، هل [256] عندكم علم بالفارس الذي انغمس بين الفرسان، راكب الحصان الأشقر المحجّل الأغر ؟ فكلّ النّاس يقول : رأيته ولم نر وجهه ولم نعرف اسمه وحدّ علمنا به أنّه صدم على نصارة وهران وتبعته الفرسان، فسار منادي الحاج محمد ونادى في أماكن القومان فكلّ من الفرسان يقول : قد تقدّم قدّامنا، وعلى يديه كان نصرنا، وإلاّ كان الغلب من النصارى علينا، راكب الحصان الأشقر المحجّل الأغر ما نعلم له مكان، ولا من هو من الشجعان. فبعث الحاج محمد إلى المقتلة يفركسون عليه (82) فما وجدوا له أثرا، ولا علموا عليه خبرا. فدار الكلام في حقّه

(82) يبحثون عنه.

فقالوا : هو سيدي عبد القادر، وآخرون قالوا : هو بو عزة الأشهر. وتلهّف الحاج محمد بن الدولاتلي كور عبدي عليه، وتيقّن أنّ نصرهم من عند الله كان على يديه، ومكثوا المسلمون بمحالهم مشتغلون بصيادة النّصارى وقتلهم وأسرهم.

هذا ما كان من خبر المحال وعلى وهران إقامتهم وقد طالت إقامتهم أكثر من عام. وأما كور عبدي الدولاتلي فإنّه من أخذ نصارى وهران انصدع قلبه وكثر عنه همّه، ولما طال القتال ظهر كمده وطلعته آكلة بين أكتافه فلم ينفع فيها طبيب حاذق، ولا دواء صادق، فكانت هذه الآكلة سبب موته وحضور أجله فمات وانتقل إلى رحمة الله. ولما خرجت روحه زلزلت الجزاير لموته وبكوا بدموع الدّم على فقده، فاجتمعت أهل الجزاير، أكابر وأصاغر، وطلعت أكابر العسكر إلى دار السلطان ودخلوا بيته فوجدوه مسجّى على سريره فخلعوا ثيابه وغسلوه وكفّنوه وبين يدي القرا ألقوه، وباب دار السلطان مغلوق، خوفا من دخول [257] المخلوق، فقام باش أبياشي (83) وقال : لا ترفعوا الدولاتلي ولا تحطوه في النّعش حتى يتولّى طريقه غيره وينتعش، فصوّبت الأكابر كلامه وقوّموا قوله واجتمعت الأكابر ونصبوا بينهم ديوانا ظاهرا وتشاوروا فيما بينهم ومن يصلح للطريق ويولّوه أمرهم، فاختاروا ابراهيم خوجة (84) وكان في الجماعة حاضرا فألبسوه القفطان كارها وأجلسوه على تخته وتقدّموا وبايعوه وقبّلوا يده، وضربت النّوبة بين يديه، وأطلقت المدافع على توليته، في أقلّ من ساعة والميت يقرؤون عليه ولم يخرجوه من القاعة، قل اللّهم مالك الملك، ومسيّر في البحر الفلك، ومدور الفلك، لا يموت ولا يفوت، ولا ينعزل من الملك.

(83) أ : باش البباشي.

(84) ابراهيم خوجة : ابراهيم رمضان كان يعرف بالخزناجي، عين يوم 10 ربيع الأول سنة 1145 هـ / 2 سبتمبر 1732 م. انظر : تاريخ الجزائر العام : ج 3، ص 225... وفي عهده حدثت وقعة سمنجة.

فلمّا فرغت الأكابر من بيعة دولاتليهم وحاكمهم، جعلوا كور عبدي في النعش ورفعوه، وإلى تربته وصلّوه، وصلّى عليه الإمام ثم في قبره حطوه، وبالتّراب واروه، ونادى المنادي : لا دايم إلاّ اللّه، وهذا ابراهيم خوجة أمر العباد تولاّه، فإن عدل فبها ونعمت وإن ظلم فالله حسيبه «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» (85).

وقدم إبراهيم خوجة على هذا الأمر العظيم، والتّدبير الجسيم، وكاده تدبير محال وهران وعسكرها والقيام على وهران وقد فرغت خزاين أموالها ومخازن الخيل خلت رباطتها من كثرة ما مات من خيلها وأبغالها، فحطّ راسه على ركبته وفكّر في أمره وشغله وحربه فأقام عنده مقام التّحقيق أنّه يبعث أمره وسيّاره للحاج محمد يقدم عليه لأنّه ما وجد له في الأتراك صديقا، ولا محبّا ولا رفيقا، فخرج بالأمر السيّار، إلى أن بلغ الحاج محمد يرتاح اللّيل ويسير النّهار، فركب كأنّه جناح طاير، إلى أن بلغ الجزاير، وترك المحال نازلة على وهران ولما وصل عزّوه في والده، فسقط ما بيده، وغاب عن نفسه وتجلّد للصّبر كما قال [258] الشّاعر :

وتجلّدي للشّامتين أريهـــم * أنّي لريب الدّهر لا أتضعضع

فأجابه لسان الحال :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها * ألفيت كلّ تميمة لا تنفع (86)

وبات من نكده صهرانا (87) ومن فقد والده تعبانا حيرانا، إلى أن طلع الملوان (88) فقام وصلى وتلا عشرا من القرآن، فلمّا فرغ من هذا

(85) قرآن : الشعراء، 227.

(86) البيتان لأبي ذؤيب الهذلي من قصيدته :

أمن المنون وريبها تتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع

(87) كذا والأصح : سهرانا.

(88) الملوان : الليل والنهار أو طرفاهما الواحد.

الشان، طلع إلى دار السّلطان، وأخذ الإذن عن صاحب الزّمان، فأذن له فدخل وسلّم على الدولاتلي ابراهيم خوجة وبايعه وقبّل يده وبارك له فيما أولاه الله، فأذن له الدولاتلي بالجلوس فجلس وأخرج ما عنده من النّاس وتحدّث معه في أمر قتال نصارى وهران فأجابه وقال : ما رأيت لفتحها سبيلا، لا كثيرا ولا قليلا، سوى خسارة المال، وقتال الرّجال، وهذا ما قدّره الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه ثمّ أذن له في الرجوع إلى محلّه فقام من عنده وهو مفكّر في أمره، واشتغل خاطره في بعوث الدّولاتلي إليه ولم يخبره على ما بعثه إليه، فبعد أيّام بعث إليه وإلى دار السّلطان طلع ووقف بين يديه فأذن له في الجلوس فجلس، وأخلى له المجلس. فلما خرجت النّاس قال له : يا حاج محمد أنت عندي في مقام ولدي وأعزّ النّاس عليّ وأقربهم إليّ ولكن يا ولدي هذا الوجق لا يصلح بك وبه كثير من حسّادك وأعدايك يكرهون، وأخاف أن يقتلوك، ولكن إن سمعت كلامي فاخرج بمالك وعيالك وخدامك وسر إلى بلاد آبايك وأجدادك قبل أن يرجع العسكر من وهران، وارتاح من نوايب الزّمان. فامتثل أمره وقبل قوله وتيقّن أنّه بالنصح صادقه فقام وقبّل يده وخرج من دار السلطان، غير مطمان، وأخذ في أسباب الخروج من وجق الجزاير، وجمع ماله وأخرج في القياطن [259] عياله ومن أراد من خدّامه سافر معه واتبعه، وكان خروجه من الجزاير في سنة أربع أو خمس وأربعين وماية وألف [1145-4] في آخر أيام الأمير حسين رحمه الله، وياتي تمام خبر الحاج محمد بن كور عبدي وقتله في طرابلس في دولة الباشا علي بتونس إن شاء الله.

ولما طال بين نصارى وهران وعسكر الجزاير القتال، ملّت وعيت الرّجال، وفرغت الخزاين من المال، وماتت من كثرة الدّفوع الخيل والأبغال، ولم يظهر لوهران نصر ولا مآل، نصب الدولاتلي ابراهيم خوجة ديوانا خاصة وأعوانا وتشاوروا فيما بينهم وقالوا : إنّ هذا البلد قد أبى الله إلاّ

أن تكون مسكنا للكافرين، أعداء الدين، ووجق الجزاير قد قتل في حربها ونزالها وفي الإقامة عليها فرغت خزاين الأموال، ولم يظهر لنا منها حال، فاتّفقت كلمتهم فيما بينهم أن يرسلوا إلى عسكرهم وخيلهم يرجع كلّ أحد إلى بلاده، والعسكر إلى وجقه، فكتبوا الأوامر وأرسلوهم مع الرسل، وهذا ما عليه عوّل. ثم لمّا فرغ من هذا الديوان، وكثير من أصحابه نزل من دار السّلطان، وجلس معه خواصه قال من غير احتشام، وعلم أنّه من الظّلام، إن قهرتنا وغلبتنا وفكّت من أيدينا مدينتنا نصارى الصبنيور، فبعد سنين وشهور، نفدوا نقمتنا من وجق تونس ونفشّوا فيها غيظنا، قال في المثل : «غلبوه في السوق ولّى على الحايرة في الدار».

[رجوع الى خبر علي باشا :]

ومهما أصابهم أسر في سفنهم أو قحط حلّ بهم، قالوا : ما أصابنا هذا إلاّ بحلول هذا الرّجل أعني علي باشا سامحه الله في بلدنا، ولم ينصره الدّولاتلي ولا عسكرنا. واشتهر علي باشا عندهم بالعلم والعمل، وكان من صنيع الباشا علي لمّا حلّ بالجزاير أن جمع أصحابه الذين ساروا معه واختار منهم رجالا وأمرهم أن يشهروه في المجالس والمجامع ويتحدّثوا بعلمه وفضله، وأنّه قطب زمانه وأشاعوا هذا الكلام بين النّاس بإذن من علي [260] باشا حتى شوّقوا أكابر الجزاير إلى زيارته والتبرّك به، فإذا أتاه أحد من الأكابر زاير، أظهر له التمسّك الزّايد فإن كان الزّاير من أهل العلم باحثه وأظهر له علمه وان كان من أهل الزهد والعبادة اظهر له الوعظ وعمّر قلبه بكلّ فايدة، واستلون لكلّ من ياتيه عملا بقول القائل :

لبست لكلّ زمان لبوسا * ولابست صرفيه نعمى وبوسا

وعاشرت كلّ جليس بما * يلائمه لأروق الجليسا

فعند الـــرواة أديـــر الكـــــلام * وبين السقـــاة أديـــر الكؤوســـــــا

[فطورا بوعظي أسيل الدموعـــا * وطـورا بلهوي أسرّ النفوســـا](89)

واستحذر الباشا علي رحمه الله من مكايد عمّه الأمير حسين سامحه الله، ولا ياكل ولا يشرب من يد أحد إلاّ من يعتمد عليه، ولزم مكانه ولم يخرج إلاّ لصلاة جمعة أو عيد فلا يلتفت لأحد ولا يكلّمه ولا تدخل عليه أصحابه إلاّ بإذنه، فزاد شكره في مدينة الجزاير، واعتقدوه أكابر وأصاغر، وصار مكبّا على كتفه ومترقّبا لوعده، حتّى أتاه الفرج، ونصره الدولاتلي ابراهيم خوجة، ومن الجزاير خرج. هذا ما كان من خبر الباشا علي سامحه الله.

(89) الأبيات من قصيدة في المقامة الطيبية وهي الثانية والثلاثون من مقامات الحريري وردت في الأصل مختلّة ومحرّفة.

رجع إلى خبر الحاج محمد بن الدّولاتلي كور عبدي :

أخبرني بعض من ينتسب إلى الصّلاح أنّ سبب خذلان العساكر الذين ساروا إلى قتال النّصارى الصبنيور لمّا أخذوا وهران وتحصّنوا فيها وملكوها وأرسل الدّولاتلي كورعبدي ولده الحاج محمد وقدّمه وولاّه أمر العساكر والمتطوّعين والراغبين في الجهاد في سبيل ربّ العالمين، وقدّمت سادتنا الطّلبة من كلّ (90) مكان، واجتمعوا بإزاء المحال، فصارت تخرج في اللّيل جماعة من الطّلبة يصطادون النّصارى، فمن وجدوه أسروه ويأتون بهم إلى المحال، فإذا رأوهم التّرك تعرّضوا إليهم، [261] وفكّوا النصارى من أيديهم.

ففي بعض الأيام لم تسلم الطّلبة في أساراهم وكانت الطّلبة ما يقرب من الثلاثين فلما لم يسلموا قتلت التّرك من الطلبة جماعة وفكّوا النصارى فبلغ الخبر إلى الحاج محمد فركب من وطاقه معه حوانبه وعرض الترك الذين قتلوا بعض الطلبة فلمّا وصل إليهم أمر بجماعة التّرك الذين قتلوا الطلبة أن يخنقوهم فخنقوهم عن آخرهم. فلمّا سمعوا أبناء عمّهم بقتلهم توعّدوا الحاج محمد بالقتل وكرهوه، وفي وجهه سبّوه، وبعثوا إلى الدّولاتلي إبراهيم خوجة بما صنع الحاج محمد من قتل العسكر وتحقّق عند الحاج محمّد أنّهم يريدون أن يغدروه فانحلت حزمته وتغيّرت نيّته وأخذ منهم حذره لأمر قدّره الله في سابق علمه وقضايه على مدينة وهران أن يملكوها ويسكونها أعداء الدين.

وأمّا المتطوّعون الطالبين الجهاد، في رضاء ربّ العباد، والعمدة فيهم على الطّلبة لمّا راوا ما صنع التّرك معهم صاروا يبيتون ولا يصبحون، وفي اللّيل إلى أهاليهم يرحلون، وإلى مساكنهم يرجعون، ولا بقي إلاّ

(90) في ص اختلاف في الالفاظ.

قليل القليل مع جند مدينة الجزاير، واستقلّوا، وعلى الرّجوع إلى بلادهم عولوا. هذا سبب دار خذلان العسكر والقومان. ولما وصل خبر التّرك إلى دار السّلطان، إلى دار ذلك الرّجل الخوّان، بعث أمره إلى الحاج محمد بالقدوم عليه هو ومن معه من الفرسان، فلمّا وصل المكتوب من الدّولاتلي على الحاج محمد ففكّه وقراه، وعلم ما فيه دسّه وخبّاه، ولم يطلع أحدا على ما فيه، وكتم أمره عن التّرك أعدائه، وأمر أصحابه بتخميل أثقاله من غير أن يطلّع عليه أحد ولم يخبروا بما هم عليه والدا ولا ولدا. فلمّا فرغوا من [262] شغلهم أخبروا الحاج محمّد بفراغهم فبات على جناح طاير.

ولما نامت النّاس ترك وطاقه وركب في خيله وقصد الجزاير، يطوي المراحل، ويقطع المنازل، مقصّرا في صلاته متلوّا (91) لقرآنه، وكان رجلا معه بعض الطّلب، ومعرفة بالمذهب، إلى أن دخل مدينة الجزاير وطلع إلى دار السّلطان، وبايع حاكم الزمان، كما قدمناه قريبا.

هذه رواية ثانية فيما سمعناه من هذا الرّجل في حق رحول الحاج محمد من وهران، وبعده بعث الدّولاتلي برجوع العسكر والقومان، وتركوا مدينة وهران، لعبّاد الأصنام والأوثان، وهذا ما قدّره القاهر الديّان، الذي لا يشغله شان عن شان (91م).

(91) كذا والصحيح تاليا.

(91م) جاء في سورة الرحمان : كل يوم هو في شان : الآية 29.

رجع إلى ما كنّا بصدده وبذكره وتخليده

وفرغنا من خبر علي باشا وما كان بسببه نشا، وأمّا عمّه الأمير المعظم حسين بن علي السّلطان الأفخم، لما تهنّى من ابن أخيه علي باشا بن محمد باي سامح اللّه الجميع، واستقرّ في علمه أنّه وصل إلى مدينة الجزاير وسكن كلّ ثاير، وخمدت نيران الفتنة وانطفت كلّ من في يده من النّار شعلة، وغصّت الرجال بما في قلوبهم من الحرقة ورجع الباي حسين إلى باردو كرسي ملكه، وارتاح من حربه من ابن أخيه، واستلقى على ظهره من كثرة تعبه وكان وصوله إلى مقرّ عزّه وتخته وملكه قريب الصّيف، وتجهّزت المحلّة الصيفية على العوايد الجارية ورمت الكتّان (92) قريب الفسقية (93) فاستخلى الباي حسين بنفسه وفكّر في سفره وأوراحته فمالت نفسه إلى الرّاحة لما أصابها من كثرة التّعب والمساهرة فاستخلف باش كاتبه ووزيره المرحوم قاسم بن سلطانة نسبا الباجي على المحال، وتخليص [263] الرّعية من العوايد والمال، فامتثل أمره فيما استخلفه، وياتي إن شاء اللّه خبره في ذكر أصحاب الأمير حسين سامحه اللّه وخواص خواصّه وخدّامه.

ولما أقام الأمير حسين بن علي بباردو ولم يطلع في محلّة الصّيف وجد الأمور قد تغيّرت على ما كانت عليه خلفها وزادت المعايش في أسعارها، والتفت في كل بلد إلى علي باشا رجالها وخواصها، وتمنّت الرجال انقراض دولة الأمير حسين بن علي وزوالها وانقراضها، وبلغ ذلك إلى الباي حسين وأقام عنده مقام التحقيق، وبلغه تهجريس كل صديق، في كلّ بلد وقرية وجبل وبحيرة فضاق من هذا الأمر صدره، وعيل صبره، وثقل عليه أمر ابن أخيه علي باشا وأمر انقلاب وعكس مملكته وكثير من

(92) رمت الكتان : نصبت الخيام.

(93) الفسقية : كانت قبالة باب سيدي عبد السلام. انظر ملاحظة رقم 2 ص 91 من الترجمة الفرنسية.

النّاس بحبّ الباشا، لا يتحاشا، وهرعت إلى الباي حسين النّصاح بالأخبار الموحشة، وأسرّت إليه بالأمور المدهشة، ففوّض أمره إلى خالقه وتوكّل على ربّه وقال : إن سجنت كم أسجن ؟ وإن عاقبت كم أعاقب ؟ وإن قتلت كم أقتل ؟ ولكن أقول : اللّهم سلّط عليهم من يحبّونه ويتمنّون توليته وسلطنته، وفي مقامي يرونه ويشاهدونه فينتقم من كبيرهم، ويقتل شبانهم ويأخذ الأموال من كهولهم، ويحوّج عند العجز شيوخهم لا يرّق لكبيرهم ولا يرحم صغيرهم ويكشف السّتر عن المخدرات، وتهلك في ثنايا مملكة تونس الذكور والبنات، وتخلى في أيّام البلاد، وتموت بظلمه جوعا العيال والأولاد، أجب دعوتي فيهم يا الله يارب العباد، ثمّ قال : يا من حضر قولوا آمين. قال الحاضرون : آمين، يا ربّ العالمين، عليك بالظّالمين [264] ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

وكان تسكين هذه الفتنة، ورجوع الأمير حسين إلى السّلطنة، لتكميل المدّةالتي بقت له وتقضي بقية أيامه التي بها اللّه وعده [في أواخر]اثنين واربعين ومااية وألف من الهجرة النبوية [1142]، على صاحبها [محمد] أفضل الصّلاة وأزكى التّحيّة.

ذكر بعض خواصّ خواصه وأكابر كتّابه ووزرايه ومدبّري مملكته والقايمين بتوليته وخدمته

[الحاج يوسف برتقيز]

فأولهم من أخصّ خواصه الحاج يوسف برتقيز إمامه وجليسه وأنسه في سرّه وعلانيته، وكان فيه أهلية أن يكون أنس الأنس، لما جبله اللّه عليه من الظرافة وخفّة النّفس، وكان صاحب «بشاير أهل الإيمان» الذي نشا بسببه جمع هذا الديوان ذكر [بعض] فضايل الحاج يوسف برتقيز في مبدا أمره في أول عمره وما صار له في حجّته والتقايه بالأفاضل الأكابر مثل سيّدي محمد العابد الذي بارك اللّه له في عمره وبلغ الميين في مدّة حياته وعاشره الحاج يوسف في مكّة في هجرته وتكلّم على طرف من خبره ولم يستوف له ما بلغ في آخر عمره من العزّ والرفعة وما سامه من الذلّ والمحنة، وكان في دولة علي باشا سجنه وتعذيبه بالسّياط ثم خنقه فمات شهيدا رحمه اللّه ونوّر ضريحه (94).

فأيام عزّه [265] ورفعته آخر أيام الأمير حسين [باي رحمهما الله آمين وبلغ من المكان والمكانة عند السلطان أنّه لا يتكلم أحد معه في مجلس الحكم بين يدي الأمير حسين] لا قاضي تونس ولا مفاتيها ولا علماؤها والقول ما يقوله الحاج يوسف، فإذا صلصل البازي فلا ديك يصرخ، مع ما هو عليه من الأدب مع دار القاضي بتونس بأجمعهم، فإذا قال قولا عمل به سواء كان في مجلس الحكم بين يدي الباي حسين أو في تونس أو في غيرها، وبيت الإمام في باردو معلومة مشهورة يجلس فيها الحاج يوسف وحده، وبعد فراغ الأمير حسين من الحكم الصباح، وفصل الوقايع بين الناس، فإذا قام من المحكمة قصد بيت الحاج يوسف فيدخلها ويجلس معه لا ثالث معهما فإن كانت قضايا عند الحاج يوسف أو حوايج الطّالبين خاطبه فيها بحسن أدب واحتشام وظرافة زايدة وعدم تكرار،

(94) انظر : «بشائر أهل الإيمان» : ص 257 - 259..

فيمضي له في كلّ ما تكلّم فيه معه، وهذه عادته، فمن أصابه شيء أو رأى ميلا عليه في دار القاضي بتونس أو غيرها هرع إليه ودخل باردو وقصد بيته فيدخلها عليه من غير استيذان ولا بوّاب ولا حاجب ولو كان من أقلّ النّاس، فإذا رأى الدّاخل وصله حطّ الكتاب من يده وتبسّم في وجهه وأنّسه بالحديث والسّؤال من أين هو حتّى يرتاح ذلك الدّاخل عليه ثم يسأله الحاج يوسف رحمه الله عن حاجته فإن كانت شرعية قال له نهار المجلس : صوّب إلى هنا فإذا رأيت دار القاضي اجتمعوا للمجلس قدّام الأمير ادخل واطلب انفصال قضيّتك بالشّرع العزيز لا محيد عن الحقّ، فياتي صاحب القضيّة يوم الإثنين نهار المجلس وتاتي دار القاضي بأجمعهم لباردو وينصبون المجلس في بيت الملك ويحضر الأمير وقاضي باردو والإمام وخواص الأمير حسين من العلماء، مثل الصّغير داود (95) وغيره ثم يأذنون عشيّة في الدّخول لأصحاب الدّماء، ومن هو مطلوب بقتل أو متهوم في دم ويقعدون بين أيديهم و المجلس داير، والأمير حاضر [266] فيفصلون الأحكام بحضرة الأمير قاضي تونس ومفاتيها وغيرهم ساكت لا يتكلّم معهم، فإذا رأى الحاج يوسف تعالى وميلا من قاضي تونس ومفاتيها نظر للباي حسين وبينهما إشارة، فيقول الباي حسين : يا حاج يوسف ويا قاضي باردو ما تقولان في هذه القضية. فيتكلّم القاضي ويقول الحقّ في هذه القضيّة هكذا وكذا، والحاج يوسف ساكت لا ينطق بحرف فيجاوب القاضي [القاضي] ويتكلمان في القضيّة فإذا طالت المباحثة بين القاضيين فعندها يتكلّم الحاج يوسف رحمه الله ويقول : الحقّ الذي أدين به مع قاضي باردو، وقاضي تونس عمل بكذا وكذا ما يقول شاذا ورواية ضعيفة خوفا أن ينسب قاضي تونس ومفاتيها إلى ظلم النّاس ويفهم من قوله الأمير حسين سامحه الله أنّه راعي مجلس

(95) سيترجم له أسفله.

تونس (96)، فيحكم الباي حسين بما قاله الحاج يوسف من غير تراخ ولا بقي أحد يتكلّم معه ولو كان القاضي مثل البرزلي أو ابن عرفة (97) خصوصا في هذا الزّمان وارتفاع العلم وكثرة الظّلم، هذا دأبه في القضايا الشرعية وأمّا الأمور العادية فإذا وصل لأحد ظلم من متولّي عليه مثل آغة وكاهية وقايد قصد الحاج يوسف إلى باردو تونس ولو كان في أقصى المملكة ويشتكي له حاله وما ناله من الظلم فيهنّيه ويبشّره بقضاء حاجته وزوال الظلم عليه من غير هديّة ولا شحمة ولا نحلة، فجزاه الله خيرا عن المسلمين. ويقول له : ارجع إليّ غدا أو بعد غد ويقصّ عليه قضيّته وما هو الظالم له، فإذا فرغ الباي حسين من الحكم ودخل بيت [الحاج] يوسف وجلس معه فيخبره بأمر ذلك الرّجل وما أصابه من الظّلم فيفرح الباي حسين بما سمع منه ويشتهي أن يخبره بمثل هذا وأكثر [267] فيقول الباي حسين للحاج يوسف : إذا رجع إليك المتظلّم فامره أن يشتكي إليّ وأنا في محلّ الحكم فإذا رجع ذلك الرّجل للحاج يوسف للوعد الذي وعده فيامره أن يشتكي للأمير حسين سامحه الله وهو في المحكمة فيرجع ذلك الرّجل ويشتكي للأمير حسين بظلامته من فلان، فإمّا أن يكتب له أمره برفع ظلامته أو يعيّن معه الحوانب فياتوا بصاحبه ويقفا بين يديه ويفصل بينهما بالحقّ أو ما قاله الحاج يوسف هذا دابه وخصاله الحميدة مع جميع النّاس رحمه الله، وجعل معه عمله الصّالح في قبره له مونس.

وأمّا الطّالبون للطّرق والوظايف مثل وكالة أو شهادة أو غيرها فيقصده الطّالب لذلك الحاجة من غير هديّة ولا رشوة فإذا رأى الحاج

(96) بعده في أ جملة مكررة حذفناها.

(97) البرزلي (841-740) أبو القاسم بن أحمد البرزلي البلوي القيرواني الإمام شيخ الإسلام المدرّس والمؤلف والمفتي والخطيب بجامع الزيتونة. تلميذ ابن عرفة له كتاب «جامع مسائل الأحكام» انظر الترجمة رقم 163 من كتابنا الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي.

وابن عرفة (803-716) أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي التونسي، فقيه ومدرس وإمام وخطيب ومفتي بجامع الزيتونة لمدة طويلة تقارب النصف قرن انظر الترجمة رقم 150 في كتابنا المذكور.

يوسف فيه أهلية لذلك المطلوب ورآه يستحقّ ذلك وعده بقضاء حاجته وهنّاه بقضايها ويامره أن يرجع إليه في يوم يسميه له فإذا دخل عليه البيت الأمير حسين وجلس في مجلسه فإذا رأى الباي حسين فارغ البال من أمور المملكة زاهيا شارها مقبلا عليه فياذنه في الكلام بحسن أدب فياذن له أن يتكلّم فيخبره بمطلوب ذلك الرّجل مثلا يقول للأمير حسين : وكيل الجامع الفلاني أو إمامه مات، وفلان فيه أهلية لذلك أو طالب شهادة فيقول له : فلان طالب الشهادة وفيه أهلية للشهادة ويمدحه له وينسبه للعلم والتقوى فيامره أن ياتيه للمحكمة فيكتب له بما قاله الحاج يوسف ويقول له الأمير حسين : جزاك الله عنّي وعن المسلمين خيرا.

فإذا أتاه رجل في اليوم الموعود صباحا فيامره بالدّخول للمحكمة والباي حسين سامحه الله جالس على كرسيه لفصل الأحكام بين الناس، لأجل رفع الظّلم والباس، فيدخل ذلك الرّجل ويقف بين يديه ويخبره [268] بحاجته وطلبته فعندها يعرف الباي حسين رحمه الله أنّ هذا الرجل هو الذي أخبرني به الإمام فيامر بقضاء حاجته ويوليه ويكتب له أمره من غير تراخ ولا مهلة، ولا تأنّي ولا مشورة، فرحم الله بهذا الرّجل العباد في ذلك الزّمان، ويا عجبا وإن كان أفعال الله لا يسأل عن كيفيتها وسببها ولم وكيف وهو الفعّال لما يريد كيف ابتلى الله تعالى هذا الرّجل أعني الحاج يوسف برتقيز نوّر الله ضريحه بعلي باشا سامحه الله حتى تمكّن عليه هو وولديه، وسجنهم، وفي الزّندالة ربطهم، وعذّب الحاج يوسف بضرب السّياط مرة بعد مرة فإذا قام من مجلس حكمه ودخل بيته علي باشا رحمه الله أمر بالحاج يوسف في القيود والأغلال، ويامر بضربه وهو في الاغلال الخ كما ياتي في محلّه.

وفي علمي وعلم غيري أنّه لم يسع[98] في أيّام عزّه في ظلم أحد عند أميره والمقبل عليه والله أعلم بالحال، وإليه المرجع والمآل.

(98) في أ : يسمع.

ولمّا كانت خزنة السلطان مملوة جامعة محتوية للكتب النفيسة في كلّ علم وفي كل فنّ وتصريفها بيده، وحكمها راجع إليه، وهي محطوطة بين يديه، فرأى فيها كتب الفقه على مذهب أبي حنيفة كثيرة نافعة، مطوّلا ومختصرا، ومذهب السّلطان حنفي، ومذهبه حنفي، وكان صاحب علم مشارك في كل فنّ، صاحب ذكاء زايد، واطّلاع فايد، وفيه أهلية للتّصنيف مع فراغ البال، وقلة شغبة العيال، وكثرة المال، ووفور الدّلال، والظّهور على الفحول من الرّجال، أراد أن يشرح بعض المتون من متون كتب رجال أبي حنيفة[99] فأحضرها بين يديه وفركسها وفتّشها فاختار من المتون متن الشيخ القدّوري[100] رحمه الله وعولّ على شرحه بالكتب الرفيعة التي في خزنتها فشمّر [269] على ساق الجدّ وصمّم على أن لا يعاونه في هذا الشرح أحد، وأمر ياش نجار بالقدوم عليه فأتاه مطيعا لأمره سامعا لقوله مبتغيا لمرضاته فقال له الحاج يوسف : أريد منك أن تصنع لي مثل هذا المثال، وكان قد صوّره من الشمع حتى أتمّه على هيئة الميدة[101] المدورة، وفي أسفلها مركز تدور عليه ذلك الميدة وقدر دورها يرفع من الكتب المنشورة ما يقرب من عشر أو أكثر من الكتب مدوّرة مع دور المائدة، وجعل لهذه المايدة من فوق قبّة بهيئة عجيبة، كاملة العجب غريبة، ووصل الفوقاني بالأسفل بأذرعة عيدان نازلين من فوق إلى طرف المايدة، وبينهم وبين طرف المايدة فروج كالأبواب في شكل غريب، وترتيب عجيب، وكان النّجار رجلا عارفا بالصنعة معه بعض

(99) ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، امام الحنفية وأحد الأئمة الأربعة. (80 - 150 هـ) قال الإمام الشافعي عنه : الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.
(100) ابو الحسين أحمد بن محمد القدوري (362 هـ - 428 هـ) من فقهاء العراق الحنفيين، انتهت اليه رئاسة الحنفية في العراق صنّف المختصر المعروف باسمه «القدوري» ومن كتبه «التجريد» في 7 أجزاء.
(101) الميدة : المائدة.

معرفة، فاستعجل الحاج يوسف في مادتها من الأخشاب واللّوح فأحضرت في الحال، وأخذ المعلم في العمل فانتهى في أقرب وقت ففرح بها الحاج يوسف بما به أحكمت، وأنا الفقير إلى ربّه محمّد بن محمّد الملقّب بالحاج الصغير بن يوسف الباجي مسكنا، الحنفي مذهبا، رأيتها وتأمّلتها وتعجّبت من صنعتها والكتب منشورة عليها وهي بين يدي الحاج يوسف، فإذا احتاج إلى شرح مسألة وهي في بعض ذلك الكتب المنشورة دوّرها بيده حتى ياتيه ذلك الكتاب من غير رفع ولا مشقّة في تفتيش الكتب وما فيها.

وسهل الله له في شرح متن القدوري حتى أتمّه وسوّده من أوله إلى آخره، وأتى فيه بحلّ مسألة عويصة ويكشف كل مشكلة غميضة، فأتى هذا الكتاب بكل ما يحتاج إليه أولي الألباب، في أربع مجلّدات في قالب النصفي، وكنت رأيته في مسودّته، وأردت أن أسعى في تحصيله فلم يسهّل الله عليّ بذلك لأنّي لست [270] أهلا لذلك، والله هو الموفّق لما أراده وبعض طلبة تونس من الحنفية المنتسبين للعلم أخرجه من مسودّته فجاءه في أربع مجلدات كلّها ضخمة لأنّ الشيخ يوسف رحمه الله لما وفى (102) من جمعه كان قريبا من نزع الباي رحمه الله من ملكه فبقى على حاله كما ذكرته.

وكان الإمام يوسف رزقه الله ولدين : الكبير أحمد ياتي خبره في محلّه إن شاء الله، والصّغير حمودة باقي حيًا إلى زمن جمع هذه الأوراق في سنة سبع وسبعين ومائة وألف [1177]، وكانت والدتهما زوجة الحاج يوسف فاطمة مامية أخت الفقيه الأديب الشاعر الإمام محمد بن محمود

(102) انتهى.

بن مامي (103) فولدت للشيخ يوسف هذين الولدين، فلمّا شبّا وبلغا حد التّعليم فأقراهما والدهما وعلّمهما، فطلع ابنه أحمد أعجوبة الزّمان، في الحفظ والفهم والفصاحة والبيان، والخلق الحسنة والإحسان، الخلق أحسن ما صوّره الرّحمان، وكان تربّى في حجر السّلطنة عالمون بما فيه من الحفظ والفطنة. وكان الإمام يوسف رحمه الله قد انحطّ عن سنّ الكهولة ودخل في سن مبدإ الشّيخوخة وله زمان قايم بمشاق الإمامة وتعبها وتحفّظها على الأوقات ومراصدها وبلغ ولده أحمد مبلغ الرّجال، وفي علم الأمير حسين باي سامحه الله ما هو عليه من الكمال، فأخذت الأمير حسين الرافة والرّحمة على الحاج يوسف لما فيه من المشقّة، فاستلطف بالحاج يوسف إمامه وتكلّم معه وقال له : قد أطلنا تعبك ونريد أن نريحك في بقيّة عمرك، وهذا بفضل الله ولدك أحمد قد تعلّم ونعلم ممّا هو فيه من حفظ القرآن، والخلق والخلق الحسان، فأردت أن أقيمه مقامك وتقدمه لي إماما وإن كان صغيرا لأجل راحتك [271] والمسك بطبعه والثّوم ينفخ بنتنه.

فلمّا سمع الحاج يوسف هذا الكلام من الباي حسين قبّل يده وأكبّ على رجليه وباس ركبته، وبكلّ خير دعا له وشكر صنيعه، وسمعت الأكابر بتولية ولد الحاج يوسف رحمه الله إمامة الأمير حسين سامحه الله، فهرعوا للحاج يوسف يهنوه بفضل ما أعطى الله ولده في حياته فيلاقي كلّ من أتاه مهنّيا له ببشاشة زايدة، ومراعاة فاضلة، وكلّ أحد يقيمه مقامه، «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (104).

(103) محمد بن محمود بن مامي : لم يترجم اي أحد لهذا الشاعر الذي حدثنا عنه محمد الصغير.
(104) قرآن : الحديد : 21.

ولمّا راحه الأمير حسين من مشاق الإمامة جلس في بيته المعلومة وأقبل على كتبه مدبّرا لأمور مملكة سلطانه، فإذا خليا أخبره بما يقع في مملكته غثه وسمينه، وصار الإمام أحمد قايما بتكاليف الإمامة، وقاضي حوايج من في العمالة، فإذا خرج لمحلّة الصّيف مع الأمير حسين ووصل إلى باجة أسرع إليه كلّ ذي حاجة، فيخبر الأمير، فيقضيها له من غير تقصير، وكان منزله في باردو باجة في أيّام الباي حسين في العلي الذي يقال له اليوم كشك سيدي سليمان بناه له الباشا وأزاح ذلك البنيان القديم وجدّد بناءه وزوقه وجلّزه حتّى صار اليوم كأنّه جنّة نعيم لأجل ولده سليمان رحمه الله. إذا نزلت بباجة محلّة العسكر وهو خليفته فيها فيترك الوطاق، وبهذا الكشك يقيم، ولمّا سمعت أهل باجة ورعاياتها بمكانة الإمام أحمد عند الباي حسين [هرعت إليه في قضاء حوايجهم من شرعية وعادية وبلغ مع الباي حسين] الغاية القصوى والدّرجة العليا حتّى نظر إليهما الزّمان، بعين الطّغيان، وهذا شانه وكان أمر الله قدرا مقدورا (105).

وأمّا الحاج يوسف برتقيز لمّا ماتت زوجته، أم أولاده المقدّم ذكرها، آنفا، تغيّرت أحواله، وتوعّصت (106) آماله، ففكّر [272] في أمره وما يسلّيه فاقتضى نظره أن يسعى في تحصيل حجّة ثالثة ويرتاح من هذه النايبة، فصمّم على ذلك، ولمّا جلس هو والأمير حسين كعادتهما المعلومة قيل إنّه تكلّم مع أميره وجليسه وأتاه بمقدّمات وما يناسب بما صمّم عليه، ولازال بالأمير حسين رحمهما الله ينتقل له من بحث إلى بحث حتى ذكر له ما فرض الله على المسلم من الحج إن كانت له استطاعة، وشوّق الأمير إلى الحجّ كثيرا حتى قال له الباي حسين : لو بلغ ولدي محمد الكمال، في تدبير المملكة والعمّال، لأقمته مقامي في حياتي وقصدت أنا وإيّاك،

(105) قرآن : الأحزاب : 38.
(106) توعصت : تعقدت.

وأنت خليلي وصاحبي وأؤدي ما فرضه الله عليّ، وأمّا أنت فقد أديت ما فرضه الله عليك من حجّة الإسلام وشرّفك الله بثانية لاقيت واجتمعت فيها بالأكابر والأعلام ولكن حيلت بينهم وبين ما يشتهون، والله يعلم ما يسرّون ما يعلنون (107)، «ولله عاقبة الأمور» (108) فقال له الحاج يوسف : لك على مذهبك مندوحة، أن تنوب من يحجّ عنك والمسايل على مذهبك بهذا مبسوطة ومشروحة، وإن كنت ترضاني أن تنوّبني لأحجّ عنك فالأمر بيدك «والله على ما نقول وكيل» (109). فاستصوب الأمير حسين كلامه واستبشر به وقريا الفاتحة على ذلك.

وأخذ الحاج يوسف في تجهيز نفسه ومآرب سفره وشاع بين النّاس ذلك، ولمّا تمّ شغله تحرّى له الأمير حسين رحمه الله من المال، ما هو حلال خالص إما من غنيمة أو إرث ورثه من زوجته فاطمة بنت عثمان أو من غيره، وزود الأمير حسين الإمام الحاج يوسف بكلّ ما يستحقه وبعث للحرمين الشريفين معه صدقاته. ولما عزم على السفر اختار في المضيّ ركوب البحر من سوسة لأن (110) طريقه سهلة إلى اسكندرية [273] وأمر من يرتضى به ويعتمد عليه في أموره وقضاء حوايجه أن يمشي معه للحج. وقيل بل سافر إلى الحجّ باختياره وحجّه لنفسه لا لمن ينوب عنه في حجّه والله أعلم.

ولمّا أراد الخروج من باردو والسفر إلى سوسة أقبلت إليه النّاس من كلّ البلاد حاضرة وبادية وخرج في يوم هو آخر أيامه في العزّ والرّفعة، وشيّعه الباي حسين وأولاده، ومن تونس كلّ عالم ومقلص (111) وهرعت

(107) تضمين من القرآن : لا جرم أنّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. سورة النحل، الآية 23.
(108) قرآن: الحج : 41.
(109) قرآن، القصص : 28.
(110) ص : لانها، أ : لان.
(111) مقلّس : وهو الفقيه الذي يلبس القلنسوة او القالس، ويحفظ المدوّنة والموطأ وعشرة آلاف من الحديث النبوي. انظر ملحق القواميس العربية لدوزي : ج 2، ص 403.

إليه أكابر باجة، قاضي ومفتي وشاهد ومن قضى له حاجة، إلى أن وصل زغوان وزار الشيخ سيدي علي عزوز واجتمعت عليه الناس في مبيتته بزغوان فإذا جاؤوه بالمأكول له ولمن معه جمع الناس على المأكول وكيله، وطلع الحاج يوسف إلى السّرير وقت الماكلة وأرخى عليه ستره وياكل وحده. هذا ما سمعناه من بعض من شيّعه. ولازال الحاج يوسف سايرا والنّاس تلحقه لكلّ منزلة، فهذا راجع ومن لحق عابرا إلى أن بلغ إلى سوسة.

وأمّا أكابر باجة شيّعوه إلى زغوان ومنها رجعوا وفارقوه فوجد المركب حاضرا ما تستحق في شيء إلاّ في طلوعه والرّايس له ناظر، فأقام بسوسة حتى فرغ من شؤونه ثم طلع إلى السّفينة وجلس في قمرته (112) فأقامت البحرية مخاطيفها وحلّوا شراعاتها وقلاعها وتلوا قوله تعالى : «بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربّي لغفور رحيم» (113) وجرت بهم السفينة حتى غابت عن الأعيان، ووصلت إلى اسكندرية في مدّة قليلة من الزّمان، فحصّلوا مرسى الإسكندرية، وارتاحوا من غوايل البحر وأمواجه العطيبة، فأقام الحاج يوسف بالإسكندرية ما شاء الله ثم رحل إلى مصر فوصلها كما تمنّاه، وأقام بمصر في أمر ومأمور، ومن عوايق الزّمان مستور، إلى أن جاء طلوع الركب من تونس فجهّز الحاج يوسف نفسه وفي أيّام السّفر ما يحتاجه وبلغ الحاج [274] يوسف ومن معه إلى مكّة سالمين وادعى الحاج يوسف حجه، ووصل إلى أهل الحرمين الشريفين أمانته (114) ولمّا قضى حجّه عليه أو على من نوبّه أعطى المال للحاج أحمد زروق ليتجر فيه لأنّه وكيله فاشترى من السّلع ما عنده قيمته، ومن الطّيب ما دفع ثمنه حتّى تمّ شغله وحمل متجره وفي الأحمال

(112) القمرة : الغرفة من الايطالية Camera.
(113) قرآن : هود : 41.
(114) الأمانة : الوديعة (معنى عامي).

حطّه، وفي يوم الرّحيل على الإبل رفعه، والحاج يوسف مقبلا عليه دهره ضاحكا في وجهه زمانه إلى أن وصل إلى المدينة المشرّفة وزار الضريح الشريف، والمقام المنيف.

ولمّا رحل الركب ركب مركوبه ودارت به خدامه يطوي مع الركب المنازل، ويقطع معه المراحل، سالما غانما فرحا ضاحكا مستبشرا إلى أن وصل مع الركب إلى مصر، فاكترى دارا وحطّ بها أحماله، وحمّل أثقاله، وزار بعض الأولياء واستشاره أن يركب في البحر، أو يسير في البرّ، فأشار إليه أن يكون في البّر مسيره ومرجعه، فامتثل أمره وجهّز نفسه وكثر جماله واختار خدّامه وبات على سفر إلى أن تم الركب الصّحراوي وبات على سفر فنصب خيمته ووسق إبله وساقتها خدّامه وهو سالم من عوايق الزمان، متّكل على الرحمان، صايم قايم في رضاء الملك الديّان، إلى أن قطع مع الركب ذلك الصحرا الغبرا، وذلك المسافات الوعرا.

ومن قوّة اعتناء الأمير حسين رحمه الله به والتشوّق إليه ترد عليه أخباره منزلة بعد منزلة، يرحله وينزله. ولمّا علم قربه من طرابلس بعث إليه غلوسة (115) ظريفة متحوفة بقوادها وسواقها ومؤنتها وعلفها ولازالت الغلوسة سايرة في البرّ قبل تعدت طرابلس [وقيل حدها طرابلس وقبل لم تصل طرابلس] واجتمع بها وركب فيها وقيل إنّه في هذا السفر صايم لا يفطر إلاّ على حليب الإبل [275] مع قوّة الحر، لازال سايرا مساعدا للركب وأهله، وقد اشتهر بينهم فضله، إلى أن وصل ودخل في مملكة تونس فهرعت إليه النّاس ما صار له في غدوه صار له في رواحه إلى أن دخل في باردو تونس واستقبله الباي حسين وسلّم عليه (116) وأتوه أولاد الأمير حسين وسلّموا عليه وقبّلوا يده وتبرّكوا به.

(115)الغلوسة : عربة تسير بالغلس اي في ظلمة الليل كما ترجمت الى الفرنسية (ص 129).
(116) وردت باختلاف في التعبير في أ.

ولما وصل للباي حسين [رحمه الله] نفض قدامه حوايجه لتصل للأمير غبرته وفرح به أشدّ الفرح وأمره بالرّجوع إلى بيته ليرتاح فرجع إلى داره بباردو واجتمعت به أولاده وأحبابه واستبشر بقدومه المحبّون، واستحزن لوصوله وسلامته المكرهون. ولما وصل إلى محلّه أوّل ما سأل عن أحمد ولده وصدر منه شيء شانه فهنّوه بسلامته من المعايب، وهو مع سلطانه في كلّ أمر صايب، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله وسلّم على آله وصحبه. وانقضت أيام السّفارة، وانتهت النّاس في الزّيارة، وفي علم الأمير حسين بن علي سامحه الله أنّ زوجته أمّ أولاده توفت وسارت إلى عفو الله قبل سفره إلى الحجّ فبعث إليه بعلجية من مماليكه وخواص بيته ووهبها له وخرجت من ملك الأمير حسين فقبلها، وعاين حسنها وجمالها فاستعجل أمرها فدارت بها المواشط وزيّنوها، ومن الحلل ألبسوها، ومن الجواهر قلّدوها، وأدخلت عليه فقبّلت يده ووقفت قدامه، فأمرها بالجلوس وأن تنزع ما عليها من الملبوس، فوقعت منه موقعا عظيما، وقبولا منه لها فخيما، ثم بعد ذلك قلّده الباي حسين رحمه الله وظيفة الفتيا بمدينة تونس، ورقّاه درجات منبر محمد باي بن مراد باي القريب من ضريح الشيخ سيدي محرز بن خلف (117) نفعنا الله به آمين، إماما وخطيبا. ولما ولاّه الباي حسين هذه الوظايف بمدينة تونس [276] اشترى بها دار الحاج الصغير الشنّوفي قيل بأربعة آلاف وقيل بخمسة آلاف، وانتقل إلى الدّار المشتراة، وهي بالمكان المسمّى ببير الحجار، وخلف ابنه أحمد بباردو قايما بأعباء الإمامة، طالبا من الله السّلامة، ففي كلّ خميس يزور والده فيوصيه بمراعاة الأمير حسين وأحواله. وأوّل جمعة صلاها بهذا الجامع وخطب على منبرها أراد أن يغيّر في الخطبة بعض المعتاد، فما رضت بفعله العباد، وبلغه ما قالوا في حقّه فرجع إلى المبدوع وسننه وهذا كان قريب الوعد بزوال ملك الأمير حسين

(117) محرز بن خلف من كبار أولياء مدينة تونس وأدبائها وزهادها ومؤدبيها.

سامحه الله، والأمر فيه نفذ، وكان مدّة ملكه لكرسي تونس واستقلاله بالسلطنة ثلاثين سنة، بويع الأمير حسين بن علي سنة سبعة عشر وماية وألف [1117] وعزل من كرسي تونس سنة سبع وأربعين وماية وألف [1147] فهذه مدّة ملكه ثلاثون سنة ياتي تمام الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

ومكث الحاج يوسف بتونس إلى أن جاء الأمير علي باشا مستنصرا بعسكر الجزيرية وخرج إليه عمّه من تونس وياليته لم يخرج، والتقى العسكران، بموضع يقال له سمنجة (118) عند وادي مليان. ولما التقى العسكران للقتال كما ياتي بيانه وتحقيقه في محلّه إن شاء الله تعالى وأصابت الباي حسين رصاصة في وركه فهرب وهرب أولاده وسار إلى القيروان، كما وعد به الملك الديان، وانهزم بعده عسكره واستولى الباشا على عسكره ومحلّته ومعه إمامه أحمد بن الحاج يوسف برتقيز فرجع إلى تونس هاربا ووصل إلى دار أبيه على شرّ الحالات، فوجد ذلك اليوم الباني يبني عند والده والحاج يوسف واقف عليه مشتغل بالبناءات، قيل يبني له في دروج علي فوصل إليه خبر [كسر] المحلّة قبل وصول ولده [277] فلم يرعه ذلك ولا تحيّر، ولا احمرّ له وجه ولا اصفر، قيل فلما بلغه الخبر، وقف البنّاي وارتعدت يده وخلط في عمله وأراد أن يبطل بنيه، فقال له الحاج يوسف : مالك أتمم يومك واشتغل بعملك إلى وقتك المعلوم، وإن أردت أن تبطل فلا لك أجرة ولا عليّ لوم، فأخذ المعلم في تمام نهاره لياخذ منه أجرته، وانقلبت المدينة بالبكاء والصّياح، والحاج يوسف يكمّل في يوم الباني ليعطيه أجرته خوفا من نقص عمله وخسارته أن يباح. وكأنّما كسر المحلة، وهروب الباي حسين إلى القبلة، لم يخطر له على بال، ولا تحيّر ولا فكّر فيما يرجع إليه المآل، وقعد في داره مجتمعا بأولاده وعياله (119)، إلى أن دخل الباشا علي تونس، وسبق قدامه بيوم

(118) سمنجة : بولاية زغوان ومعتمديتها.
(119) ص : بعياله وأولاده.

ولده يونس، فصار للحاج يوسف ما صار في أيام الباشا ياتي بقيّة خبره في محلّه إن شاء الله تعالى والله أعلم.

[خبر الشيخ العالم الصغير داود النابلي]

ومنهم الشيّخ العالم الصّغير داود النّابلي فهو الثّاني من المكانة بعد الحاج يوسف، وقد ذكر صاحب كتاب «بشاير الإيمان» طرفا من خبره في أوّل عمره ومدحه كثيرا، إن شيت فراجعه في هذا الكتاب، وكان رجلا له لطافة، وعنده ظرافة، ولباقة وخفّة نفس عند جميع النّاس، وكان تمكّن من الأمير حسين بن علي سامحه الله غاية التمكّن، وأحبّ شيء عند الباي حسين، من يذكر له مناقب الصّالحين، وكراماتهم وعنده اعتقاد زايد في الصّالحين، فمن أراد أن يتقرّب إليه فينسب نفسه إلى الصّلوحية، واتّخذ له شيخا ويذكر له منامات رآها، واستخارات استخارها، ويدوّر بين يديه سبحته فهو في أرفع مكان عنده، وأطلقت النّاس على ذلك فإذا أراد القرب منه أي من الباي حسين [278] يأتونه يقولون له : رأينا لك وكان الصّغير داود ممّن تقرّب بهذا الصّنيع، فقرّبه منه، وإذا سافر إلى محلّة الشتاء ويمكث الباي حسين في القيروان يبعث كرّيطة من القيروان إلى الصّغير داود بنابل فيركبها وتسير به إلى القيروان، قيل قبل طلوع الباشا لجبل وسلات بعام أو عامين. لما نزل الباي حسين بالقيروان بعث الكرّيطة على العادة لنابل إلى الصّغير داود وكان إذّاك بنابل رجلا صاحب أحوال وكرامات زايدة اسمه الشيخ سيدي عاشور العيّاط (120) وكراماته مشهورة في تونس ونابل وغيرها، وهو أشهر ممّن يعرف، فلمّا أراد الصغير داود السّفر تلاقى بالشيّخ سيدي عاشور نفعنا الله به فبادر الشيخ الصّغير داود بالكلام وقال له : يا عالم تريد السّفر إلى صاحبك. قال له : نعم يا سيّدي إن شاء الله. قال له الشيخ : اتحبّ أن أمشي

(120) انظر مناقبه في الفصل الموالي.

معك. قال له الصغيّر داود : وأنّى لي بذلك، إن سافرت معي فهو اليوم المبارك، نتحف الأمير حسين بن علي بملاقاتك. قال له الشيخ عاشور : كثّر لنا العوين، من الخبز واللّحم السّمين.

وتحقق الصّغير داود من الشيخ عاشور أنّه يمشي معه إلى القيروان، فلمّا جهّز نفسه وقضى حوايجه وأراد الركوب في الكرّيطة أتاه الشيّخ عاشور وركب معه في الكرّيطة فهي أبرك سفرة عند الصّغير داود الذي وافقه الشيخ عاشور بالمسير معه والقدوم به على الباي حسين رحم الله الجميع، وساروا من نابل إلى أن وصلوا إلى القيروان، ووصلت الكرّيطة إلى دار الباي حسين بالقيروان وهو نازل بها فدخلوا على الباي حسين وبشّروه بقدوم الشيّخ الصغير داود ومعه الشيخ عاشور العيّاط ففرح الباي حسين فرحا شديدا بقدوم الشيّخ سيدي عاشور [279] وتعجّب من ذلك ودخل الصّغير داود ومعه الشيخ عاشور فلمّا تقابلت الأعيان وقربا من المكان وقف إليهما حسين باي رحمه الله ومشى في البيت خطوات مجايرة في الشيخ عاشور، وجلس وأجلسه إلى جانبه واستبشر بقدومه، وشكر الصغير داود على قدومه بالشيّخ معه، وصار الباي حسين يسأل الشيّخ عن أحواله وهو عارف به وله فيه اعتقاد زايد، فبقي الشيّخ ينظر يمينا وشمالا في البيت ويضحك [ويسأل] الباي حسين عن الواقفين للخدمة من المماليك الصغار يقول له : من هذا يا خوية. يقول له الباي حسين : هو مملوكك يا سيّدي. يقول له الشيخ : أنا مالي مملوك بل أنا مملوك في نفسي (121).

ولما طال المجلس خرج الشيخ سيدي عاشور من البيت، قال له الباي : أين تريد يا سيدي. قال له الشيخ عاشور : أين يريد الله. وذهب من عنده وخرج من دار الباي ودخل القيروان ولم يرجع إلى الباي حسين فبقي يسأل

(121) أي هو مملوك لله تعالى.

عنه ويبعث من يأتيه به فيدورون في بلد القيروان فلا يجدون له خبرا، ولا يعرفون له مقراً، إلى ثالث يوم والباي حسين جالس في البيت هو والصّغير داود، وإذا بالشيخ قادم عليهما ففرح الباي حسين بقدومه وقال له : يا سيّدي هربت علينا وتركتنا ولم نضيّفك ونستبشر بمواكلتك.

وبقي الباي حسين يتملّق للشيخ عاشور ويخاطبه والشيّخ غايب على حسّه ثم أفاق من غشيته ونظر للباي حسين رحمه الله وقال له : يا حسين بن علي الله يجبرك من ابن أخيك. وكرّرها مرّتين أو ثلاثة فتغيّر وجه الأمير حسين بن علي وسقط ما بيده وسكت.

وأمّا الصّغير داود فإنّه برد غاية البرودة واستحشم من الباي حسين غاية الحشمة وكأنّما سقط على رؤوسهما الطّير فعندها قام الشّيخ عاشور من مجلس حسين باي وخرج من الدّار وترك الباي حسين، [280] والصغيّر داود جالسين، فقال حسين باي للصغيّر داود : سبحان الله ما كنت أظنّ أن نسمع هذا الكلام من الشيّخ وماله وللتّقطيع بين الرّحم، وقد نهى الله [عنه] ولعن قاطع الرّحم والسّاعي في قطع الرّحم. فقال له الصّغير داود مع برودته : اترك قول هذا الشيّخ والغه ولا تحطّه في بالك، ولا تفكّر فيه، الشّيخ سيدي عاشور رجل صاحب أحوال ومقال تارة يصيب وتارة يخطي، وهذه أحوال صاحب الأحوال، فلا يعمل لهم على مقال، وصار يستلطف ويتعطف في الأمير حسين ويسلّيه عن كلام الشّيخ سيدي عاشور. قيل ولم يرجع الشّيخ عاشور للباي حسين سامحه الله ولا تلاقى به بعد هذا الكلام، والله أعلم.

ولمّا عظمت مكانته عند الباي حسين رحمه الله واشتهر الصغيّر داود في بلاد القبلة عند الخاص والعام، فمن أصابه ظلم أو ما يكرهه قريبا أو بعيدا سافر إلى الشيخ الصّغير داود سواء كان في نابل أو في باردو عند

الأمير حسين باي رحمه الله، وشكوا إليه حالهم وما أصابهم فيخبر الباي حسين بقضاياهم فيقضي حوايجهم ويرفع ظلامتهم فهرعت إليه النّاس من نابل إلى الجريد فما على يديه يد.

ولما روى لسان القلم، بالحبر المظلم، قصّر في جريانه فلم أملك له زماما، ولم أمسك له خطاما، فقلت : ما لك ولعصيانك ؛ انته عن ذلك. فأجابني لسان حاله : مالك تركت ذكر بعض كرامات الشيخ عاشور العياط. إن أردت النّجاح فاذكر مناقب هذا الرّجل الصّالح فساعدته على جريانه والتفت إلى ذكر بعض مناقب الشيخ عاشور وكراماته فأقول وبالله التّوفيق على جهة النّقل.

الفهرس

الطبعة الاولى 1998

ISBN : 9973-084-5 (éd. compléte)

ISBN : 9973-085-3 (T. 1)

المطبعة العصرية ـ تونس